

الأمير شكيب أرسلان



الدار القومية



ديوان  
الأمير شكيب أرسلان



الأمير شكيب أرسلان / ديوان الأمير شكيب أرسلان

قدّم له:

د. عبد العزيز المقالح

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠





الأمير شكيب أرسلان

## كلمة لا بدّ منها

إنّ هذا التراث القيّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه  
إلى الأساتذة:

المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،  
والمحامي الأستاذ توما عريضة،

الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبّد العناء  
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية  
بحثاً واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،  
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،  
طيّ النسيان والضياع.

فلهم دائم العرفان لما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع  
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية



## مقدمة الناشر

بدأ الأمير شكيب أرسلان بنظم الشعر، وهو في السابعة عشرة من عمره، وجمع شعر الصبا في ديوان أسماه "الباكورة".

والباكورة، في اللغة، أول الثمر. ولم يمض وقت طويل حتى نضج شعره، وذاع صيته، وأصبحت ثمراته دانية القطوف؛ فأصدر ديوانه الثاني سنة ١٩٣٥، وصدره بمقدمة لشاعر القطرين خليل مطران.

وإذا كان الشعر ابن المعاناة، فالأمير شكيب أرسلان شاعر من الأفذاذ، وليس من سبيل إلى تجزئة المعاناة، فهي واحدة، سواء أكانت قطرة دم في ميدان الجهاد، أو قطرة حبر في البيان. لم يعتمد الأمير شكيب أرسلان على الخيال - في تصويره الشعري - بمقدار ما اعتمد على الصور البيانية (البلاغة)، ويعود سرّ تفوّقه في شعره ونثره، إلى امتلاكه اللغة امتلاكاً جعله يتصرّف بألفاظها كيف يشاء، ويوجّه أساليبها حيث يريد.

عاصر الأمير شكيب أرسلان شاعران شهيران هما: محمود سامي البارودي واسماعيل صبري، وهذان الشاعران رفعا مستوى الشعر العربي، ونهجا به نهجاً جديداً، فحذا الأمير شكيب حدوهما ونهج نهجهما في تجديد الشعر لفظاً ومعنى وصياغة، بيد أنه اختلف عنهما غرضاً، فللأمير شخصية أدبية مستقلة، وتوجّه حياتي خاص.

لم يتخلف الأمير شكيب عن المتقدمين في مطالب الشعر، وقاله مثلهم، وزاد عليهم شيئاً من مظاهر الحضارة الجديدة، فهو لا يجهل المدرسة الرومنسية التي ظهرت في فرنسا، بشكل خاص، وقد عرض ذلك في كتابه "أناطول فرانس..." ولكن انصرافه إلى سياسة الأمة وقضاياها الكبرى، وضع حدوداً لتجديده، فما تجاوزها، في زمن استطاع فيه التجدد، ولم تطلق هموم الشرق أسر الأمير إلا عندما التحق بربه.

يقول مارون عبّود: "لو انصرف الأمير شكيب أرسلان إلى الشعر وحده، لكان هو أمير الشعراء وليس أحمد شوقي".

وعندنا أن أمير البيان شبّ شاعرًا واكتهل ناثرًا.

إنّ الدار التقدّمية تقدّم للمكتبة العربية، باعتزاز، ديوان الأمير شكيب أرسلان. فيرى القراء من خلاله وجهًا أدبيًا آخر من وجوه الأمير، ولمعة فنية جديدة من لمعات قلمه.

## الدار التقدّمية

في، ١٣ آب ٢٠١٠





## تقديم

بقلم: د. عبد العزيز المقالح

- ١ -

لا أخفي - بدايةً - أنني تهيبت كثيرًا الإقدام على هذه التجربة الفريدة من وجهة نظري، تجربة تقديم ديوان أمير البيان شكيب أرسلان؛ فقد أكبرت على نفسي هذا الإقدام غير المحسوب، لما أحتفظ به ويحتفظ به جيلي وأجيال سابقة لجيلنا من إكبار وإعجاب بهذا المفكر العربي الإسلامي، الذي ذاعت شهرته في الآفاق ونال في زمنه ما لم يتله يومئذ مفكر وشاعر في دنيا العرب من الشهرة العالمية، ثم لما كان لنضاله وجهوده في الذود عن الإسلام والعروبة، والوقوف في وجه المزاغم والافتراءات التي كان الغرب يرمي بها العرب والمسلمين مع اتساع دائرة أطماعه ودسائسه وافتراءاته. ولو كان والدي، رحمه الله، ما يزال حيًا يرزق، وعلم بشرف تقديمي لديوان الأمير، لطار فرحًا وابتهاجًا؛ فقد كان من أشد محبي الأمير، شأن أبناء جيله ممن فتحوا أعينهم وعقولهم على كتاباته، بوصفه واحدًا من الرواد العظام الذي أخذوا حيزًا واسعًا في الذاكرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

ومع الاعتراف بالتهيب وما رافقه من تردد، إلا أنني أشكر الصدفة الجميلة التي منحتني فرصة الاقتراب من فكر الأمير وشعره، ومن العودة إلى ذلك الزمن الجميل. ومن الضروري الآن، وبعد ستين عامًا من رحيل الأمير، التأكيد أنه كان يستحق تلك الشهرة العالية، التي نالها بجدارة؛ فقد تفرغ لقضايا أمته، صغيرها وكبيرها، وفي مختلف أقطارها، وتلمذ على الشيخ محمد عبده، وأقام صلة وطيدة مع جمال الدين الأفغاني، وسعد زغلول وغيره من زعماء الحركة الوطنية في مصر. كما يذكر له التاريخ مشاركته مع المجاهدين في التصدي للاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب (ليبيا)، وتوليّه الدفاع عن القضية الفلسطينية، وكما تمّ تعيينه رئيسًا للمجمع العلمي العربي في دمشق، عام ١٩٣٨م. وذلك كلّه يؤكد الأفق القومي لفكر الرجل وممارسته الحياتية.

وكانت كتاباته انعكاسًا لذلك الاهتمام الذي جعله عرضة للاضطهاد والنفي عن أرضه. إلا أنه لم يجزع ولم يتردد، وظلَّ في الميدان يقاوم ويتحدّى، ولم يتنازل عن مبادئه أو يتوقف عن مواصلة نضاله الفكري والإبداعي حتى حان الأجل المحتوم الذي وافاه في ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٦.

وكما دافع الأمير شكيب أرسلان عن أمته العربية الإسلامية، فقد دافع عن لغة العروبة، وتواصلت جهوده مع زملاء له وأقران ممن أعادوا تعريف الهوية العربية وأكدوا أهميتها الاجتماعية والثقافية، وأنها ترتفع فوق المذاهب والانتماءات السياسية والولاءات الإقليمية الضيقة، كون العروبة هوية وجود وانتماء. وفاقت دعوته للمحافظة على اللغة العربية والعناية بها، إذ بدونها - كما ذهب إلى ذلك - تضمحل الذاكرة ويخبو الوجدان. ولم يكن يخفي شغفه بالجزيرة العربية وانشغاله بهمومها، وظلَّ يرى أنها - كما كانت - المبدأ والمنطلق، فمنها تأتي المنطلقات الجديدة، وأن الرمال التي تراكمت عليها في عصور الانحطاط تحتاج إلى من يزيلها، ليعود لها جمالها واخضرارها وقدرتها على الخصب والنمو، وتكون قادرة على الحيوية والنهوض، وجديرة بأن تأخذ موقعها بين الشعوب وحضاراتها وثقافتها.

ومن يراجع - بإمعانٍ - تجربة الأمير وجيله، يدرك أنه لم يفصلنا عنهم وعن نخبة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين زمن طويل، لا في التاريخ ولا في الرواية، وما تزال أسئلتهم عن سرّ غياب العرب المعاصرين عن العالم هي أسئلة اليوم. صحيح أن كلّ الأقطار العربية قد حققت الاستقلال الشكلي، وخرج الأجنبي بقواته المحتلة من الأبواب؛ لكن الاحتلال عاد إليها - أو إلى بعضها - من النوافذ، ونجح في زراعة الفرقة والاختلاف، وبذلك اطمأنَّ إلى مستقبله. ولهذا وذاك فلا بدّ من تعريف الأجيال الجديدة برموز الريادة الفكرية والوطنية، ومنهم الأمير شكيب أرسلان، الذي كان واحدًا من الرواد الذين جاؤوا في وقتهم المناسب، وتمثلوا ثقافة العصر بعد أن تمثّلوا - بعمقٍ وفاعليّة - التراث، وكانوا صوت التحريض الصادق ضدّ الاحتلال الأجنبي.

عاش الأمير عقودًا من الزمن مبعّدًا عن وطنه، فشارك من منفاه برفد الوعي الروحي والوطني بكتاباته وقصائده ومواقفه، وكان - بحق - واحدًا من أعلام الفكر والأدب الذين وضعوا الأسس الحقيقية للتحرّر والاستقلال ودعم الحرّية ومقاومة الاستبداد، والدعوة إلى الوحدة العربية بوصفها حبل النجاة والأساس الحقيقي للتقدّم السياسي والاقتصادي

والاجتماعي. ولا يمكن القول إنَّ أصواتهم قد ضاعت أو ذهبت أدراج الرياح، فقد أشعلت المشاعر، وقادت إلى المقاومة في مشرق الوطن العربي ومغربيه، وما زالت عصية على المحو، رغم العقود العجاف التي مرّت بالأمة العربية، وأعاصير النكبة التي عصفت بكثير من أحلامها وأعانت الكثير من تطلّعاتها.

ولا شكّ أنّ بقاءه في أوروبا لسنواتٍ طويلة قد فتح عقله على الفوارق الشاسعة بين الحياة في ذلك العالم الجديد والحياة في الوطن العربي والعالم الإسلامي. وكان من نتيجة ذلك كتابه "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟"، وهو الكتاب الذي أصبح عنوانه شعاراً وحديثاً للمثقفين في المنتديات الفكرية والسياسية.

إنّ السنوات التي أمضاها الأمير في أوروبا منفيّاً، لم تجعله يعيش في منأى عن هموم وطنه الصغير: لبنان، ووطنه الأكبر: الوطن العربي. ودليل ذلك: مشاركته الفاعلة في لجنة الوساطة التي تألّفت من عدد من المفكرين العرب البارزين لوضع حدّ للنزاع الذي قام بن يحيى حميد الدين، ملك اليمن، وعبد العزيز آل سعود، ملك العربية السعودية؛ وهو النزاع الذي أدى إلى قيام حرب طاحنة بين البلدين الجارين. وقد نجحت اللجنة في المساعدة في وضع حدّ لذلك النزاع وإطفاء حرب كان يمكن أن تطول.

ومن المهمّ أن نتوقّف هنا لكي نشير إلى أنّ مشاركته في لجنة المصالحة المشار إليها لم تمنعه. وقد أتيحت له زيارة اليمن للمرّة الأولى والأخيرة. من أن يقدّم إلى إمام اليمن نصائحه المخلصة للبدء بالإصلاح والخروج بالبلاد من واقع العزلة التي إن استمرّت وظلّت أوضاع الحياة على ما كانت عليه من سوء وتخلّف، فستجعله هدفاً للغزو والاحتلال والتفتّت. وقد نجح الأمير بصعوبةٍ في إقناع الإمام بالاستعانة بعدد من الشبان اللبنانيين للعمل ك مترجمين وسكرتارية، وكان من ضمن هؤلاء الشبان نجيب أبو عزّ الدين، الذي كانت مهمّته في البداية التقاط الأخبار من المذيع ونقلها إلى الإمام ليعرف ما يدور في العالم من أحداث. وفي كتابه "عشرون عاماً في خدمة اليمن" ينقل نجيب أبو عزّ الدين الواقعة التالية، وهي تكشف عن عمق التخلّف الذي عانى منه اليمن تحت حكم الإمام يحيى وخليفته أحمد:

"بلغ اهتمام جلالة الإمام بالنشرة الإخبارية اليومية حدّاً جعله يستدعيني للاستفسار وطلب المزيد من المعلومات عن بعض نقاط كانت ترد فيها، وكنت أصطحب معي أحياناً الخرائط الجغرافية لأوضح لجلالته موقع البلد المتعلّق بالنبأ الذي يستوضحني بشأنه. وأراد

جلالته استيضاحي أيضًا عن كيفية إعدادي للنشرة، وخصوصًا كتابتها على الآلة الكاتبة، وإخراج عدة نسخ عنها؛ فشرحت له ذلك وقلت: كل هذا أفعله يا مولايّ على ضوء قنديل كاز صغير سيؤثر ولا شكّ على بصري في المستقبل. كانت الآلة شبه مجهولة في اليمن، وقد أخبرني آنذ سيف الإسلام الحسين أنه كان قد اشترى واحدة من القاهرة منذ سنوات، وأنّ الصدا أكلها، نظرًا لعدم وجود من يحسن استعمالها. طلب منّي جلالته أن أحضر إلى مقامه الشريف في اليوم التالي، ومعني تلك الآلة العجيبة، ففعلت وفتحت الماكينة أمامه، ثمّ جهّزت ستّ أوراق، وضعت بين كلّ اثنتين منها ورقة كربون للاستحصال على عدة نسخ، وكتبت - وأنا جاثم على منكمبي أمام جلالته وعيوني محتدمة به - ما يلي: "جلالة الإمام يحيى بن محمّد حميد الدين أمير المؤمنين، ملك اليمن المعظّم"، ولم تستغرق العملية أكثر من خمس ثوانٍ. لا يمكنني وصف دهشة جلالته والحاضرين في مجلسه أولاً من الكتابة بدون النظر إلى الحروف، وثانيًا إخراج خمس<sup>(١)</sup> نسخ دفعةً واحدة. سلّمت هذه الأوراق إلى جلالته، فوزعها على الحاضرين لرؤيتها، لأنّ جلالته رغم أنه كان يطالع النشرة الإخبارية يوميًا، إنّما لم يكن قد رأى الماكينة الكاتبة. سمح جلالته للحاضرين بتوجيه الأسئلة إليّ، فسألني أحدهم كيف أستطيع الكتابة دون النظر إلى الحروف، فأجبته أنّ ذلك جاء نتيجة تدريب وتمارين عدة شهور. سألني آخر عن كيفية طبع ستّ نسخ دفعةً واحدة، فأجبته أنّ الفضل في ذلك يعود إلى ورق الكربون، ووضعت واحدة بين يديه وشرحت له كيفية استعمالها...".

يمكن القول إنّ وجود الآلة الكاتبة كان خطوة أولى نحو إيجاد مطبعة وجريدة يعمل فيها شابّ لبناني من مجموعة الشبان الذين يعود الفضل في وجودهم في اليمن يومذاك إلى الأمير شكيب أرسلان، الذي أسهم عمليًا ولو بجهدٍ محدود في إخراج اليمن من ظلمات التخلف الرهيب، بما بذله من نصحٍ خالصٍ وتحذيرٍ بأنّ الانغلاق التامّ وبقاء الحكم في صورته البدائية لن يوقف الزحف الاستعماري في الجنوب، ولن يصدّ خطر المنافسة القادمة من الشمال. وقد ظلّ اليمنيون يشيدون بهذا الموقف ويعتبرونه واحدًا من أهمّ الاختراقات التي أسهمت في التحطيم المتتابع لأسوار العزلة التي تحطّمت نهائيًا بقيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م.

(١) لعلّ المقصود هاهنا ستّ أوراق كونه العدد المتبع سابقًا ولاحقًا، ولكنّها وردت هكذا في النصّ الأصلي، وعلى لسان الأمير شكيب نفسه، فأقرها تركها كما هي.

يُعدّ هذا التمهيد ضروريًا بقدر ما يُمكن قارئ الديوان من أن يعرف صاحبه، المفكّر والمناضل والمصلح والشاعر، الذي كانت تلك هي أشهر صفاته، ولم تكن الصفة الأخيرة "الشاعر" التي اكتسبها من خلال شعره سوى صفة ثانوية، إذ لم تُتح له فرصة التفرُّغ لكتابة الشعر بعد أن شغلته الهموم السياسية والفكرية عن كلّ ما عداها. ومن الواضح أنّ شعره ينتمي إلى مدرسة الإحياء، تلك التي قامت بدور لا يستهان به في التواصل العميق مع الماضي الشعري الزاهر، وكانت هذه الحركة بمثابة الذاكرة الحافظة للموروث الشعري العربي في أوج ازدهاره، والبناء على منواله تمهيدًا لجيل التغيير والتطوُّر والتحديث. وكان الأمير شكيب صديقًا مقربًا لدى كبار الشعراء في عصره. وكان بينه وبين شاعر الإحياء الأبرز محمود سامي البارودي علاقة مودّة، وجرت بينهما مراسلات شعرية مثبت بعضها في الديوان. كما ربطته علاقة وثيقة بأهمّ شاعرَيْن في مطلع القرن العشرين، وهما أحمد شوقي و خليل مطران. وقد أَلّف كتابًا عن الأول بعنوان "شوقي أو صداقة أربعين عامًا"، أشاد فيه بفضله وأثره في رفع راية الشعر العربي وتجديد مساراته.

جمع ديوان الأمير شكيب أرسلان لأول مرّة وأشرف على طبعه صديقه العلامة محمّد رشيد رضا، صاحب مجلّة "المنار"، كان ذلك في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، وكتب الشاعر خليل مطران تصديرًا له، وهذه مقدمة التصدير: "لَمَّا عَلِمَ شاعر الأقطار العربية وشيخ الأدباء الأستاذ خليل مطران بقرب ظهور ديوان صديقه وعشير صباه، صاحب العطفة الأمير شكيب أرسلان، أحبّ أن نضع له كلمة تصدير التي نثبتها في صدر الديوان". وممّا جاء في ذلك التصدير: "هذا ديوان أمير البيان! أفي حاجة أنا إلى تسمية صاحبه بعد هذا الرأي الذي نعتة به الإجماع في الأمة العربية؟... بدأ الأمير شكيب أرسلان حياته الأدبية بنظم الشعر، فاشتهر به ولم يعدّ السابعة عشرة من عمره. وقد طبع في ذلك الوقت ديوانًا جمع به أوائل شعره، وسمّاه "الباكورة"، فتوسّم مطالعوه أنّ ناظمه يرقى حثيثًا إلى مقام لا يرام بين شعراء العربية. ولو ظلّ الأمير معنيًا بذلك الفنّ الرفيع لصدق فيه ما ظنّوه كلّ الصدق. غير أنّ شأنًا آخر من الشؤون الضخام التي هي أشدّ إغراءً للرجل، بعيد المطمح في مطالب العلياء، صرفه وشيكًا عن الهيام في مسابح الخيال والضرب في آفاقه الأنيقة إلى منازل الحوادث والأيام في معترك الحقيقة".

وفي هذه الإشارات الدالة قَدْر غير قليل من النقد الموضوعي المصحوب بالإكبار والإعجاب بمفكر وكاتب كبير شغلته الهموم الكبار عن متابعة كتابه ومواصلة ما بدأه في شبابه الباكر. وفي الديوان أيضًا مقدّمة بقلم الأمير نفسه يؤكد فيها ما جاء في تصدير صديقه الشاعر الخليل، ومنها: "هذا ديوان شعري من أيام الصغر إلى أيام الكبر، يتجلّى فيه روعي، حدثًا وشابًا وكهلاً وشيخًا. ويعرف منه القارئ أنها روح لم تزل يشبه بعضها بعضًا في جميع أدوار الحياة. لم يكن غرضي من نشر هذا الديوان إظهار فصاحة أفاخر بها، ولا إثبات براعة القلق أتعلق بأسبابها، ولا حشد كلمات أتوحي إرسالها، ولا تسيير شواردي يقال: مَنْ ذا قالها؟ لا سيّما وقد بلغت السنّ التي يضعف فيها التفكير في المفاخر، ويقوى التذكّر للأخرة".

وبعد هذه التوطئة بالغة التواضع، يشير الأمير إلى أنّ دوافعه وراء نشر الديوان تتمثّل في خصال ثلاث: أولها، أنّ الشعر لقائله كالولد لناجله، ولأنه يخشى بعد انصرافه من هذه الدنيا أن يُنسب إليه من الشعر ما لم يقله. والخصلة الثانية، أنّ بعض قصائد الديوان متعلّق بوقائع تاريخية مشهورة، وبعضها متضمّن لمبادئ سياسية ماثورة، فنشرها حصّة من التاريخ يتميّز فيها من اعتدل عمّن اعتدى، ويعرف من صلّ ممّن اهتدى. أمّا الخصلة الثالثة والأخيرة، فإنّه كان للأمير أصدقاء وأتراب، وإخوان ترافقه عليهم الحسرات إلى التراب، فأحبّ - كما يقال - أن يبتّ أرواحهم الزكية الوجد الذي وجدته من فراقهم، وأن ينتشر بعد طي أجسادهم ما عرفه من محاسن أخلاقهم، فيكون قد وفاهم بعض حقوق الوفاء.

لقد كان الأمير شكيب على اطلاع واسع بأداب أمته شعراً ونثراً، وكان كذلك على اطلاع حسن بأداب الأمم الأخرى. وكان بقاؤه في أوروبا يمدّه بحالة من التواصل المستمرّ مع آداب تلك القارّة المنقولة إلى اللغة الفرنسية التي يجيدها. لكن الملاحظ أنه أفاد من تلك العلاقة فكرياً، ولم يستفد شعرياً، فقد ظلّ وفيّاً للموروث الشعري العربي، يشاطر شعراء الإحياء جهدهم في المحافظة على ديباجة القصيدة العربية وجزالة لغتها وسلامة معمارها، وظلّ سؤال النهضة بالنسبة له سؤالاً فكرياً وسؤالاً وطنياً وقومياً بالدرجة الأولى.

وإذا كانت كتاباته الفكرية ودراساته ومقالاته ومراسلاته قد حظيت باهتمام واسع من الدارسين والقراء على مستوى الوطن العربي، مشرقاً ومغرباً، فإنّ شعره لم يحظَ بشيء من ذلك، بل إنّ الكتابات الكثيرة عنه في حياته وبعد مماته لم تتحدّث عنه شاعراً، في حين أنّ ما تمّ العثور عليه من شعره وجمعه في هذا الديوان، فضلاً عن بواكيره الأولى التي كتبها

في سنّ الصبا، يضعه في صفّ كثير من شعراء عصره والمشاهير منهم خاصّة، مع الاعتراف بأنه مُقلّ، ولم يكن يرى نفسه ندّاً لأيّ منهم. ولعلّ من أسباب تجاهل شعره أنّ ملايين القراء ومئات الدارسين انشغلوا بفكره وبمواقفه، وكأنّ لسان حالهم يقول إنّه ليس بحاجة إلى مزيدٍ من أسباب الشهرة والإعجاب.

وأجدني مضطراً في إثبات شاعريّة الأمير واقتداره على مجاراة شعراء عصره - قبل أن يهجر الشعر ويعطي جهده للكتابة النثرية وللترجمة عن اللغات الأجنبية - إلى أن أعقد مقارنة محدودة الحيز بين نماذج من شعره وأخرى من شعر محمود سامي البارودي، وقد لقبه بعضهم بأمير شعراء عصره. ومن ذلك هذه الأبيات التي بعث بها الأخير إلى الأمير شكيب يشكره فيها على استشهاده في بعض كتاباته بأبيات له:

أشدتَ بذكري بادئاً ومعقّباً  
وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّمِ  
وما ذاك ضناً بالوداد على امرئِ  
حباني به لكن تهيبتُ مقدّمي  
فأما وقد حقّ الجزاء فلم أكن  
لأنطقَ إلاّ بالثناءِ المُمنّمِ  
فكيف أذودُ الفضلَ عن مستقرّه  
وأنكرُ ضوءَ الشمس بعد توّسمِ  
وأنت الذي نوّهتَ بأسمي ورشّتي<sup>(١)</sup>  
بقولِ سرى عني قناعَ التوهّمِ  
لك السبقُ دوني في الفضيلة فاشتملِ  
بحلّيتها فالفضلُ للمتقدّمِ  
ودونكها يا ابنَ الكرامِ حبيرةٌ  
من النظم سداها بمدح العلافمي

(١) راسّته: أعانه وأغناه؛ وراش من حاله: أصلحها، والمراد: تفضّلت عليّ.



فأجابه الأمير شكيب بقصيدة طويلة من البحر نفسه والقافية نفسها، ومما جاء فيها:

إذا أمطرَ الغَيْثُ الرياضَ بوابلٍ  
فأيُّ يدٍ للطائر المترنم؟  
إذا ما تَصَبَّتْ بالعميد صباحةٌ  
بوجهٍ فما فضلُ العميدِ المتيمِّم؟  
وهل ينكر الإحسان إلا لئامةً  
ويُنكرُ حُسناً غيرُ مَنْ طَرَفُهُ عمي؟  
وهل في شهود الشمس أدنى مزيّةٍ  
وقد جاء ضوء الشمس لم يتكتم؟  
رويدك! لا تُكثِرْ لدهرك تُهمةً  
ولا تياسنُ من أهله بالتوهمِ  
فما زال من يدري الجميل ولم يكن  
لتأخذه في الحقّ لومةٌ لؤمِ

وسيالاحظ القارئ ما في الردّ من لغة مطبوعة، وصور تتداعى بيسر ودون تكلف، وهو ما ميّز شعر الأمير شكيب أرسلان، ممّا يؤكّد كونه شاعراً مطبوعاً وليس متكلّفاً أو مقلّداً أو ناظماً. ويبدو أنّ التراسل الشعري بين البارودي والأمير شكيب قد تواصل، وكلّ منهما يحاول أن يعبر عن مودّته للآخر وأن يثبت في الوقت ذاته سمو ملكته الشعرية. يكتب سامي البارودي قصيدة من بحر البسيط جاءت مقدّمتها على هذا النحو:

إدي الرسالة يا عصفورة الوادي  
وباكري الحيّ من قولي بإنشادِ  
ترقبي سنّة الحراس وانطلقني  
بين الخمائل في لبنان وارتادي

لعلَّ نعمةٌ وُدُّ منك شائقةٌ  
تهزُّ عطفَ «شكيب» كوكبِ الناديِ  
هو الهُمَامُ الذي أحيَا بمنطقه  
لسانَ قَوْمٍ أجادوا النُّطقَ بالضَّادِ

وكان استحضار الموروث في ردِّ الأمير شكيب أكثر إثارة للعاطفة وضرباً من الإبحار العميق في الأحلام البعيدة، المشحونة بالصور الشعرية، المترعة بالحنين، والملونة بأطياف وروى جمالية تُغني التجربة وتضاعف تأثيرها التعبيري العميق:

هل تعلمُ العيسُ إذ يحدو بها الحادي  
أنَّ السُّرى فوق أضلاعٍ وأكبادِ  
وهل ظعائنُ ذاك الرِّكبِ عالمةٌ  
وأنَّ النوى بين أرواحٍ وأجسادِ  
تحملوا ففؤادي منذ بينهم  
في إثرهم نضو تَأوِيبٍ وإيسادِ  
يرتادُ منزلهم في كلِّ قاصيةٍ  
حجّه لو درى أحرى بمُرتادِ  
بين الجوانح ما لو أنتَ جائبُهُ  
أغناك عن لَفِّ أغوارٍ وأنجادِ  
وفي الفؤادِ كَشَطْرِ الكَفِّ باديةٌ  
في جنبها تيهُ موسى ليس بالبادِ

وفي الديوان مزيد من هذه المراسلات الإخوانية، وبعضها تمّ، والبارودي في منفاه البعيد عقاباً له على مشاركته الباسلة في الثورة «العرابية» التي لم يكتب لها النجاح، وكان الأمير من محبّذها، لا سيّما وقد شاركت فيها النخبة الوطنية الواعية في مصر، وقد تولّى

الإنجليز - يومئذٍ - قمعها ولم يترددوا عن إعلان احتلال أرض الكِنانة حفاظًا على عرش أسرة محمد علي - كما كانوا يدعون.

والخلاصة أنَّ ديوان الأمير شكيب أرسلان يشكّل حلقة مهمّة من حلقات الإحياء الشعري، وأنَّ قصائده تعكس تجربة على جانب من الخصوصية والتميز، بما تطرحه من هموم ورؤى، ومن صفاء لغوي وتماسك في الأسلوب والبناء.

وهنا، سأختم مقدّمًا الشكر الجزيل لسعادة سفير الجمهورية اللبنانية في صنعاء، الأستاذ حسان أبي عكر، الذي أبلغني قرار اللجنة المعنية بتراث الأمير شكيب أرسلان اختياري إنجاز هذا التقديم، ولما أمدّني به مراجع قيّمة وملاحظات سديدة كان لها أكبر الأثر لا في كتابة هذا التقديم فحسب، وإنما لإعداد كتاب شامل عن الأمير "الرمز" وكفاحه الطويل في ميادين السياسة والفكر والإبداع.

كلّية الآداب - جامعة صنعاء

٢٠٠٩/٦/١٩



## تصدير ديوان أمير البيان

(لَمَّا عَلِمَ شاعر الأقطار العربية وشيخ الأدباء، الأستاذ خليل بك مطران بقرب ظهور ديوان صديقه وعشير صباه، صاحب العطفة الأمير شكيب أرسلان، أحب أن يضع له كلمة التصدير التي نثبتها في صدر الديوان، قال الأستاذ، حفظه الله):

هذا ديوان أمير البيان! أفي حاجة أنا إلى تسمية صاحبه بعد هذا النعت الذي نعته به الإجماع في الأمة العربية؟

أتيح لي أن أصدره بهذه الكلمة، وفي النفس داع من الودّ القديم؛ وباعث من الإعجاب والإكبار، فانتهزت الفرصة السانحة، مغتبطاً بها، ولا أبرئ اغتباطي من أثر فيه للأثرة، فإنّ حظي بهذا التصدير أضعاف حظّ الصديق الكريم.

بدأ الأمير شكيب أرسلان حياته الأدبية بنظم الشعر، فاشتهر به ولم يعدّ السابعة عشرة من عمره. وقد طبع في ذلك الوقت ديواناً جمع به أوائل شعره، وسمّاه (الباكورة)، فتوسّم مطالعوه أنّ ناظمه يرقى حثيثاً إلى مقام لا يرام بين شعراء العربية. ولو ظلّ الأمير معنيّاً بذلك الفنّ الرفيع لصدق فيه ما ظنّوه كلّ الصدق.

غير أنّ شأناً آخر من الشؤون الضخام التي هي أشدّ إغراء للرجل البعيد المطمح في مطالب العلياء، صرفه وشيكاً عن الهيام في مسابح الخيال، والضرب في آفاقه الأنيقة إلى منازل الحوادث والأيام في معترك الحقيقة.

ففي هذا المفترق الأول من السبل التي يواجه بها المرء مستقبله، أثر الأمير الترسُّل ومضى فيه متدفّقاً تدفّق ينبوع الصافي، مجلجلاً أحياناً جلجلة السيل الكثير الشّعب. وما زال، حفظه الله، منذ خمس وأربعين سنة يتحف قراء العربية في مشارق الأرض ومغاربها بكتب قيّمة، يقتبسون من أنوارها هدى أو يفيدون من مختلف الآراء المنبئة فيها ما يهيء لهم من أمرهم رشداً؛ إلى رسائل متنوّعة يجتلون محاسن أغراسها وأزهارها، ويجتنون ما يغذي العقول ويُفكّ القلوب من أطياب ثمارها؛ إلى فصول ومقالات تنشرها المجلّات الدورية والصحف اليومية في كلّ قطر، فما ينقضي يوم من أيام تلك البرهة إلّا وله في كلّ

منها قلائد تزدهي بها صفحاتها، أو فرائد تزخر بها أنهارها. ولو تفرّغت طائفة من حملة الأقلام جمّ عديدها، فيأضة قرائحها فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ومباحث التاريخ والأخلاق لكتابة ما كتّب من تلك الفصول والمقالات، لتعذّر عليها أن تأتي مجتمعة بما أتى به ذلك العَلَمُ الفرد.

على أن الذين تتبّعوا، كما تتبعت آثار الأمير شكيب، قد تبينوا منذ الساعة الأولى سرّ المزية التي امتاز بها شعره ونثره جميعاً، فأحلاه الذروة المنيعه الرفيعة التي حلّها بين الأفاضل المبرزين من متقدّمين ومتأخّرين.

ذلك السرّ هو أنه ملك اللغة من أول أمره، ولا أغالي إذا قلت إنه جمع معجمها في صدره، بله ما استظهره من أساليب بلغائها، ورواه من روائع فحول شعرائها، وفي أثناء وروده تلك الموارد من فصيح العربية كان يرى وجوه الانطباق بين المصطلحات القديمة والمصطلحات الحديثة، ويتبيّن كيف تصرف المتقدّمون فيما وصل إليهم من الأصول، ليفرّعوا عليها المعاني الجديدة التي تعلق بها، تصرفاً لم يناف سلامة القول ولم يناد مقتضى البلاغة على تحوّل الأحوال وتعدّد العهود.

فلما اتّسقت له هذه الخصال، وتوافرت لديه تلك الأسباب، وأفاض من واسع علمه بالعربية على ما اكتسبته الخبرة، أنا بعد أن من مذكونات<sup>(١)</sup> المبتدعات الحديثة ومقتضيات الأحوال العصرية، ما دقّ منها وما جلّ بين حسّي ومعنوي، عدل غير مبطئ عن تشبّه الأول بالمحض الخالص من الأساليب المأخوذة عن الصميم من القديم، ولم ير له بعد ذلك مكتوب إلا وهو مطبوع بطابع السلاسة والانسجام والغزارة، مع الحرص على شرف المفردات ورصانة التراكيب، مجتمعاً كلّ أولئك في طابع الأمير شكيب.

تلك غاية لم يدركها غير هذا العبقرى في الترسل، ولو قد رامها في الشعر لأدركها كما قدّمت. غير أنه إذا كان قد رضي لنفسه في الشعر أن يكون المقلّ المجيد، فلا مشاحة في أنه انفرد بين المترسلين بأنه المكثّر المجيد.

وإنّ من ينظر جملةً إلى صنيع الأمير شكيب ليجد بحرًا زاخرًا في الأدب، ليست اللؤلؤات المنظومة فيه إلا شقائق للآلئ المنثورة منه في كلّ جانب.

خليل مطران

القاهرة، ٢٥ مايو ١٩٣٦

(١) زكّن: فهم وعلم.

## مقدمة



﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

هذا ديوان شعري من أيام الصُّغر إلى أيام الكبر، تتجلى فيه رُوحِي حَدَثًا وشَابًا، وكَهْلًا وشَيْخًا، ويعرف منه القارئ أنها روح لم تزل يشبه بعضها بعضًا في جميع أدوار الحياة. لم يكن غرضي من نشر هذا الديوان إظهار فصاحة أفاخر بها، ولا إثبات براعة أتعلّق بأسبابها، ولا حشد كلمات أتوخى إرسالها، ولا تسير شوارد، يقال: مَنْ ذَا قالها؟ لا سيّما وقد بلغت السنّ التي يضعف فيها التفكير في المفاخرة، ويقوى التذكّر للآخرة، ولكنني قصدت جمع هذا الديوان لخصال ثلاث:

- **إحداها:** أنّ الشعر لقائله كالولد لناجله، فأخشى من بعد انصرافي من هذه الدنيا أن ينسب إليّ ما لم أقله، ويلحق الناس بخاطري ما لم ينجله، ويعزى إليه من قداح الفكر ما لم يُجله، فلقد وقع لي من هذه الأماثل جمٌّ في أثناء حياتي، فكيف تكون الحال بعد وفاتي؟ والشاهد حينئذٍ يكون قد صار بعيدًا، والتثبت إذ ذاك يصبح مفقودًا، وكما أنه يجوز أن ينسب ما لم أقله، يجوز أيضًا أن ينسب كلامي إلى سواي، وأن يختلف الناس في ملكي له بما قد أهملت من دعواي، فرأيت الأصلاح لأمرّي - والمرء مسئول عن نفسه في الحياة وبعد الرحيل، ومطالب بأن يثبت الحقائق عن نفسه وأن يحتاط لذلك، قبل أن يصير تحت الرمل المهيل - أن أجمع ما وُجد في يدي من أشعاري، وأن أجتهد في أن لا ينسب أثري إلى غيري ولا يُنسب إليّ غير آثاري.

- **الخصلة الثانية:** أنّ بعض هذه القصائد متعلّق بوقائع تاريخية مشهورة، وبعضها متضمّن لمبادئ سياسية ماثورة، فنشرها حصّة من التاريخ يتميّز فيها من اعتدل عمّن اعتدى، ويعرف من ضلّ ممّن اهتدى، فلم يزل الشعر، وهو الخيال المجسم، أحسن قيد للحقائق، ولم

تزل الوقائع التاريخية تأخذ من الوزن والقافية أثبت المواقف، وكم من واقعة تاريخية نشدها المؤرخون في أقوال المنشدين، وكم من رجل لم تخلده التواريخ وجعله الشعر من الخالدين.

- الثالثة: أنه كان لي أصدقاء وأتراب وإخوان تراقني عليهم الحسرات إلى التراب، ومن الأعلام من لم أعرفه بوجهه، ولكنني عرفته بأثاره، وقطفت من نواره مثل: الشيخ أحمد فارس الشدياق، صاحب الجوائب، وعبد الله باشا فكري، الشاعر الكاتب. فأما الذين رثيتهم من أصحابي فهم: عبد الله باشا فكري، ومحمود باشا سامي، وأمين باشا فكري، ومحمد بك فريد، وكامل بك الأسعد، وأحمد باشا تيمور، والشيخ عبد العزيز شاويش، وأحمد بك شوقي، والشيخ عبد القادر الشيبلي، والحاج عبد السلام بتونه، وأخي نسيب، وغيرهم ممن كانوا غرة في جبين الدهر، وكان ذكركم عبيراً يأخذ منه كل زمن ما يأخذ الروض من الزهر، أفرغ الله عليهم سجال عفوه ورضوانه، وحياتهم في آخرتهم بروحه وريحانه. فأحببت أن أثبت أرواحهم الزكية الوجد الذي أجده من فراقهم، وأن أنشر بعد طي أجسادهم ما أعرف من محاسن أخلاقهم، فأكون وفيتهم بعض حقوق الوفاء، وأدبت إليهم من الأمانة ما فيه للنفس شفاء.

هذا، وقد كنت في السابعة عشرة من العمر طبعت في بيروت أوائل شعري في ديوان، سمّيته (الباكورة)، ولم يكن بقي منه إلا نسخ نوادر، فراجعت في هذه المدة الأخيرة فلم أجده دون أن يُنسب إليّ، ولا أصغر من أن يقيد عليّ، بل قد رأيت الشباب أشعر من المشيب، ووجدت أحسن القريض ما جاء في العهد الغريض، ولذلك ألحقت بديواني هذا أكثر ما كنت نشرته في الباكورة، بحيث قد نظم هذا الديوان حاشيتي العمر، وجمع ما قدم وما حدث من نتائج الفكر، والله أسأل أن يتداركني بلطفه، ويسدّني بفضله، وأصلي وأسلم على محمد، خاتم أنبيائه وسيد رُسُلِهِ، الهادي لأقوم سبيله، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

شكيب أرسلان

جنيف، ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٤





## القسم الأول من الديوان

### المراسلات السامية

أريد بها ما دار بيني وبين أمير الشعراء في وقته محمود باشا البارودي، رئيس نظار مصر سابقًا، وذلك لما كان في منفاه بسيلان على أثر الحادثة العراقية، وقد كانت فُقدت من عندي بعض هذه المراسلات فاضطرت إلى طلب مجلة الزهور الأدبية من مصر، لأنها كانت قد نشرتها، وهكذا عثرت عليها كلها ما عدا قصيدة ميمية كنت بعثت بها إلى محمود سامي سنة ١٩٠٢ من طبرية، حيث كنت أبدل الهواء. وأما جواب محمود سامي على هذه القصيدة، فقد وجدته بين أوراقه، ولنبداً الآن بالمراسلات التي وُجدت في مجلة الزهور، ولا بأس بأن ننشر المقدمة التي صدرها بها شاعر القطرين، خليل مطران، وهو قوله عن صاحب هذا الديوان:

حضري المعنى، بدوي اللفظ، يحبّ الجزالة، حتى يستسهل الوعورة، فإذا عرضت له رقة وألان لها لفظه، فتلك زهرات ندية مليّة شديدة الريا ساطعة البهاء كزهرات الجبل. نبغ منذ طفولته في الشعر، وكان أبكر الفتيان في نشر ديوان له<sup>(١)</sup>، وجاء ديوانه في وقته آية. غير أنه لم يلبث أن ترك الشعر وانصرف إلى الترسل، فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية، فهو الآن في مذهبي إمام المترسلين.

على أنه قد يدعو داعٍ من النفس أو من الطوارئ فينظم، ينظم كما ينثر، فيأض الفكر غير تعب، لكن نظمه يحمل في عهده الآخر أثرًا من نثره.

### خليل مطران

(١) نظمت الشعر المطبوع في الجرائد، وأنا ابن ١٤ سنة، ونشرت الجزء الأول من ديواني المسمى بـ"الباكورة"، وأنا ابن ١٧ سنة، ومذ ذلك الوقت لم أهتم لجمع شعري ولا لنشره إلى أن عنت لي هذه الفكرة في هذه الأيام للأسباب التي أوردتها في المقدمة.

## قالت «الزهور»

استشهد الأمير شبيب في بعض كتاباته أولاً وثانياً بأبيات للبارودي على غير معرفة شخصية سابقة، فكتب محمود سامي باشا إلى الأمير بالمقطوعة الآتية. قال:

أشدتَ بذكري بادئاً ومعقباً  
وما ذاك ضناً بالوداد على امرئٍ  
فأما وقد حقَّ الجزاء فلم أكن  
فكيف أذود الفضل عن مستقره  
وأنت الذي نوهت بأسمي ورشيتني  
لك السبق دوني في الفضيلة فاشتمل  
ودونكها<sup>(١)</sup> يا ابن الكرام حبيرة

وأمسكتُ لم أهمسُ ولم أتكلّمِ  
حباني به لكن تهيبتُ مقدّمي  
لأنطق إلا بالثناء المنمنمِ  
وأنكرُ ضوء الشمس بعد توّسمِ  
بقولٍ سرى عني قناع التوهّمِ  
بحلتها فالفضل للمتقدّمِ  
من النظم سداها بمدح العُلا فمي

### فأجابه الأمير:

لك الله من عانٍ بشكرٍ مُنمنمِ  
وشهم أبي النفس أضحي يرى يدا  
رأى كرمًا مني تذكّر قوله  
ولو كان يدري فاضلٌ قدر نفسه  
أيعجبُ من تنويه مثلي بمثله؟  
ومهما يكن من أعجمٍ فبفضله  
إذا أمطر الغيث الرياض بوابلٍ  
إذا ما تصبّت بالعميد صباحة  
وهل ينكر الإحسان إلا لثامة

لتقديرٍ حقٍّ من عُلاكٍ مُحتمِ  
تذكّر فضلٍ أو جميلٍ لمنعمِ  
فدلّ على أعلى خلالاً وأكرمِ  
رأى ذكره فرضاً على كلِّ مُسلمِ  
لعمرى الذي قد شقّ في شعره فمي  
يرى ثقفيًا في الورى كلّ أعجمِ  
فأيُّ يدٍ للطائر المترنمِ؟  
بوجهٍ فما فضل العميد المتيمِّمِ؟  
وينكر حُسناً غيرُ من طرفه عمي؟

(١) دونكها: دونك إياها.

وهل في شهود الشمس أدنى مزيةٍ  
 رُوِيْدَكَ لا تُكثِرُ لدهرِكَ تهمةً  
 فما زال من يدري الجميلَ ولم يكن  
 وأنت الذي لو أنصف الدهرُ لم يكن  
 جمعتَ العلى من تلدها وطريفها  
 غدتُ خِطَتي إِمّا يِراعٌ ومِخْدَمٌ<sup>(١)</sup>  
 ولم أَرِ كَفًّا مثلَ كَفِّكَ أحسنتُ  
 جمعتهما جمعَ القديرِ بكفِّهِ  
 ولو كان يرقى المرءُ ما يستحقُّهُ  
 وأنت الذي يا ابن الكرامِ أعدتَها  
 وأنشرتَ مِيتَ الشعرِ بعدَ مصيره  
 وأشهدُ ما في الناسِ من متأخِرِ  
 ولو شعراءِ الدهرِ تُعَرِّضُ جُمْلَةً  
 لأبصرتُ شخصَ البُحْثريِ منكِ بُحْثراً  
 لكِ الأبداتِ الأنساتِ التي نأتُ  
 لكم أسهرتِ جفنَ الرُواةِ وخالفتِ  
 شُغفتُ بها طفلاً فأروي بديعها  
 ولا عَجِبُ أني أحزنُ صِباةً  
 أفني كلَّ يومٍ فيكِ وجدُّ كأنه  
 أُحمَلُ رِيحَ الهِنْدِ كلَّ تحيَّةِ  
 وقد طالما حدِّثتُ نفسي وعاقني

وقد جاء ضوءُ الشمسِ لم يتكتمِ؟  
 ولا تَيأسَنَّ من أهله بالتَّوَهُمِ  
 لتأخذه في الحقِّ لومةٌ لُومِ  
 لغيرِكَ في العلياءِ صدرُ التقدُّمِ  
 فجاءت كعقدِ في ثناكَ مُنظَّمِ  
 وأنكَ قُطْبُ في يِراعٍ ومِخْدَمِ  
 إلى المجدِ إِرْعافَ المِدادِ<sup>(٢)</sup> مع الدَّمِ  
 إلى مَحْتِدِ سامٍ إلى المجدِ ينتمي  
 إذا لبلغتِ النِيراتِ بِسُلْمِ  
 لأفصحِ من عهدِ النواصي<sup>(٣)</sup> ومُسلمِ<sup>(٤)</sup>  
 لأعظمِ نَشْراً من رُفاتِ وأعْظَمِ  
 يدانِيكَ فيه لا ولا مُتقدِّمِ  
 بمنجدهم من كلِّ حيٍّ ومُتَّهَمِ  
 وخلقِ أبي تَمَّامِ غيرِ مُتَمِّمِ  
 وأنستِ عُكاظَ الشعرِ بل كلِّ موسمِ  
 حظوظكِ منها سُردٌ غيرُ نُومِ  
 ولم أروِ من وجدي بها نارَ مُضْرَمِ  
 فيسري الهوى بالقول للمتكلِّمِ  
 طوى جانحاً مني على نارِ مِيسَمِ؟  
 فكَمَ من صِباٍ منها عليكِ مُسَلِّمِ؟  
 تردُّدها ما بينَ أقدمِ وأخْجِمِ

(١) المِخْدَمِ، من السيفِ: القاطع.

(٢) المِدادِ: الحبر، يريد أن البارودي أحسن إلى المجد بالسيف والقلم.

(٣) النواصي: أبو نواس الشاعر.

(٤) مُسلم: هو مُسلم بن الوليد الشاعر العبَّاسي.

حَلَفْتُ بما بين الحطيمِ وزمزمِ  
لألفيتُ عندي دوس مُشْتَجِرِ القنا  
أقلُّ بقلبي في المواقف هيبه  
وَهَبْ أني بازٌ<sup>(١)</sup> قد انقضَّ أشهبُ  
ولكنَّ لي من عفو مولاي سائرًا  
أحمدود سامي إن يكُ الدهر خائنا  
فما زالت الأيام بؤسًا وأنعمًا  
ولولا الصدى ما طاب وردٌ ولا حلا  
عسى تعتب<sup>(٢)</sup> الأقدارُ والهمُّ ينجلي  
وأهديك في ذاك المقام تهاننا

وبالروضة الزهرا أليّة مُقسِمِ  
وَحَوْضِي في حَوْضٍ من الطعن مُفعمِ  
وأهونُ من ذاك المُقام المعظّمِ  
فهل يطمع البازي بلقىان ضيغم؟  
فهانذا منه به بتُّ أحتمي  
وطال عليك الزجر طائر أشامِ  
وحظَّ الشقا بالمكث حظَّ التنعمِ  
لك الشهد إلا من مرارة علقمِ  
وينصاحُ صُبْحُ السعد في ذيل مُظلمِ  
حبيرة مُسدِّ في ثناك ومُلحمِ



### ثم كتب محمود سامي باشا إلى الأمير شكيب بهذه القصيدة:

أدي الرسالة يا عصفورة الوادي  
ترقبني سنّة الحرّاس وانطلقني  
لعلّ نعمة وُدّ منك شائقة  
هو الهمام الذي أحيا بمنطقه  
تلقى به أحنف الأخلاق منتديًا  
أخي ودادًا وحسبي أنه نسبُ  
أفادني أدبًا من منطق شهدتُ  
عذبُ الشريعة لو أنّ السحاب همي  
سرتُ بقلبي منه نشوة ملكتُ

وباكري الحيّ من قولي بإنشادِ  
بين الخمائل في لبنان وارتادي  
تهزُّ عطفَ شكيب كوكب النّادي  
لسان قوم أجادوا النطق بالضادِ  
وفي الكريهة عمراً وابن شدادِ  
خالي الصحيفة من غلٍّ وأحقادِ  
بفضله الناس من قارٍ ومن بادِ  
بمثله لم يدع في الأرض من صادِ  
بحسنها مسمعي عن نعمة الشّادِ

(١) فيه لفتان أشهرهما أنه مقفوض كالقاضي، والثانية أنه كالباب اه مصححة.

(٢) أعتبه: أزال عتبه، أي أرضاه.

يا ابن الكرام عدتني منك عادية  
فاعذر أخاك فلولا ما به لجرى  
وهاكها تحفة متي وإن صغرت

كادت تسدُّ على عيني بأسدادِ  
في حلبة الشكر جري السابق العادي  
فالدُرُّ وهو صغيرٌ حلِّي أجيادِ



### فأجابه الأمير شكيب:

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادي  
وهل ظعائن ذاك الركب عالمة  
تحملوا ففؤادي منذ بينهم  
يرتاد منزلهم في كل قاصية  
بين الجوانح ما لو أنت جائبه  
وفي الفؤاد كشط الكف بادية  
كم بت أنشد أحبابي وأنشدهم  
ولو أناجي ضميري كنت مسمعهم  
من كان دون مرامي العيس منزعه  
دون الخضارم إن ضل الحبيب سرى  
هوى بأروع لو أن الزمان درى  
سامي الأررمة في أعراقه نسب  
أرق من شمأل الوادي شمائله  
من معشر لو يقيس الناس شأوهم  
يا من لنا رده من فائت عوض

إن السرى فوق أضلاع وأكباد؟  
أن النوى بين أرواح وأجساد  
في إثرهم نضو تأويب<sup>(١)</sup> وإسآد<sup>(٢)</sup>  
وحجبه لو درى أحرى بمرتاد  
أغناك عن لف أغوار بأنجاد  
في جنبها تيه موسى ليس بالباد  
في الهند ياشد ما أبعدت إنشادي  
قولي كأنهم في الغيب أشهادي  
فلي هوى دون أمواج وأزباد  
فإن وجدي نعم القائف<sup>(٣)</sup> الهادي  
لما أحلّ سواه الصدر بالنادي  
في المجد لا يشتكي من ضعف إسناد  
وعند شد الليالي صخرة الوادي  
إلى العلا افتقروا فيه لأرصاد  
يُمحى به وزر أحقاب آماد

(١) تأويب: سير النهار.

(٢) إسآد: سرى الليل.

(٣) القائف: الذي يتبع الأثر ويعرفها.

إن يحجبوك فما ضرَّ النجومَ دجى  
لا بأس إن طال نجر السعد موعده  
عسى لياليك قد سلَّت ضغينتها  
واستأنف الدهر سلماً لا يكدرها  
لو كان يُسعدُ قومٌ قدرَ فضلهمُ

ولا زرى السيفَ يوماً طيُّ أغمادِ  
فأعذبُ الماءَ شرباً في فمِ الصَّادي  
وقد صفت كأسها من سُورِ أحقادِ  
فالدهر قد يرتدي حالاتِ أضدادِ  
ما لاق مثلك أن يحظى بإسعادِ



### وكتب محمود سامي إلى الأمير من جزيرة سيلان:

رُدِّي التحيّة يا مهة الأجرعِ  
وترقّي بمُتيمٍ علقت به  
طربَ الفؤاد يكاد يحمله الهوى  
لا يستنيم إلى العزاء ولا يرى  
صمّنت<sup>(١)</sup> جوانحه إليك رسالةً  
فمتى يبوح بما أجنّ ضميرُهُ  
أصبحتُ بعدك في دياجرِ غربةٍ  
لا يهتدي فيها لرحلي طارقُ  
أرعى الكواكب في السماء كأنّ لي  
زهرٌ تألّق في السماء كأنها  
وكانها حول المجرّ حمائمُ  
وترى الثريّا في السماء كأنها  
بيضاء ناصعة كبيضِ نعامةٍ  
وكانها أكرُّ توقّد نورها

وصليّ بحبلك حبل من لم يقطعِ  
نارُ الصبابة فهو ذاكى الأضلعِ  
شوقاً إليك مع البروق اللّمعِ  
حقاً لصبوتته إذا لم يجزعِ  
عنوانها في الخدّ حُمُرُ الأدمعِ  
إن كنت عنه بنجوة لم تسمعي  
ما للصباح بليلاً من مطلعِ  
إلا بأنةٍ قلبي المتوجّعِ  
عند النجوم رهينة لم تُدفعِ  
حبّبٌ تردّد في غدِيرِ مُترعِ  
بيضٌ عكفن على جوانبِ مُسرّعِ  
حلّقات قرطٍ بالجُمان مُرّصعِ  
في جوف أدحي<sup>(٢)</sup> بأرض بلّقعِ  
بالكهرباءة في سماوة مصنعِ

(١) كذا في الأصل ولعلها ضمّت من الضمّ، وكتبه مصحّحة.

(٢) أدحي: محلّ بيض النعام.

والليلُ مرهوبُ الحمية قائمٌ  
متوسِّحٌ بالنَّيرَاتِ كباسلٍ  
حسبِ النجومِ تخَلَّفَتْ عن أمرِهِ  
ما زلتِ أرقبِ فجره حتى انجلى  
وترنَّحت فوق الأراكِ حمامةٌ  
تدعو الهديل<sup>(١)</sup> وما رأته وتلك من  
ريا المسالكِ حيث أمتْ صادفتِ  
فإذا عَلَتْ سكنتِ مظلةً أيكةٍ  
أملتِ عليَّ قصيدةً فجعلتها  
هي من أهازيجِ الحمامِ وإنما  
هو ذلك الشَّهم الذي بلغت به  
نبراسِ داجيةٍ وعُقْلَةٌ شاردٍ  
صَدَقُ البیانِ أعضَّ جِروْل<sup>(٢)</sup> بأسمه  
لم يتَّخذِ بدرِ المقنَّعِ آيةً  
أحيا رميمِ الشعرِ بعد هُموده  
كَلِمٌ لها في السمعِ أطربِ نغمةً  
كالزهرِ خامره النَّدَى فتأرَّجَتْ  
يعنو لها الخصمِ الألدِ ويفتذي  
هي نَجعةُ الأدبِ التي مَنْ أمَّها

في مِسْحِهِ كالرَّاهِبِ المُتَلَفِّعِ  
من نسلِ حامٍ باللجينِ مُدْرَعِ  
فوحى لهنَّ من الهلالِ بِإصْبَعِ  
عن مثلِ شادِخةٍ<sup>(١)</sup> الكُمَيْتِ<sup>(٢)</sup> الأتْلَعِ<sup>(٣)</sup>  
تصِفُ الهوى بلسانِ صَبٍّ مُوَلَّعِ  
شِيمِ الحمامِ بدعةً لم تُسْمَعِ  
ما تشتهي من مجثمٍ أو مرتعِ  
وإذا هوت وَرَدَتْ قَرارةً مَنبَعِ  
لشكيبِ تحفةً صادقٍ لم يدعِ  
ضمْنَتْها مدحَ الهُمَامِ الأروعِ  
مشكاته حدَّ السَّمَاكِ الأرفعِ  
وخطيبُ أنديّةٍ وفارسُ مَجْمَعِ  
وثنى جريراً بالجريرِ<sup>(٤)</sup> الأَطْوَعِ  
بل جاء خاطره بآيةٍ يُوشَعِ<sup>(٥)</sup>  
وأعاد للأيامِ عصرَ الأصمعي  
وبحُجرةِ الأسرارِ أحسنُ موقعِ  
أنفاسُهُ بالعنبرِ المتضوِّعِ  
بلبابها ذهنِ الخطيبِ المُضْطَّعِ  
ألقي مراسيه بوادٍ مُمرَعِ

(١) الشادخة: الغرة.

(٢) الكميت من الخيل: ما خالط حُمُرته سواد.

(٣) الأتلع: الطويل.

(٤) الهديل: صوت الحمام، والهديل هو ذَكَر الحمام أيضاً.

(٥) الجرول: الأرض ذات الحجارة، وهو لقب الحطيئة.

(٦) الجرير: حبل البعير.

(٧) يوشع: نبي أجاب الله دعاه، فأوقف الشمس كما ذكرت الأساطير.



ملكْتُ هوى نفسي وأحيتُ خاطري  
فاسلمُ شكيبُ ولا برحتَ بنعمةِ  
فلأنتَ أجدر بالثناء لمنّة  
أرهفت حدّي فهو غيرُ مُفلّلِ  
وبثقتَ لي من فيض بحركِ جدولاً  
عذبتَ مواردَه فلو ألقَت بهِ  
وزَهتُ فرائده فصارتُ غرّة  
هو ذلك النّظْمُ الذي شهدتُ له  
أبصرتُ منه أخوا أيادِ خاطباً  
وحلمتُ أني في خمائلِ جنّةِ  
فضلٌ رفعتَ به منارِ كرامةِ  
فمتى أقومُ بشكر ما أوليتني  
فاعذر إذا قصّرَ الثناء فإتني  
لا زلتُ ترفل في وِشاءِ سعادةِ

وروتُ صدَى قلبي ولذتُ مسمعي  
تحنو إليك بأيكها المتفرّعِ  
أوليتها والبرُّ أفضلُ ما رُعي  
ورعيتَ عهدي فهو غيرُ مُضيعِ  
غمر البحار بسيله المتدفعِ  
هيمُ السحاب دلاءها لم تقلعِ  
لجبين كلِّ مُتوجِّجٍ ومُقنّعِ  
أهل البراعةِ بالمقال المبدعِ  
وسمعتُ عنترَةَ الفوارس يدّعي  
ومن العجائبِ حالماً لم يهجعِ  
صرفتُ العيونَ عن المنار لتبّعِ  
والنجم أقربُ غايةً من منزعي  
رزتُ المقال فلم أجدر من مُقنّعِ  
وحبيرِ عافيةٍ وعيشِ أمرعِ



### فأجابه الأمير:

أثرى يحلُّ هواك بين الأضلعِ  
وأبيتُ أشركَ فيك في دين الهوى  
وتظللُ تشردُ بي لغيركِ صبوةُ  
وأسيمُ في روض الحسان موزعاً  
قلبٌ عليك تَختمتُ أبوابه  
إتني طويتُ عن النسيمِ شغافه  
وحجبتُ عن كلِّ العواطفِ حُجبهُ

ويحلّ لي بسواكِ ذرفُ الأدمعِ  
وأكون للتوحيدِ أولِ مُدّعِ  
هي من سجوفكِ في المحلِّ الأمتعِ  
قلباً وهى بالحملِ غيرَ موزعِ  
ما نحوه لسواكِ طرفةُ مطمعِ  
إن جاءني من غيرِ تلك الأربعِ  
إلا الحنين لبدر ذاك المطلعِ

وَأَبْحَتْهُ إِلَّا فِي الْغَرَامِ هَوَادَةٌ  
أَضَحَتْ تَغَايِيرُ فِي هَوَاكِ جَوَارِحِي  
وَأَغَارَ مِنْ طَرْفِي لِغَيْرِكَ نَاطِرًا  
وَلَوْ اسْتَطَعْتُ الشَّمْسَ ذُدْتُ لِعَابَهَا  
وَلَقَدْ أَغَارَ لَهَا جَسْمِي مِنْ خَاطِرِي  
يَمْشِي إِلَيْكَ وَلَوْ بِأَعْمَقِ قَلْبِهِ  
دَرَعْتُ حَسَنَكَ بِالْكَمَالِ وَفِتْيَةٍ  
فِي كَلَّةٍ تَذُرُّ الضَّرَاغِمَ عِنْدَهَا  
مَا لِلْمَطَامِعِ فِي الْوِصَالِ وَدُونَهُ  
نَفْسِي الْفِدَا لِمُقَنَّعٍ<sup>(٢)</sup> هَجَرَتْ لَهُ  
تَهَافَتِ الْأَوْهَامُ عَنْ حُجْرَاتِهِ  
ذَاكَ الْحِمَى إِلَّا عَلَى مَنْ أُمَّهُ  
أَكْنَهْتُ بِالْإِقْدَامِ سِرَّ ضَمِيرِهِ  
هِيَ زُورَةٌ تَحْتَ الظَّلَامِ وَرَدَّتْهَا  
فَنظَرْتُ مِنْ ذَاكَ الْهَلَالِ لِنِيرٍ  
وَأَسْغَتْ فِي نَهْلِ الشَّفَاهِ وَعَلَّهَا  
بِتَنَا كَأَنَا خَطِرَةٌ فِي خَاطِرِي  
نَبَّهْتُ بِالْأَغْزَالِ هَاجِعَ حَبِّهَا  
وَسَقَيْتَهَا كَأْسَ الْهَوَى دَهْقًا وَلَمْ  
مَتَمَلِّينَ مِنَ الْعِنَاقِ كَأَنَّا

وَمَنَعْتُ إِلَّا أُمَّةَ الْمَتَوَجِّعِ  
حَتَّى لِيغْضِبَ نَاطِرِي مِنْ مَسْمَعِي  
لَمَحًا وَلَوْ شِيمَ الْبُرُوقِ اللَّمَّعِ  
عَنْ وَجْنَتَيْكَ وَلَوْ سَعَتْ فِي بُرْقَعِ  
مِنْ سِرِّ مُهْجَةٍ رَاهِبٍ مُتَوَرِّعِ  
وَيَشِيرُ بِالْأَفْكَارِ لَا بِالْإِصْبَعِ  
مِنْ حَوْلِ خَدْرِكَ حَاسِرِينَ وَدُرَّعِ  
مَنْ ذَلَّةٍ أَمْثَالَ عَفْرِ الْأَجْرَعِ<sup>(١)</sup>  
خَفَرُ الشَّرِيعَةِ وَالرَّمَاكِ الشُّرَّعِ  
أَجْفَانُهُنَّ شَفَارَ كُلِّ مُقَنَّعٍ<sup>(٣)</sup>  
وَيَرُدُّ خَاطِرَهُ الْمُتَيَّمِ إِذْ يَعِي  
مَنْيَ بِمَمْتَنَعِ الْوَجِيبِ مُشَيِّعِ<sup>(٤)</sup>  
وَحَلَلْتُ بِالْأَقْدَامِ قَلْبَ الْمَصْنَعِ  
فَرْدًا بِلَا عَضُدٍ، بَلَى قَلْبِي مَعِي!  
وَعَلِقْتُ مِنْ ذَاكَ الْغَزَالِ بِأَتْلَعِ<sup>(٥)</sup>  
مَا لَيْسَ يَعْذِبُ بَعْدَهُ مِنْ مَكْرَعِ  
أَوْ وَهْلَةٍ حَلَّتْ فَوَادَ مُرْوَعِ  
وَحُمَاتِهَا مِنْ غَافِلِينَ وَهَجَّعِ  
يَحُلُّ الْهَوَى إِلَّا بِكَأْسِ مَشْرَعِ  
قَوْسٌ خَلَا لَزِيَادَةٍ مِنْ مَنزَعِ

(١) الأجرع: الرمل المستوي لا يثبت شيئاً، والأعفر الذي يعلو حُمرته بياض.

(٢) أي ذات القناع.

(٣) الذي عليه بيضة الحديد.

(٤) مشيع: القلب الشجاع.

(٥) تلَع الطَّيْ أَوْ الشَّخْص: طالت عنقه.

أروي غريب حديث أحوال الجوى  
وصلُّ أعاد الشمل أيَّ موصلٍ  
عاطيتها صرف الهوى وعفاننا  
كانت مضاجعنا تنثُّ كمالنا  
والليل يكتم ما ينمُّ بسرّه  
وترى المجرة في السماء كأنها  
حتى إذا شقّ الدجينة شوقها  
ورأيتُ أسراب النجوم تتابعت  
ما كان أحوجنا بذاك لآيةٍ  
زحزحتُ عنها ساعدي وتركها  
وظلعتُ أعثر بالسيوف ولو درى  
أيقولُ مُهَجَّتِي الكُماةُ وما لهم  
وتُرى تخونُ الخيلُ فارسها وهل  
أو من لهم مثلي إذا عبسَ الوغى  
وتشاجرت سمر القنا وتجاذبت  
ولقد بذذت السابقين فمن لهم  
وبلغتُ من سامي الفخارِ وجاءني الت  
خنذيذٌ<sup>(٧)</sup> هذا الدهر واحدٍ أهله  
القائلِ الفصحِ التي عن مثلها

والراح ليس يطيب غيرَ مُشعشعٍ  
لكن أعاد القلب أيَّ مُقطّعٍ  
طول التلازم لم يُشبُّ من موضعٍ  
لو كان يوجد منطقٌ للمضجعِ  
أرج النسيم سرى بمسكٍ أضوعٍ  
ذرّ تنائر من سماءٍ مُضرعٍ<sup>(١)</sup>  
للّقا ذكاءً وشابَ فودٌ<sup>(٢)</sup> الأسفَعِ<sup>(٣)</sup>  
بفرارها مَصْعِ<sup>(٤)</sup> النعام الأمزعِ<sup>(٥)</sup>  
تأتي لنا في عكسِ آيةٍ يوشعِ  
دونَ الكرى من تحتِ عبءٍ مُضلعِ  
أهل السيوف مقامتي لم أفزعِ  
فخرٌ سواي إذا اغتدوا في مجمعِ  
يُردي الحسينُ على يدِ المُتشيّعِ؟  
وتضاحكتُ أنيابُ ثغر المَصْرَعِ  
بذوائبِ والسيفِ شبهُ الأصلعِ  
بوقوفِ سَيْرِ بالمكارمِ مَوْضِعِ<sup>(٦)</sup>  
قريظ من "محمود سامي" الأرفعِ  
مقدامِ حَلْبَتِهِ الأغرِ الأبتعِ  
يثنى المقفّعُ في بنانٍ مقفّعِ

(١) مضرع: أي ذات ضرع.

(٢) الفود: الشعر الجانب الرأس ممّا يلي الأذنين.

(٣) الأسفَع: أسود اللون إلى حمرة.

(٤) مَصْع: مرّ خفيفاً.

(٥) الأمزع: المسرع من مزع.

(٦) أوضع: أسرع.

(٧) الشاعر المُفلق، والخطيب المفوّه، والسيد الحليم، والشجاع البهمة، والرجل الجواد.

لو جاء في العصر القديم لَمَا روى  
قد قاد مملكة الكلام وحازها  
إن يعصيه قولٌ فلم يكُ لفتهُ  
سهلُ البيان عَصِيهٌ للمُحتذي  
خُلِقَتْ له عليا اللغاتِ فلو هفا  
تغدو المعاني حُومًا حتى إذا  
ما زال يُبدع قائلًا حتى يرى  
إن أُجِدَّتْ أرضُ الخلائق بالثنا  
أو حار قوم في الشُّعاب فإِنَّه  
أضحى يُطارحني القريضَ وهل ترى  
أملى إليّ قصيدةً فأذابني  
يا ابنَ الغطارفة الأولى لم يتموا  
لا غرو إن يُرتج عليّ بحضرةٍ  
فلو أن سحبانَ الفصاحة قائمٌ  
فهناك ما بهر الخواطر هيبه  
كلُّ العقائل في حماك وصائفٌ  
فاسلم رعاك الله سابغ نعمةٍ  
وأعذر إذا قصرتُ عن حقِّ فلو

إلا قصائده لسان الأصمعي  
أخذ الأعرزة للذليل الأضرع  
حتى يُذلل مستقيم الأخدع<sup>(١)</sup>  
فلأنت منه بين عاصٍ طيِّعٍ  
نحو الركابة جاء كالمتصنِّع  
سامين فكرته هبطن بموقعٍ  
بدعًا على الأيام إن لم يُبدع  
فخلاله للحمد أمجد مرتعٍ  
ربُّ المضي على المضي المهيع  
من إصبع يومًا يُقاس بأذرعٍ؟  
خجلًا وهيبه خاشعٍ مُتصدِّعٍ  
إلا بأزهر في الندي سَمِيدِعٍ<sup>(٢)</sup>  
إن قابلت شمسَ الصُّحى لم تسطع  
في بابها ما قال غير مُتعتعٍ  
وزرى بعارضة الخطيب المصقع  
والمنشآت<sup>(٣)</sup> من الجواري الخُصع  
وأعاد عيشك للزمان الأمرع  
أملتُ أسودَ مُقلتي لم أقنع

(انتهى النقل عن مختارات الزهور)

(١) الأخدع: عرق في صفحة العنق. يُقال رجل شديد الأخدع، أي ذو عنق وشدة.

(٢) سَمِيدِع: السيد الكريم الموطأ الأكناف.

(٣) المنشآت: استخدام بديعي، لأنَّ الجواري المنشآت هي السفن، وقد نُقِلَتْ هنا للمعنى الإنشاء في الأدب.

وكنت سنة ١٩٠٨ شاتياً في طبرية عند ابن عمي الأمير أمين المصطفى أرسلان، حيث كان قائمقام في تلك البلدة، فأرسلت إلى محمود سامي باشا في مصر قصيدة ميمية من بحر الخفيف، فُقدت من بين أوراقه، وكان قد فقد إحدى كرائمه، فكان موضوع القصيدة التعزية والتسلية، وإني أتذكر منها بعض أبيات:

لا تحل كنت في الفجيعة فرداً      كل قلب لجرح قلبك دام

ومنها في المديح:

إن أزالوك عن رآسة حكم      لم تزل صدر دولة الأفهام

ومما أتذكره من هذه القصيدة وصف طبرية وغورها:

في ضفاف الأردن يجري على الغو      ر كساقٍ يدير كأس المُدام  
وتباشير للربيع أضاءت      في عرارٍ من زهره وبشام

ومنها:

وسلامي على الخليل وشوقي      وعلى حافظ بديع النظام  
الشرياً التي قدمت عليها      بضئيل السهي وشبه القتام



فأجابني محمود باشا سامي بهذه القصيدة:

حيّ مغنى الهوى بوادي الشام      وادعُ بلسمي تُجيبكُ ورقُ الحمام  
هنّ يعرفنني بطول حنيني      بين تلك السهول والأكام  
فلقد طالما هتفن بشدوي      وتناقلن ما حلا من هيامي  
ولكم سرّ كالنسيم عليلاً      أتقرى ملاعب الآرام  
في شعارٍ من الصنى نسجته      بخيوط الدموع أيدي الغرام  
كلما شممتُ بارقاً خلتُ ثغراً      باسمًا من خلال تلك الخيام  
والهوى يجعل الخلاج يقيناً      ويفرّ الحلّيم بالأوهام

خَطَرَاتِ لَهَا بِمِرَاةِ قَلْبِي  
 مَا تَجَلَّتْ عَلَيَّ الْمَخِيلَةَ إِلَّا  
 ذَاكَ عَصْرٌ خَلَا وَأَبْقَى حَدِيثًا  
 كَلَّمَا زَحْزَحَتْ بِنَانُهُ فِكْرِي  
 يَا نَسِيمَ الصَّبَا فِدَيْتُكَ بَلِّغْ  
 وَاقْضِ عَنِّي حَقَّ الزِّيَارَةِ وَادْكُرْ  
 أَنَا رَاضٍ مِنْهُمْ بِذِكْرَةِ وُدِّ  
 هُمْ أَبَاحُوا الْهُوَى حَرِيمَ فُؤَادِي  
 أَمْنَاهُمْ وَدُونَ التَّلَاقِي  
 صَائِلُ الْمَوْجِ كَالْفُحُولِ تِرَاغِي<sup>(١)</sup>  
 وَتَرَى السَّفْنَ كَالْجِبَالِ تَهَادِي  
 تَعْتَلِي تَارَةً وَتَهْبِطُ أُخْرَى  
 هِيَ كَالدُّهْمِ<sup>(٢)</sup> جَامِحَاتٍ وَلَكِنْ  
 كُلُّ أَرْجُوْحَةٍ تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا  
 لَا يَفِيْقُونَ مِنْ دُورٍ فَهَآوٍ  
 يَسْتَغِيثُونَ فَالْقُلُوبُ هَوَافٍ  
 فِي دَعَاءٍ يَحْدُونَهُ بِدَعَاءٍ  
 ذَاكَ بَحْرٌ يَلِيهِ بَرٌّ تِرَامِي  
 فَسَوَادِي بِمِصْرَ ثَاوٍ وَقَلْبِي  
 أَخْدَعُ النَّفْسَ بِالْمَنَى وَهِيَ تَابِي  
 فَمَتَى يَسْمَحُ الزَّمَانُ فَالْقَى

صَوْرٌ لَا تَزُولُ كَالْأَحْلَامِ  
 أَذْكَرْتَنِي مَا كَانَ مِنْ أَيَّامِي  
 نَتَعَاطَاهُ بَيْنَنَا كَالْمُدَامِ  
 عَنْهُ سِتْرَ الْخِيَالِ لَاحَ أَمَامِي  
 أَهْلَ ذَاكَ الْحَمَى عَيْبَرَ سَلَامِي  
 فَرَطٌ وَجَدِي بِهِمْ وَطُولَ سَقَامِي  
 أَوْ كِتَابٍ إِنْ لَمْ أَفْزُ بِلِمَامِ  
 وَأَذَلُّوا لِلْعَاذِلِينَ خِطَامِي  
 قَذَفَاتٌ مِنْ لُجٍّ أَخْضَرَ طَامِ  
 مِنْ هِيَاجٍ وَتِرْتَمِي بِاللُّغَامِ<sup>(٣)</sup>  
 خَافِقَاتِ الْبِنُودِ وَالْأَعْلَامِ  
 فِي فِضَاءٍ بَيْنَ الشُّهَى وَالرُّغَامِ  
 لَيْسَ يُثْنِي جَمَاحُهَا بِلِجَامِ  
 خُشْعًا بَيْنَ رُكْعٍ وَقِيَامِ  
 لِيَدِيهِ وَرَاعِفِ الْأَنْفِ دَامِ  
 حَذَرَ الْمَوْتِ وَالْعَيُونَ سَوَامِ  
 لَجَلَالِ الْمَهِيْمِنِ الْعَلَامِ  
 فِيهِ خَوْصُ الْمَطِيِّ مِثْلَ النَّعَامِ  
 فِي أَسَارِ الْهُوَى بِأَرْضِ الشَّامِ  
 وَخِدَاعِ الْمَنَى غِذَاءَ الْأَنَامِ  
 بِشَكِيْبٍ مَا فَاتَنِي مِنْ مَرَامِ

(١) تِرَاغِي: أَي تِرَاغِي أَمْوَاجِهِ فِي صِيَالِهَا كَالْفُحُولِ إِذَا رَغَى وَاحِدٌ مِنْ هُنَا وَوَاحِدٌ مِنْ هُنَاكَ، وَحَذَفَتْ إِحْدَى التَّائِينَ لِلتَّخْفِيفِ.

(٢) اللُّغَامُ: زَيْدٌ أَفْوَاهِ الْإِبِلِ، خُصُوصًا عِنْدَ الْهِيَاجِ.

(٣) الدُّهْمُ: الْخَيْلُ عَمُومًا، وَالْأَسْوَدُ مِنْهَا خُصُوصًا.

هو خِلّ لبستُ منه خِلالاً  
 صادق الوَدِّ لا يخيس بعهدِ  
 جمعتنا الآداب قبل التلاقي  
 وبلغنا بالوَدِّ ما لم ينله  
 فلئن لم نكن بأرضِ فإنَّا  
 وائتلافُ النفوسِ أصدقُ عهدًا  
 ألمعيُّ له بداهةُ رأيِ  
 وقريضُ كما وشت نَسَماتُ  
 هزني شعره فأيقظ منِّي  
 سَمْتُها القولَ بعد لأيٍ فبصَّت  
 فارضَ منِّي بما تيسرَ منها  
 ولو أنّي أردت شرح ودادي  
 أنا أهواك فِطرةً ليس فيها  
 وإذا الحبّ لم يكُن ذا دواعِ  
 فتقبَّل سُكري على حُسن وُدِّ  
 أتباهى به إذا كان غيري  
 دمتَ في نعمةٍ يرفُّ حلاها

عَبَقَاتِ كَالنُّورِ<sup>(١)</sup> فِي الْأَكْمَامِ  
 وَقَلِيلٌ فِي النَّاسِ رَعِي الدُّمَامِ  
 بِنَسِيمِ الْأَرْوَاحِ لَا الْأَجْسَامِ  
 بَحْنَانَ الْقُرْبَى ذُوو الْأَرْحَامِ  
 لِاتِّصَالِ الْهُوَى بِدَارِ مَقَامِ  
 مِنْ لِقَاءِ لَمْ يَقْتَرَنْ بِدَوَامِ  
 تُدْرِكُ الْغَيْبَ مِنْ وَرَاءِ لثَامِ  
 بِضَمِيرِ الْأَزْهَارِ إِثْرَ الْغَمَامِ  
 فِكْرَةٌ كَانَتْ حَظُّهَا فِي الْمَنَامِ  
 بِسَيْرِ لَمْ يَرَوْ عَوْدَ ثُمَامِ<sup>(٢)</sup>  
 رَبِّ ثَمَدٍ فِيهِ غِنَى عَنِ جَمَامِ  
 وَاشْتِيَاقِي لِضَاقِ وَسِعِ الْكَلَامِ  
 مِنْ مَسَاغٍ لِلنَّقْصِ وَالْإِبْرَامِ  
 كَانَتْ أَرْسَى قَوَاعِدًا مِنْ شَمَامِ<sup>(٣)</sup>  
 رُحْتُ مِنْهُ مُقَلَّدًا بَوِ سَامِ  
 يَتْبَاهَى بِزِينَةِ الْأَنْعَامِ!  
 فَوْقَ فَرْعٍ مِنْ طَيْبِ أَصْلِكَ نَامِ

(١) النُّور: بفتح النون وتسكين الواو، أول زهر مُثمرات الربيع.

(٢) الثُّمَام: بُتٌ ضعيف لا يطول.

(٣) شَمَام: اسم جبل.



## القسم الثاني

### في مساجلات شعرية، ومفاكهاث أدبية

لَمَّا طَبَعْتُ دِيوانِي المَسْمُومَ بالبِاكورة، وَأنا إِذ ذاك ابْن سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً بَعَثَتْ بِه مِنْ بِيروتِ إِلى المَرْحومِ عَبْدِ اللهِ باشا فِكْرِي، بِإِشارةِ الأُسْتاذِ الإِمَامِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ وَكانَ فِي بِيروتِ، وَذلكَ مَعَ كِتابِ مَنِّي مُصَدَّرَ بِأبياتِ ما عَدَتْ أَتَذَكَّرُها جَيِّداً، وَإِنَّمَا أَذْكَرُ مِنْها الآنَ ما يَلي:

إِذا ما رُمْتَ مِنْ مَهديكَ كَفوا  
لَقَدْ أَنفَدْتَ لَوْلَوْ كَلَّ بِحَرِ  
فَكيفَ يَقومُ عِنْدَكَ نَزْرُ شِعْرِ  
يَذيبُ الرُّعْبَ مِنْهُ كَلَّ شَطْرِ؟

ومنها:

جَعَلْتُ القَوْلَ فِي سِيفِ وَرَمَحِ  
وَعَفْتُ النِّظْمَ فِي قَدِّ وَخَصْرِ  
فإِنِّي عاشِقُ غُررِ المَعالي  
ولِي نَفْسٌ فداؤُكَ نَفْسُ حُرِّ  
إِذا فَكَّرْتُ يَوْمًا فِي كِلامِ  
يَكُونُ بِمَدْحِ (عَبْدِ اللهِ فِكْرِي)

فأجابني على ذلك بما يلي، وهي في (الأثار الفكرية):

أنتِ تَخْتالِ فِي حَبْرٍ وَحَبْرٍ  
عَلَى العِشاقِ لا كَبْرٍ وَكَبْرٍ  
مَنْعَمَةُ الشَّيبَةِ لَمْ يَرُعْها  
مَشيبٌ فِي العِذارِ أَقامَ عُذْرِي<sup>(١)</sup>  
سَعَتْ نَحويَ عَلى سَحْرِ تُرْبِي  
بِدائِعُ نَظْمِها نَفْثاتِ سَحْرِ  
إِلى أَنْ صَيَّرْتَنِي فِي هِواها  
أَسيرَ القَلبِ مُبْتَهجًا بِأَسْرِي  
سَرَتْ لِي مِنْ رَبِي بِيروتِ تَهدي  
شَذى لِبِنانِ مَعْلنَةِ بِسْرِي  
تُخَبِّرُنِي وَقد أَلْفَتْ خَبيرًا  
قَرِيبَ العَهْدِ مِنْ خَبْرٍ وَخُبْرٍ  
بأنَّ ذِويَ هِوايَ بِها عَلى ما  
عَهَدْتُ مَبْرَةً وَكَمالِ بَرِّ

(١) العِذار: الشَّعرُ الَّذِي يَحاذِي الأُذُنَ أو اللَّحْيَةَ.

ألا حيا رُبى بيروت عني  
بِذَرٍّ يَمَلَأُ الأرجاء دُرًّا  
وَحِيًّا مَنْ بِهَا رَبِّي وَحِيًّا  
وَحِيًّا حَيٍّ وَافِدَةٌ أَتَنِي  
وَسَرَّتْ بِالتَّحِيَّةِ مِنْ سَرِيٍّ  
سَلِيلِ كِرَامَةٍ وَرَبِيبِ عَزٍّ  
وَفِرْعِ نَجَابَةٍ مِنْ عَوْدِ مَجْدٍ  
كَمِيٍّ مِنْ سَلَالَةٍ أُرْسَلَانٍ<sup>(١)</sup>  
فَتَى خَطْبِ العلى وَصَبَا إِلَيْهَا  
وَمَنْ خَطْبِ الحِسانِ فَلَاشْفِيعِ  
تَعَلَّقَ قَلْبَهُ مِنْ عَهْدِ مَهْدٍ  
وَأَوْلَعَ بِالمعالي وَالمعاني  
وَلَا لَصَبَابَةٍ فِي وَرْدِ خَدٍّ  
وَلَا مَسْتَبْطَنًا وَعَدًّا لِدَعْدٍ  
وَلَكِنْ لاقْتِنَاصِ شَرُودِ مَعْنَى  
وَإِنْ يَلْعَبُ فَمَا لَعَبِ بَعِيبِ  
وَلَكِنْ تَأْنِفُ الهَمَمِ العوالي  
تُحَرِّمُ قَرَبَ أَمْرٍ فِيهِ إِمْرٌ<sup>(٢)</sup>

ولبنان الحيا مُنْهَلٌ قَطْرٍ  
وَيَمزجُ تُرْبَ أَرْضِهَا بِتَبْرِ  
زَمَانًا مَرَّ فِيهَا غَيْرَ مَرٍّ  
بِرِيَّاهَا تَضُوعِ بِنْفَحِ عِطْرِ  
حَرِيٍّ بِالوَدَادِ عَلِيٍّ قَدْرٍ  
وَنَسْلِ صِيَانَةٍ وَرَضِيعِ طَهْرٍ  
أَثِيلِ الأَصْلِ مِنْ أَثَلاتِ فَحْرِ  
ذَوَابَةِ قَوْمِهِ الأَسَدِ الهِزْبِ  
فَكَانَ لَهَا صَبَاهُ خَيْرِ مُهْرٍ  
لَهُنَّ سَوَى الصَّبَا مَقْبُولِ أَمْرٍ  
بِكَسْبِ المَجْدِ مَجْتَنِبًا لِحُسْرِ  
وَنَظْمِ الشَّعْرِ لَا لِطِلَابِ وَفَرٍ<sup>(٣)</sup>  
وَلَا لَصَبَابَةٍ<sup>(٤)</sup> مِنْ خَمْرِ ثَغْرِ  
وَلَا مَسْتَبْطَنًا أَمْرًا لِعَمْرِ  
يَعِينُ وَحِكْمَةٍ تَبْدُو وَسِرٍّ  
لِعَهْدِ صَبَاٍ وَشَرِّخِ شَبَابِ عُمْرِ  
عَلَى رَغْمِ الصَّبَا سَفَسَافِ أَمْرٍ  
وَتَوَجِبُ هَجْرَ كُلِّ مَقَالِ هُجْرٍ<sup>(٥)</sup>

(١) يشير إلى معنى أرسلان وهو الأسد، وهي لفظة صار يسمي بها العرب مثل المعجم.

(٢) أي عانى الشعر تأدباً لا تكسباً.

(٣) الصبابة، بالفتح: الشوق، وبالضم: البقية من الماء.

(٤) الأمر، بالفتح: الشأن، وبالكسر: المنكر.

(٥) الهجر، بالفتح: مصدر هجر، وبالضم: القبيح من الكلام.

وكتبت للشاعر المشهور المرحوم اسماعيل باشا صبري، يوم كان محافظاً لثغر الإسكندرية. وهذا منذ ٤٠ سنة:

دع عنك ما قال العذولُ ولاكا  
قالوا لك اختار السلو وإنما  
أما هواك فذاك غير مُفارقي  
في كل يومٍ لوعةٌ قد غادرتُ  
وحنين نفسٍ لا هناء لها سوى  
تهفو لتعتنقَ النسيم لعلّه  
وتودّ من فرط الغرام جوانحي  
قد حلّ حبّك في الفؤاد فما جلا  
ويلومني العذال فيك ولو رأوا  
بل لو رأى النساك في قتراتهم  
يكفيهمُ منك المحيّا طلعةً  
قسماً بمن برا الحسان ومن برا  
إنّي لأحيا أن تجود بطلعةٍ  
وأيتُ أرعى البدرَ في غسق الدُّجى  
لا تحسبنَّ البعدُ مال بصبوتي  
والله لا يدري البعاد ولا النوى  
كم ليلة حيران أرقبُ نجمها  
أحييتها حتى إذا رقّ الدُّجى  
ذُعرتُ نفورُ الأبداتِ كأنما  
ليلي: أمّا للشُّهبِ عندك مربوط  
كُن لي وحقّك في المواقف شاهداً

هَيْهَاتِ أَصْبُو عَنْ حَتِيفٍ وَلَا كَا  
أَسْلُو إِذَا كَانَ الْحَبِيبَ سَوَا كَا  
وَنَعِيمَ رُوحِي أَنْ تَكُونَ فِدَا كَا  
جَسْمِي لِقَا دَنْفًا لِأَجْلِ لِقَا كَا  
تَذَكَارُ شَخْصِكَ أَوْ شَذَى ذَكَرَا كَا  
قَدْ مَرَّ مِنْ جِهَةٍ بِهَا مَثْوَا كَا  
لَوْ كُنَّ أَجْنَحَةً إِلَى مَرَا كَا  
عَنْهُ فَلَا مَلِكَ سِوَاكَ هُنَا كَا  
مَا قَدْ رَأَيْتَ تَتَيَّمُوا بِهَوَا كَا  
تِلْكَ الشَّمَائِلُ مَا اغْتَدُوا نَسَا كَا  
الْبَدْرُ فِيهَا لَوْ سَفَرْتُ وَرَا كَا  
عَقَدَ الْقُلُوبَ عَلَى الْحَسَانِ رَكَا كَا  
مَتَبَدُّلاً وَأَمُوتَ عِنْدَ حَيَا كَا  
إِنْ لَمْ أُصِيبْكَ فَقَدْ أُصِيبْتُ أَخَا كَا  
بَلْ زَادَ فِي التَّعْذِيبِ بُعْدُ مَدَا كَا  
إِلَّا الَّذِي قَدْ ذَاقَ مَرَّ نِوَا كَا  
تَرْدُ الْمَجْرَةِ فِي السَّمَاءِ عِرَا كَا<sup>(١)</sup>  
بَاتَتْ تَهَاوَى فِي الصَّفِيحِ دِرَا كَا  
نَصَبَ الصَّبَاحُ لِصَيْدِهِنَّ شِبَا كَا  
كِي لَا تَفَرَّ إِذَا الصَّبَاحُ أَتَا كَا؟  
فَلَطَّالَمَا أَحْيَيْتَ مِنْ أَحْيَا كَا

(١) يُقال أورد إبله العراك، أوردتها جميعاً.

جهلوا السريرة جملةً وتحذثوا  
من لم يذق بعد الأحيّة لم يزل  
فسقى الأحيّة والذي حلّوا به  
وسقى عهدهم العهاد<sup>(١)</sup> وهزّ في  
ورعى بوادي النيل عني عصبه  
لا أنس أيامي بأنس لقائهم  
يا حبّذا واديك من متربّع  
ورعى بأرضك سيّدًا أضحت به  
شهمٌ لعمري ما أفضتُ بلاغةً  
كالبحر من كلّ الجهات أتيته  
وال توسّح بالكمال فقل له  
أسرت محبته القلوب فقيدت  
قل للمطاول مثل غاية فضله  
من يرعه في لطفه ووقاره  
مهلاً أيا أسماعيل في طرق العلا  
لله ما أهدي فعالك للشنا  
حسب المزاحم من علاك مناصباً  
تاقت بك الإسكندرية بهجةً  
لم تدرٍ مثلك في الولاية ولا درت  
واليك يا ملك القريض قصيدة  
قدمت على أسماعيل وهي عريقة

ولأنت أعلم يا ظلامٌ بذاكا  
أولى العجائب أن يخاف هلاكاً  
غيث همى لا يعرف الإمساكا  
وادي الأحيّة أيكة وأراكا  
أضحى لهم حفظ الوداد ملاكا  
كلا ولا يا نيل طيب هواكا  
زاهٍ ونعم الحوم حول حماكا  
الإسكندرية تُفرك الضحاكا  
عنه قصرت عن المدى إدراكا  
لترى الحقيقة جاء ملء حجاكا  
سبحان من ولاك بل أولاكا  
فيها ولكن لا تُريدُ فكاكا  
هيهات تظفر بالنجوم يداكا  
يلقى الملائك فيه والأملاك  
واستبق فيها فضلة لسواكا  
وأضلّ في ليل المريب سراكا  
أن يستظلّ بظلّ فضل رداكا  
بلغت نهاية حظها بنهاكا  
تلك المنار الغرّ مثل هداكا  
وقفت على خجل بباب علاكا  
في لحم طامعة بنيل رضاكا

(١) العهاد: أول مطر الربيع.

بينما أنا ذاهب من سورية إلى الأستانة، مبعوثاً عن حوران في أيام الحرب العامة، نزلت ضيفاً في طرطوس على سعادة الشهم الأمل محمد بك راسم، من كبار أعيان مصر المقيم هناك، وكانت حصلت حادثة على فتاة حسناء تشتغل في معمله القطني، وضويقت الفتاة لأجل جمالها، والبك المشار إليه لا يعلم بالواقع، فلما بلغه الخبر امتعض ومنع من التعرض لها وجعلها في مأمن من سطوة العاشق، وصادف وجودي هناك، فقلت على سبيل المداعبة:

أقسمتُ إذ طلعتُ عليَّ شموُسُها	وزَهتُ بها الأرجاء وهي عروُسُها
أعلى محلّ في الجمال محلّها	وبها فأجملُ بلدةٍ طرسوسُها
لم أحسد العشاق إلا واحداً	أحظاه ربّ العرش فهو جليسُها
في مجلس يدع الحليم مرّحاً	سيّان فيه لحاظها وكؤوسُها
ما إن رأتها مُهجةً إلا فدّت	ذاك المُحيّا نفسها ونفيسُها
ومن العجائب وهي ريمةٌ <sup>(١)</sup> رامةٌ <sup>(٢)</sup>	تعنو لها غلبُ الرجال وشوسُها <sup>(٣)</sup>
هي جوذُرٌ ولكم سبتٌ من ضيغمٍ	لا يستيه من الجيوش خميسُها
جارتُ عليها وهي بعدُ ظبيّةٌ	نكباء تصطلم الأسودَ صروسُها
فعدا عليها مذ نعومة ظفرها	خبياً نعيمُ الحادثات وبوسُها
بعد القصور العاليات رأيتها	في كسر بيت قصرها ناموسُها
بعد الثراء الجمّ حلّة صانعٍ	ولكلّ حال في الزمان لبوسُها
تمضي لها في الغزل بيضُ أناملٍ	ظلم الذي هو بالحرير يقيسُها
القطن يهزأ بالدمقس بكفّها	والخزّ ودّ لو أنّه ملموسُها
في الغزل أصبح شغلها ولنا به	متحرّكاً قطعُ تضيق طروسُها
يرجو الملوك نظيرها لبنهمٍ	فيعود ربّ الملّك وهو يئسُها
أحبتُ عيسى والصليب لأجلها	حتّى يكاد يؤمّ بي قسيسُها
وأخالفُ الشيخ التميمي الذي	ما كان يُطربُ سمعه ناقوسُها

(١) الريمة: الظبي الخالص البياض.

(٢) الرامة: المستنقع.

(٣) الرجال الشوس: الأشداء الشجمان. يريد فتاة كالظبية التي تسطو على الأسود.

لو كان شاهد وجهها وعفافها  
بطشت بنا وهي الضعيف بذاتها  
هو ذلك البطل الذي في ذكره  
عادت به الآمال خضراً نُصراً  
أبقى الإله سُعوده موصولةً  
وأراه كل الكاشحين أدلةً

مع حُسْنها ما آده تَقْدِيسُها  
بطشَات أنور بالعداةِ يَدُوسُها  
أبدًا يُضِيء من الوجوه عَبُوسُها  
من بعد ما عمّ البسيط يَبِيسُها  
فيها تغيب عن الديار نُحوسُها  
مخفوضَةٌ بذرى علاه رُوسُها

وكانت صورة هذه القصيدة وصلت إلى الشام، فبعث إليّ الأديب الكبير خليل بك مردم بك، من سَرَاة دمشق، بالأبيات التالية على سبيل المداعبة:

ما للصبابة منك هاج رسيُّها  
عهدي بقلبك والأوانس والدمى  
سُمسَتْ عن التَّهْيَامِ نَفْسُكَ يافِعًا  
لله فاتنةٌ تملكُ قلبَ مَنْ  
فعلت به ألحاظها ما قصّرت  
يا مَنْ سُحِرَتْ بقوله هل ذلك من  
إن كنتَ أَحْبَبْتَ الصَّليبَ لأجلها  
والروح والإنجيل حَلْفَةَ صادق  
إني لهجت بِذِكْرِ يوحنا ومُرُ  
وشريتُ تَكرِيسَ البَتُولِ ويوسفِ  
هذا ولولا حبَّ دينِ مُحَمَّدٍ  
هامت بها نفسي لو صفك حسنُها

ولنار قلبك عاد فيه حسيُّها  
لا تستبيه سُعادُها ولَمِيسُها  
هل رِيضَ بعد الأربعين سُموسُها؟  
تُحْنِي لديه من الرجال رُوسُها  
عن فعله أقداحُها وكؤوسُها  
تأثير عَيْنِها وأنت جليُّها؟  
وشجا فؤادك قارعًا ناقوسُها  
ويمينُ حقٍّ لا يُردُّ غَموسُها<sup>(١)</sup>  
قُس وازدهى في ناظري جرجيسُها  
وحفظت ما قد قاله قَدِيسُها  
«من دون كاد» لأمِّ بي قَسِيسُها  
حتّى كأن موهومها محسوسُها

فأجبتُه بما يلي وهو أيضًا من باب المفارقة:

ريضت لها نفسي وزال شموُّها

والله مُد طلعت عليّ شموُّها

(١) اليمينُ الغموس: أي الكاذبة، التي يعتمدها صاحبها.

والشمس ما طلعت عَلتْ أنوارها  
أَلقت على قلبي المَتِيْمَ لحظةً  
رَقَّ الفؤاد لها فصار رقيقها  
تُدعى الأسيرة غير أن غزاتها  
قد غيَّوها في السجون فلم يطل  
خلصت تجرر منه ذئب صيانةٍ  
وكذا الجمال إذا سرت أجناده  
مذ صَوَّبَتْ نحوي سِهَامَ لحاظها  
نفذت لها بين الجوانح نظرةً  
باتت تُقَلِّبُ في ضعيف بنانها  
هَيْهَاتَ أطمع بالثبات أمامها  
مَنْ ذا يعارضها بملك عبيدها  
شاهدتُ منها منظرًا تحيا به  
وسرقتُ نظرًا من مباسم ثغرها  
قُلْ للخليل يتيه في فَيْحائه  
ويروود مرجتها عشية سَبَتْها<sup>(٥)</sup>  
ويصيد عُفْرَ ظبائها في كُنْسها<sup>(٦)</sup>  
أظننتَ شطرَ الحبِّ خَصْكَ مفردًا

وعرا الكواكبَ والبُدورَ خُنُوسُها<sup>(١)</sup>  
خضعت لها رُوحِي ولانَ شريُّها  
وحنى لها رأسَ العلو رئيُّها  
عادت لها أسرى تذوب نفوسُها  
أن صار رَبَّ الحبسِ وهو حبيُّها  
هي منه في لمعانه طاووسُها  
سالت بأودية القلوب تجوسُها  
وَهَنَّتْ دُرُوعُ مفاصلي وتروسُها  
فيها يضلُّ الطَّبَّ جالينوسُها<sup>(٢)</sup>  
أَسَدًا تضيق به الأسود وخيسُها<sup>(٣)</sup>  
بل يجذب الصَوَّانَ مغناطيسُها  
مذ فوق عرش الحُسن كان جلوسُها؟  
روحٌ ولو بلغ الفصل نسيُّها<sup>(٤)</sup>  
دُررًا يعزَّ بمثلها قاموسُها  
ويروض كلَّ كريمة ويسوسُها  
وله بكلِّ محطة جاسوسُها  
وإليه تُجْبى جوبر<sup>(٧)</sup> وكُنيسُها  
وسواك في أقسامه مبخوسُها؟

(١) الخنوس: التأخر والانقباض.

(٢) جالينوس Galénos، طبيب يوناني شهير.

(٣) الخيس: غابة الأسد.

(٤) النسيس: بقية الروح في الجسد.

(٥) في دمشق عادة هي خروج الناس إلى المرجة للنزهة عصر السبت.

(٦) كِناس: بيت الظبي، وهو مفرد كُنْس.

(٧) جوبر: قرية من قرى الغوطة لخليل بك، فيها بساتين كان يدعوننا للنزهة فيها. وفي جوبر كنيس لليهود قديم جدًا.

وحسبت ما في الركب غير «خليلها»  
أو إن قطعتُ الأربعين أينبغي  
أو ما علمت الأربعين رجالها  
وهم الجهابذة الأساتذة الألى  
وهمو إذا ضمّتهمو أعراسها  
أىكون مثلي شاعرًا وأكون من  
ما زال سلطان الجمال مُحكّمًا

و«أديب»<sup>(١)</sup> ذلك وحده تقرّسها<sup>(٢)</sup>  
أن تستوي غزّلانها وتيوسها؟  
نعمَ الفوراس إذ يفور وطيسها<sup>(٣)</sup>  
ليسوا أُصيّبةً تُعادُ دروسها  
مثل الضراغم ضمّتها عريّسها<sup>(٤)</sup>  
لم يجتذبه من الوجوه أنيسها؟  
تأتيه من كلّ القلوب مكوسها



وبعث لي سنة ١٣٣٤ سعادة خليل مردم بك، الشاعر الكبير من عيون أعيان الشام،  
قصيدة رائية من بحر الطويل، يلتمس منّي فيها أن أجزيه، فأجبتة بالقصيدة الآتية:

أرى جملة في صفحة الكون لا تُقرأ  
ونارًا بأحناء الأضالع كلما  
هي النار في الأحشاء لكنّها هدى  
على ضوئها سار الأئمة قبلنا  
وكم شاهدوها بالحجاز ونورها  
ولولا سناها ما درى ذو بصيرة  
ولولاه لم تعرف عن الروح سيرة  
لقد غاب عنها كُنْهها ومكانها  
وعاطفة في النفس تدري ولا تُدرى  
تخلّلها برّد اليقين ذكّت جمرا  
لمن كان لا يرضى بإيمانه الكفرا  
وهزّوا على الأملاك ألوية حمرا  
يُضيء بأعناق الأيائق<sup>(٥)</sup> من بصرى  
أقلّبنا حوى بين الجوانح أم صخرًا؟  
ولا أثرًا عنها قصصنا ولا إثرا  
ولكن على الأكوان آثارها تترى

(١) الحاج أديب خير من إخواننا.

(٢) النقرس: (لغة) الدليل الحاذق، والطبيب الماهر، ويريد هنا صفة الذكاء مطلقًا.

(٣) الوطيس: ها هنا كناية عن الحرب.

(٤) العريس والعريسة: ماوى الأسد.

(٥) الأيائق: النوق، مفردها ناقة.



لها كلّ آنٍ في البريّة مظهرٌ  
يقولون خلق كلّ ما فيه آية  
دُخانٌ بلا عودٍ وعرفٍ بلا كِبَا<sup>(١)</sup>  
فمن يتأمل في البعيد يجد لدى  
ومن يتروى في دموعٍ يُسيلها  
رأيت على طرس الوجود صحائفًا  
منظمةً حُبًّا مشتتةً قلى<sup>(٢)</sup>  
جنود من الأرواح قد أصبح الهوى  
لها في صبايات القلوب مذاهب  
كما هام قلبي بالخليل بنِ مردمٍ  
أجلّ سراة الشام بيتًا وإنّه  
وأرحبهم ذرعًا وأطولهم يدًا  
وأقسَم إنّي ما رأيت نظيره  
ولألا نور المصطفى في نجاره<sup>(٣)</sup>  
أتاني قصيد منه يبغى إجازتي  
وكيف يُجيز المرء من بان شاوه  
وجاد بشعرٍ كذت عند نشيده  
يساجلني حرّ القريض وهل ترى  
إجازة مثلي مثله خالص الدعا

يُخبّر أنّ الله أودعها سرًّا  
أجل إنّما سرّ الهوى الآيّة الكبرى  
وبرق بلا سلكٍ وسرى بلا إسرا  
جوانبه أشياء لا تقبل الحصرًا  
يخض عندها من بين أعينه البحرا  
يداول فيها ربّها النظم والنشرا  
مؤلفة عرفًا مخلّفة نكرا  
لأشكالها سمطًا وأصبحت الدرّا  
فأشرفها حبًّا بأشرفها مغرى<sup>(٤)</sup>  
هناك الهوى العذريّ قد صحب العذرا  
لأحدثهم سنًا وأكبرهم قدرًا  
وأكرمهم نجرًا وأصدقهم فجرا  
فتى سبق الأشياخ في قطره خيرا  
فعمّ عديًا مجد نسبه الزهرا  
وهل لضئيل النجم أن يُقبس البدرًا؟  
عليه وهل للفقير أن يعدل الشبرا؟  
أشكك هل بالشعر جاد أم السُعريّ؟<sup>(٥)</sup>  
يساجل هذا التُّرب ذبالك التُّبرا؟  
بتوفيقه والله يربى له العمرا

(١) الكِبَاء (ويكتب محذوف الهمزة): عود البخور.

(٢) القلى: البغضاء.

(٣) تجنيس (جناس معنوي) بين الحبّ من الدرّ والحبّ.

(٤) النجار، بالكسر: الحسب، أشير إلى أنّ والده خليل بك من آل حمزة السادة المشهورين.

(٥) السُعريّ: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء.

وإني أرى فيه مُذِ اليَوْمِ مفردا  
شهدت به في الحُسْنِ بَدْرًا وفي التَّقَى

كذاك يُرَجِّي البدر من شَهْدِ الشَّهْرَا  
شهدت به سيماء مَن شهدوا بَدْرًا<sup>(١)</sup>



أما قصيدة خليل بك مردم بك فهي هذه، وهي من أوائل شعره:

أحسّ بشيءٍ في الحشأ يُشبه الجمرَا  
أبيت وجنبي لا يُلائم مضجعًا  
أصيحخ لما يوحى الغرام لمسمعي  
أأخت الدمى قلبًا خلا ونعومةً  
أتدرين فوق الحبّ منزلة لكم  
فعند هبوبي أنت أول خاطر  
أمرّ على الصخر الأصمّ تعلّة  
وما كنت ممّن يعجمُ الحبُّ عودَهُ  
«وما أنا ممّن تأسر الخمر لبّه»  
فتورٌ كشعر الصّبّ بالهجر رقةً  
فلو كان لي شيءٌ من الشعر بين من  
أجزني أمير الشعر بالشعر إنني  
رَدَدْتُ عليه حُسنه بعد ما زوى  
أعدت لنا عصر النواصي ومسلم  
فمن مبلغ شيخ المعرّة<sup>(٢)</sup> شيخنا

أهذا غرام هيّجته لي الذكْرَى؟  
ودمعي لا يرقى وطرفي لا يكرى  
فأنشره طَوْرًا وأنظمه أُخرى  
وأخت الظبّا طرفًا كقلبي أو نحرا؟  
تُقَرِّبني فالحبّ جرّ لي الهجرا؟  
وآخره والله أنت إذا أكرى  
فألشمه إذ قلبها يشبه الصخرَا  
ولكنّما يصبو الحليم لها قسرا  
ولكن سقتني في نواظرها خمرا  
إذا هام وجدًا أو شعور الشجي المغرَى  
هُمُّ أولياء الشعر عرّفتها الشعرا  
أراني لم أسلك به مسلكًا وعرا  
قرونًا فأضحى غصنه بك مُخضّرَا  
فبوركت يا عصر القريض به عصرا  
وأحمد<sup>(٣)</sup> والطائي<sup>(٤)</sup> الألى نظموا الدرّا

(١) بدر: قرية قريب المدينة المنورة، انتصر فيها المسلمون على مشركي قريش سنة ٦٢٤م، وتُعرف بوقعة بدر.

(٢) شيخ المعرّة: هو أبو العلاء المعرّي (٩٧٣ - ١٠٥٧م)، الشاعر الفيلسوف.

(٣) أحمد: هو أبو الطيّب المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥م)، الشاعر العباسي الشهير.

(٤) الطائي: هو حاتم الطائي، المتوفّي سنة ٦٠٥م، شاعر جاهلي من أجواد العرب.

وشیخ القریض البُحْثري مع الرّضی<sup>(١)</sup>

ومہیار<sup>(٢)</sup> مَن كانوا لأعصرهم فخرًا

بأنا رأیناهم جميعًا بشخصه

فقدروا عیونًا فالقریض لقد قرّا



إلیک أمیر السیف والقلم انتهت

رئاسة کلّ فاعملنّ لیدا سُکرا

بأکنافک العلیا تلوذ صیانةً

لقد کنت والرحمن فی صونها أحرى

لک لله من شهمٍ قد اجتمعت به

کرامٌ خِصالٍ قد تجاوزتِ الحَصرا

«عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ» ومنعةٌ

ومجدٌ تسامى ردّ عین العُلا حَسرى

إلی ظلّک العالی زففتُ خریدةً

إجازة شعری منکم أبْتَغی مَهرا

(١) الرضی: هو الشریف الرضی، (٩٧٠ - ١٠١٦)م. شاعر عباسی من الکبار، جمع نهج البلاغة.  
(٢) مهیار: هو مهیار الدیلمی، المتوفی سنة ١٠٣٧م. شاعر کبیر من أهل بغداد، تلمیذ الشریف الرضی.

## حادثة سياسية استحالت فكاهة أدبية

وفي أيام السلطان عبد الحميد وشي واش بالأستاذ العلامة محمّد أفندي كرد علي في دمشق، فأرسل الوالي ناظم باشا فكبس منزله وعثر على بعض أوراق يُعدّ حفظها يومئذٍ من الجرائم، فجاء من أخبرني بالقصة، وأنّ الكرد علي، فرّ وتوارى في الغوطة، فذهبت في الحال إلى ناظم باشا وأبدت وأعدت، حتى غصّ النظر عن هذه المسئلة، وأبلغت الأستاذ أن يعود آمنًا، فعاد إلى داره. وبعدها جاء هو والأستاذ الكبير الشيخ طاهر الجزائري ليشكراني على ما قمت به من تفريج هذه الأزمة عن الكرد علي، فصرت أداعبه ببعض أبيات إرتجالية في الموضوع، فطرب لها الشيخ طاهر واقترح إكمالها قصيدة، فأكملتها ثاني يوم، وانتشرت في كلّ نادٍ، وهي في كتاب "خُطَط الشام" تأليف الأستاذ الكرد علي:

ألا قُلْ لِمَن في الدُّجى لم يَنَمْ	طِلابَ المعالي سمير الألمُ
ومَن أرقتَه دواعي الهوى	فدون الذي أرقتَه الحِكمُ
فكمُ في الزوايا تخبّا فتى	طريد الكتاب شريد القلمُ
يرى الأرض صبيحًا كشقّ اليراع	ويهوي على ذا الوجود العدمُ
وكمُ ذا بجسرين <sup>(١)</sup> من ليلة	على مثل جمر الغضا في الصَّرمُ
تمنّى الأديب بها ندحةً	ولو بات يرعى هنال الغنمُ
وكمُ سروةٍ تحت جنح الظلام	كسرٌ بصدر الأديب انكتمُ
يخاف بها حركات الغُصون	ويخشى النسيم إذا ما نسمُ
وإن تشدُّ ورقاء في أيكةٍ	تورقه في صوتها والنغمُ
وكمُ بات للنجم يرعى إذا	أديمُ السّما بالنجوم اتسمُ

(١) قرية في الغوطة للكرد علي بها ملك.

وطال به الليل حتى غدا  
 ومن دُغره خال أن النجوم  
 إذا ما السّمَاك بدا رامحًا  
 ولولا الدُّجى لم يتمّ النجا  
 والله دُرّ القري إذ خفته<sup>(١)</sup>  
 فجسرین زبدین والأشعري<sup>(٢)</sup>  
 ونحو المليحة<sup>(٣)</sup> رام الخفا  
 ديارٌ أبى أهلها غدره  
 ولا شكّ رقوا لأحواله  
 ليالي كانون في الأربعين  
 بأرض ثراها سماءٌ وماءٌ  
 يجول وقد صار مثل الخيال  
 وفوق الخُدود كلون البهار  
 وفي كلّ يومٍ سؤالٌ وبحثٌ  
 وقد كان في كبسهم بيته  
 فكانت على كُتبه غارةٌ  
 وقالوا سينفى إلى رودس  
 وقالوا سيحمله أدهمٌ

يظنّ عمود الصباح انحطّم  
 لتَهدي إلى مسكِهِ عن أمم<sup>(١)</sup>  
 توهّمه نحوه قد هجم  
 وقد أمكن الظلم لولا الظلم  
 فما بالسهولة يُخفى العَلَم  
 ديار بها قد أوى واعتصم  
 وكمّ بالمليحة من مُتّهم  
 وآواه منها الوفا والكرم  
 طريدًا يُعاني الجوى والسقم  
 وبرّد العشيّات أغلى الفحم  
 ففوق السواقي وتحت الدّيم  
 ودقّ فلو لاح لم يُقتحم  
 وتحت المآقي كلون العنم<sup>(٥)</sup>  
 وأنى تولى وأين انهزم؟  
 بجلق<sup>(٦)</sup> قالٌ وقيلٌ عمم  
 كغارات عرب الصفا<sup>(٧)</sup> بالنعم  
 وقالوا سيُجزى بما قد جرّم  
 بمرّقاه لا تستريح القدم

(١) عن أمم: عن قُرْب.

(٢) خفاء: مثل أخفاء.

(٣) أسماء قري.

(٤) قرية أيضًا كان منها عبد الوهاب الإنكليزي، رحمه الله، وكان متهمًا بمناوأة الحكومة.

(٥) العنم: شجر له ثمرة.

(٦) جلق: اسم يطلقونه على دمشق.

(٧) عرب الصفا مشهورين بالنهب.

وبعض بسجن عليه قضى  
وكرُد علي غدا عبرة  
فيا كرُد لا تُحزِنَنَّكَ الخطوب  
ومَن رام أن يتعاطى البيا  
فذى حِرْفَةُ القول حَرِيفَةٌ  
وَكَمْ كَتَبَةٌ أَعْقَبَتْ نَكْبَةً  
ومَن بالكتابة أبدى هوى  
فيا كُرْد صبرًا على محنةٍ  
وصبرًا على ورقات لها  
وواها لباقات زهرٍ غَدَوَتْ  
أزاهِر تسهر في جمعها  
وما نمّ إلا بنشرٍ ذكيٍّ  
فقولوا لواشٍ بكَرْد علي  
فما كان كرُدٌ سوى صادقٍ  
وما وجدوا عنده ريبَةٌ  
فهل يُطفئون بأفواههم  
وما دام ناظمٌ في شامنا  
ولولا العنايةُ من ناظمٍ  
وقانا دسائسَ أهل النفا  
وقد أضحت الشام في عهده  
وباتت من الزور في مامنٍ

وبعض بضرب عليه حَكَمٌ  
فغاث ومنه الرجاء انصرم  
فإنَّ الهمومَ بقَدْر الهمم  
ن توقع أن يُبتلى بالنقم  
وَكَمْ أَدْرَكْتَ من لبيبٍ وَكَمْ  
وَكَمْ من كلام لقلب كَلَمٌ  
فإنَّ الكآبة منه القَسَمُ  
فكَمْ محنة شَيَّتْ من لَمَمٌ  
عيون المعاني يبكين دم  
لها جامعًا يا أخي من قِدم  
فلا غَرَو أن فاح عَرَفُ فَنَمٌ  
وطيب يفوق عرار الأكم  
نشرت الثنا حين حاولت ذم  
لدولته طالما قد خَدَمُ  
تعدّ ولو في صغار اللمم  
من النور ما قد رآه الأمم؟  
فما نُستَضامُ ولا نُهتَضَمُ  
لما كان شملٌ لنا مُنتَظِمُ  
قِ ورد الوُشاةِ وجُلَى الغمم  
يصوب عليها... عهداً التعم  
وحقّ الأمان بباب الحرّم



وأطلعني، في مرسين، صديقي المجاهد الأكبر السيد أحمد الشريف السنوسي على قصيدة همزية، قيلت في عمه السيد المهدي، رضي الله عنهما، فعارضتها قائلاً من البحر والقافية:

هل ترى ينتهي عليه الثناء	سيد ينتهي إليه السناء؟
وتؤدّي له البلاغة حقاً	ويوقّي أخباره الإنشاء
ويجلّي القريض صورة معنا	ه ولو بالشعري أتى الشعراء
قد كفانا من وصفه أنه المهديّ	مذ قد تجلّت الأسماء
نجل قطبٍ قد كان في الشرق والغرب	سراجاً بنوره يُستضاء
هو بحر الشريعة ابن السنوسي	الذي عنه سارت الأنباء
لم يدع في العلوم علماً ولم يق	تله والعلم قتله إحياء
جمع العلم والولاية فأتّم	به العالمون والأولياء
استفاضاً لديه نوراً على نو	ر وكلّ على الوري للألاء
فيه لاقى العلم اللدني علماً	سهر الليل أصله والعناء
لا يرى العلم في سوى العمل الصا	لح فالعلم آله ووعاء
فلهذا ترى الطريق السنوس	ي على الفعل قام منه البناء
بات فعلاً هدى مُريد السنوس	ي وأنّ ليس بالكلام اكتفاء
كلّهم عامل لذلك فيهم	تتبارى العقول والأعضاء
كم تولّى بالكفّ سكة حرث	حبر علم حفت به القراء
حقّقوا سنة المعلّم للخير	الرسول الذي به الاقتداء
بث ما بين مطلع الشمس والمغرب	رشداً ضاءت به الأرجاء
وزوايا في كلّ غورٍ ونجدٍ	ليس يستطيع حصرها الإحصاء
وبدا بالبناء في الجبل الأخضر	حيث البنية البيضاء <sup>(١)</sup>
في ذرى السيد الجليل الصّحابي	سيدي رافع عليه الرّضاء
حيث قد لاح ذلك السيد المه	دي بدرًا ضاءت به الظلماء

(١) زاوية البراعة المُسمّاة بالبيضاء، وفيها ولد السيد المهدي، وبقرها مقام سيدي الأنصاري.

أَيُّ فِرْعٍ لَأَيِّ أَصْلٍ لَعْمَرِي  
 لَا بَلَّ الْإِبْنَ جَاءَ أَوْفَى عَلَوًا  
 الْهَمَامُ الْمَهْدِيُّ وَالسَّيِّدُ الصَّامِ  
 أَزْهَرَ الْوَجْهَ نَاصِعَ اللَّوْنِ لَمْ تُذْ  
 أَكْحَلُ الطَّرْفُ مُسْتَدِيرُ الْمُحْيَا  
 أَبْيَضُ الْخَدِّ وَالثَّنَاءُ وَفِي أَيِّ  
 أَرْوَعِي صَلْتُ الْجَبِينِ إِذَا قَابَلُ  
 رَبِيعَةٌ قَدَّهُ قَوِيٌّ عَرِيضُ  
 وَاسِعُ الثَّغْرِ بِاسْمٍ عَنْهُ دُرًّا  
 شَتْنُ كَفٍّ<sup>(١)</sup> لَكِنْ أَيْدِيهِ الشَّدْ  
 هَاشِمِيٌّ أَكْثَمُ أَنْفٍ كَذَا مَعَ  
 يَتَجَلَّى كَمَالِهِ فِي عَيُونِ  
 يَمَلَأُ الْعَيْنَ هَيْبَةً وَجَلَالًا  
 مَنْ رَأَاهُ يَقُولُ هَذَا هُوَ الْمَهْ  
 أَشْبَهُ النَّاسَ بِالنَّبِيِّ وَمَنْ يُشْ  
 نَشَرَ الدِّينَ فِي بِلَادِ السَّوَا  
 وَبِأَسْيَافِهِ طَرَابِلِسَ الْغَرْبِ

قَدْ تَحَاكَى الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءُ  
 وَلِئِنْ فَاقَ مِنْ أَبِيهِ الْعَلَاءُ  
 دَعَى بِالْحَقِّ وَالسَّحَابُ الرِّوَاءُ  
 جَبَّ أَبْهَى مِنْ شَخْصِهِ الزَّهْرَاءُ  
 لَاحَ فِيهِ الْهَدْيُ وَجَالَ الْحَيَاءُ  
 مَنْ خَدَّيْهِ شَامَةٌ سَمْرَاءُ  
 تَهَتْ قَلَّتْ كَوَكْبٌ وَضَاءُ  
 مِنْ كِبَاهُ وَأَذْرَعُ فَتْلَاءُ  
 وَالشَّنَايَا فِي ثَغْرِهِ فَلَجَاءُ  
 نَهْ بِالْجُودِ سَبْطَةٌ<sup>(٢)</sup> سَمْحَاءُ  
 سَمَمَ الْأَنْفِ هِمَّةٌ شَمَاءُ  
 زَيْنَتُهَا حَوَاجِبٌ وَطَفَاءُ  
 وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَحْظُهُ إِغْضَاءُ  
 دِيَّ حَقًّا وَلِلْهَدْيِ سِيْمَاءُ  
 بِهِ أَبَاهُ فَلَيْسَ مِنْهُ اعْتِدَاءُ  
 دَيْنٌ جَمِيعًا فَعَمَّهَا الْإِهْتِدَاءُ  
 أُجِيرَتْ وَبَرْقَةُ الْحَمْرَاءُ  
 سَوْفَ يَرَى الطَّلِيَانَ أَنْ فِي السُّوَيْدَاءِ رَجَالَ حُرُوبِهِمْ سَوْدَاءُ  
 فِي مَجَالِ الطَّعَانِ أُسْدٌ مُحَارِيْبٌ وَلَكِنْ عِنْدَ الْمُحَارِيْبِ شَاءُ  
 يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ بِالسَّيْفِ وَالْمُضْحَفِ فَالْقُوَّتَانِ فِيهِمْ سَوَاءُ  
 يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ الَّتِي أَوْرَثَ اللَّهُ عِبَادًا لَهُ هُمْ الصَّلْحَاءُ  
 لَمْ يَحْلَوْا قَفْرًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا اهْتَزَّ مِنْهُ حَدِيقَةُ غَنَاءُ

(١) شَتْنُ كَفٍّ: قصير الكف غليظها، في أنامله غلظ بلا قصر؛ ويحمد ذلك في الرجال، لأنه أشد لقبضتهم.

(٢) سَبْطَةٌ: مسترسلة؛ وسبط اليدين: سخى سَمْحُ الكَفَيْنِ.



فاسأل القَرَوَ<sup>(١)</sup> والجفابيب والكفرة ينطق عمرانها والنماءُ  
 واسأل الواح كلها كيف عاشت بالسَّنوسِيّ تِلْكُمْ الصَّحراءُ  
 ليس يخشى الإفرنج مثل السَّنوسِيّ وما هم في خوفهم أغبياءُ  
 عرفوا قَدْرَهُ وُبُعْدَ مراميه فأشهادُ فضله الأعداءُ  
 كم غدت من سطاهُ ترجف رُعبًا دولةٌ ملءُ أنفها الكبرياءُ  
 ردّ أزر الإسلام صلبًا سَوِيًّا بعد أن كان شفّه الانحناءُ  
 وأعاد الإسلام غصًا كما كان عليه الأسلاف والقدماءُ  
 لم يقم مثله لإرشاد خَلْقٍ ذلك الحقّ ليس فيه مرأى

### - مدحتي لسُمُو الخديوي توفيق باشا

أول مرة خرجت فيها من سورية كانت رحلتي إلى مصر. وكنت في الواحدة والعشرين من العمر، وأقمت بالقاهرة أكثر من شهرين، وأنا مُلازم أستاذنا الإمام الشيخ محمّد عبده، وتلك الحلقة التي كانت تجتمع، بالقرب من قصر عابدين، في بيت المرحوم سعد أفندي زغلول الذي صار فيما بعد زعيم مصر. ثمّ برحتُ مصر قاصدًا الآستانة، ومررت على الاسكندرية، وذهبت إلى سراي رأس التين حيث أكرمني جناب الخديوي يومئذ محمّد توفيق باشا بمقابلته، وكنت هيأت قصيدة لسُمُوه لكنني لم أقرأها بحضرته، بل سلّمتها عند خروجي منها لرجال المعية السنية، ففي اليوم التالي نشرتها المعية في جريدة الوقائع المصرية، وكان مُحَرَّر الوقائع المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان، فكتب فوقها تقريرًا جميلًا. وليست جريدة الوقائع الآن تحت يدي لأنقل القصيدة برُمّتها، وإنما أتذكّر منها الأبيات التالية:

أقول لنطقي اليوم إن كنت مُسْعِدِي  
 إذا أرقَّ أسباب السماء بمصعدِ  
 وأنظّم من القول النفيس فرائدًا  
 تنزل شعري الأفق في شعر مُنْسِدِ  
 إذا أنا لم أوف المكارم حقها  
 من الشكر في سلّك لقريض المُنْصِدِ  
 فلا شغفت لي بالمكارم مُهْجَةً  
 ولا عزَّ أبائي ولا طاب محتدي

(١) القرو: واحة في الصحراء، ومثلها الكفرة، ومثلها الجقبوب، وقد عمّرها كلها السادة السنوسية.

ولا بلغت بي رتبةً من مكانةٍ  
وأذكرُ علياهُ وذكُرُ مُحَمَّدٍ  
عزيرُ حمدتُ الدهرُ عند لقائه  
ولا غرّو إن حنت لتقبيل كفه  
وشاقت له ربّ الرقائق طلعة

ومنها:

فدونكها يا غرة الملك عادةً  
وإني إذا أهدي العزيز مدائحي  
ومن رام من إدراك كنهك غايةً  
والأفما حاولت إدراك غايةٍ

ولي من عبث الشباب تقليدًا للشعراء:

أرى في غزال الدو<sup>(١)</sup> منه شمائلًا  
وتخطر قُضبان العذيب فتثنني  
أكاد لمرأى كل غصن أراكةٍ  
وأعشق نور البدر ليلة تمّه  
يقول عدولي شفّ مسكتك<sup>(٢)</sup> الهوى  
فقلت جميع الرشد في سبل حبه  
وقالوا أضعت العمر في حبّ أغيدٍ  
فقلت لهم يا حبذا ما أضعته  
فدا كل ظبي بين سلع وحاجر<sup>(٣)</sup>

أنال بها لُقيا العزيز مُحَمَّدٍ  
ألذّ كلام قيل بعد التشهدِ  
ومن لقي التوفيق للسيرِ يحمده  
على البعد نفس تلمس النجم باليدِ  
لعمرك تذكّي الشوق في قلب جلمدِ

تميس كغصن البانة المتأودِ  
أبوء بصديق القول غير مُفندِ  
يجد غاية ما تُذن للوصل تُبعدِ  
بشعري ولا نظم القصائد مقصدي

فأهفو إليه كلما مرّ سانحه  
معاطفه في خاطري وجوانحه  
أعانقه من أجله وأصافحه  
لأنّ قد بدت منه عليه ملامحه  
فأنت لعمرى ذاهبُ الفكر سائحه  
إذا لاح لي من ذلك الوجه لائحه  
ومن علق الغزلان ضاعت مصالحه  
بمن حبه كُنز تنوء مفاتحه  
لمهجة ظبي في الفؤادِ مسارحه

(١) الدوّ: البرّ والصحراء والفلاة مطلقًا.

(٢) المسكة: الرأي والعقل الوافر.

(٣) سلع وحاجر: اسم موضعين.

ومهما يُعَذِّبني فعذبٌ مذاقُهُ  
وما أسعد الليل الذي أنا ساهرٌ  
وقالوا قطعتَ الأربعين فما الهوى  
ولم يعلموا أنَّ المهار<sup>(١)</sup> وإن زكت  
بلى أنا سلطان الغرام وهذه  
إذا في كتاب الحب طالعٌ مُغرَمٌ  
أنا الصبِّ متبولاً بذكر حبيبه  
خليٌّ إذا رام الصلاة تداخلت

ومهما يؤرقني فإني مُسامحةٌ  
وما أقدس الدمع الذي أنا سافحةٌ  
وقد صاح في فوديك للشَّيب صائحةٌ  
لتعجز عمّا طال في الجري قارحةٌ<sup>(٢)</sup>  
صحائفه في راحتي وصفائحه  
فقلبي مُمليه ودمعي شارحةٌ  
وشرط المعنى أن تغيب جوارحه  
تحياته مع ذكره وفواتحه



وامتدحني بعض الشعراء في جريدة المُفلقين في جريدة الفتح، فأجبتهم بالأبيات الآتية:

يقرّظني قومي بأني مدحتهم  
ولو أنهم قد أنصفوني لما رأوا  
إذا لرأوا آثارهم شاهدًا لهم  
شهدتُ بما شاهدتُ ما من علاقة  
ولكنّ من شأن الفصاحة أنها  
سيوف نصّأها الله إذ حمسَ الوغى<sup>(٣)</sup>  
تواصل في جيش الضلال قراعها  
تلاً في قطع من الليل مُظلمٌ  
فلا تأخذنكم في الغواة هوادةٌ  
لقد خوّصوا في الدين والعرض جهرةً

كما يُمدح الرّوض الذكيُّ على النّفعِ  
بمعرفتي للحقّ عارفة المنحِ  
يكاد لديها الطيرُ يهتفُ بالصّدحِ  
ولا صلة تُوهي الشهادةُ بالجرحِ  
إذا بهرت تعطو إلى خُلُقِ سَمحِ  
ونادي مُنادي الدين للرمي والنّصحِ  
فما برحتُ تشفي الصدورَ من البرحِ  
سناها فكان الليلُ أضوا من الصُّبحِ  
وفلّوا جموع الشرّ بالضرب والطّرحِ  
ولجّوا فعاد القرحُ ينكأ بالقرحِ

(١) المهار: مفرد ما مهر، وهو صغير الخيل.

(٢) القارح من الخيل: الطاعن في السن والأصل فيها الناب الذي يحدّد عمر الجواد.

(٣) حمس الوغى: حميت الحرب.

وغير العصا والجوز يؤكل بالسَّقْحِ<sup>(١)</sup>  
إلى العفو إلا السُّرْكُ ممتنع الصَّفْحِ  
ويؤتيكم الفتح القريب من الفتحِ

فليس بغير الكسر حسمٌ لدائهم  
وكلّ ذنوب العالمين مصيرها  
سينصركم من تنصرون كتابه



ولي هذه الأبيات السينية المنشورة في جريدة الفتح عدد ٢٥٨، وقد قدمت عليها  
هذه الجملة:

إلى الشاعر المُفلقِ النجمي، زاده الله إبداعاً.

قرأت أيها الأخ أبياتك السينية، فهاجت بي خاطر الشعر برغم كل هذه الشواهد وهذه  
العوادي، فأخذت القلم وسالت القريحة بالأبيات الآتية، والله يشهد أنها وليدة بضع دقائق،  
إلا أنني لا أخالني إذا أطرقت وتمت آتي بأحسن منها، فخذها على علاتها:

كانها الغادة الحسناء في العُرسِ  
على أطرادِ كعوبِ الذُّبُلِ<sup>(٢)</sup> الدُّعْسِ<sup>(٣)</sup>  
والبُحْثُرِيِّ ولا تَضُنُّنْ به وقِسِ  
من تِلْكَمُ النفسِ أم من ذلك النفسِ  
كما تسافر بنت الحانِ<sup>(٦)</sup> بالجلْسِ  
من سَبْكِه الجزلُ أم من نَسْجِه السَّلْسِ  
من أول الشطر يُدْرِي غير مُلتَبِسِ  
إن تَنْصَلِتْ في مجال الكَرِّ تَفْتَرِسِ  
لم يبرح الفجر مُشْتَقًّا من الغَلْسِ

ما أدهشتنا من النجمي قافيةً  
لها سوابقُ قد جاءتْ مسلسلةً  
قُلْ في حبيب<sup>(٤)</sup> وبشار<sup>(٥)</sup> ورهطهما  
هيّئات أفرق إعجابي بأيهما  
شعرٌ به تسكر الألباب سائحة  
لا يعرف السامعُ الولهانُ نشوتهُ  
رَوِيَه العذب في تحكيم موقعه  
لا يحرم الله حزبَ الحق طائفةً  
قد آن للظلم أن ينجاب عن فرجِ

(١) سَقْحِ الجوزة: كسرها واستخرج ما فيها.

(٢) الذُّبُل: الرِّمَاح.

(٣) الدُّعْس: الطعن بالرمح.

(٤) حبيب: هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام.

(٥) بشار: هو بشار بن برد الشاعر.

(٦) بنت الحان: كناية عن الخمرة.

## - تاريخ مولود عزيز

وكننت في أوائل سنة ١٩٢٠ مسيحية في جبل سان مورتنز بسويسرة، وكان هناك الشهم المفضل عزيز عزت باشا من عيون أعيان المصريين، وصهره الأمير محمد علي حسن من العائلة الملكية المصرية، فولد للأمير مولود سمّاه (عزت حسن)، فنظمت له التاريخ الآتي:

قُلْ للعزیز أدام الله بهجته  
وإت یخدم سامی بأبه الزمن  
إهنأ بسبب به من الإله ولا  
زالت تلازمك الآلاء والمنن  
ولیهنأن الأمير الشهم والده  
أنعم بغصن نضیر جاءه غصن  
لمآ تطایرت البشرى بمولده  
وقرّت العین ممآ تسمع الأذن  
أهدى مُحببک تاریخًا وقال به  
بعزة قد تجلی وجهه الحسن



وتاريخ لزفاف محمد بك ناجي، نجل صديقنا المرحوم حنفي بك ناجي من أعيان مصر:

يا أيها الحنفي الذي لو أنني  
كاتبته بسواد عيني ما كفى  
هيئات أقدر أن أوفي واجبًا  
لثناك يا سلطان أرباب الوفا  
ما زلت أضرب في البلاد ولم يزل  
بحشاك قلب أخ علي مرفرفًا  
أهديت لي البشرى بعقد محمد  
تلك البشارة ما ألد وألطفًا  
أسعد بها من ليلة فيها جرى  
ذاك الزفاف على سمي المصطفى  
يا أيها الخيل الذي شوقي له  
بعد البعاد أجل من أن يوصفا  
يدعو لك اليوم المؤرخ شاعرًا  
لزفاف نجلك بالبنين وبالرفا  
٥٧٢  
١٩٨ ١٠٣ ١٤٥ ٣٢٠

## - جواب عالم في بوسنة

وكتبت إلى حضرة الفاضل شاعر أفندي مسيحو قتش الهرسكي، من أعضاء مجلس العلماء بسراي بوسنة، وذلك في جواب كتاب منه:

لمآ حللت بأرض بوسنا  
وانجلت تلك المناير  
أيقنت أني وسط ربّع  
بات بالإسلام عامر

ولقيتُ من أطفاكم  
ما نال ما قد نلته  
فأنا الحقيق بأن أتية  
قد كنت طول إقامتي  
ألقي الحنو على الوجوه  
إن الوجوه من الرجال  
ورأيت وجهك كيفما  
والعطف إن حلّ الفؤادُ  
فأنا مُحِبُّك ما حييتُ

ما تستبين به السرائرُ  
منكم لعمري أيُّ زائرُ  
هَ إذا أردت وأن أفاخرُ  
ضيفًا تحفًا به الجماهيرُ<sup>(١)</sup>  
عليّ مثل الشمس ظاهرُ  
لنعم عنوان الضمائرُ  
أقبلت ينظر وهو سافرُ  
غدتْ توَكِّدُهُ النواظرُ  
وشاكرُ أبدًا لشاكرُ

### - ذكرى شاعر الألمان الحكيم

ولما زرت في فرانكفورت بيت غوته، شاعر ألمانية الأكبر، وقدموا لي الدفتر المعتاد  
أن تكتب فيه أسماء الزائرين كتبت الأبيات الآتية ارتجالاً مع تضمين البيت الأخير:

مذ قيل هذا بيت (غوته) زرته  
هذا أمير الشعر عند قبيله  
طأطأت رأس قريحتي في بابه  
إن لم يكن من أمتي وعشيرتي  
(أو فاتنا نسب، يؤلف بيننا  
إذ كان للشعراء كعبة قاصد  
منه لجيد الدهر عقد فرائد  
ولكم رأيت عتباته من ساجد  
فالناس في الآداب أمّة واحد  
أدب أقمناء مقام الوالد)



وبعد أن ذهبت من فرانكفورت، استدعت البلدية الأستاذ المُستشرق هوروفيتس الذي  
كان يدرس العربية نفسها في كلية عليكر في الهند، وله ترجمة إلى الألماني لديوان الكميت  
فيما أتذكر وغيره، فترجم هذه الأبيات ونشر الترجمة في جرائد ألمانيا، ومهد لها بمقدمة جاء  
فيها بالاطراء الزائد، وقال: هذا إكرام شاعر الشرق لشاعر الغرب.

(١) الجماهير: الجماهير، وهي من جوازات الشعر، حذفت الباء للتخفيف.

## - زيارة قبر سيف الله ورسوله وقائد جيوش العرب والإسلام الأكبر

ولمّا زرت مقام سيّدنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، في مدينة حمص، وذلك منذ ثلاثين سنة فأكثر، كتبت على حائط المقام هذين البيتين:

مغيبك سيفَ الله في غمّك الثرى      دليلٌ بأنّ الله لا شكّ واحدٌ  
فلو أنّ فذاً خلّدتَه فتوحُه      لَمّا كان في الأقوامِ إلّاك خالدٌ

## - ما أنشد في حفلات تكريم كبار الشعراء

منذ نحو من ثلاثين سنة قام بعض أدباء مصر بحفلة تكريمية لحافظ ابراهيم الشاعر المشهور، وكتب لي بعض الإخوان من مصر إلى سورية يقترحون عليّ إرسال بعض أبيات لتُقرأ في الحفل، ومن جملة ما ذكروا لي من محاسن حافظ أنه يحبّ السوريين، وكان ذلك قبيل عيد الأضحى، فأرسلتُ أبياتاً ليست عندي نسختها الآن، وإنما أنا أملي منها ما أتذكّره وهو:

ورهِطِ دعوني أن أُجيب نداءهم      فلمّا دعوني لم يروني بقعدُدٍ<sup>(١)</sup>  
أخواننا الداعين بي لأجيبهم      إليكم تروا منّي اهتزاز المهنّدِ  
حلفتُ بما بين الحطيم وزمزمِ      وأقسمتُ بالبيت العتيق المُشيدِ  
وبالطائفين<sup>(٢)</sup> العاكفين بهذه الليالي تراهم من ركوع وسُجّدِ  
يؤمّون مثوى للخليل ومرقدًا      تلاً لأ نوراً بالنبيّ محمّدِ  
مُشاةً ورُكبانا على كلّ ضامرِ      ومن فوق قضبان الحديد المُمدّدِ  
فما في حديث الحجّ لين وقد غدا      يجيء على شرط البخاري<sup>(٣)</sup> بمسندِ  
لعمرى لقد أحييتُ قريحة "حافظِ"      عهود أغانٍ للسريج ومعبدِ<sup>(٤)</sup>  
يقولون لي سيّد عن الشام ذكره      ألم يكُ وليّ الشام شطر التودُدِ؟

(١) القعدُد: الجبان.

(٢) اختلف في جواز القسم بغير الله تعالى، وقال بعضهم عن ابن عباس جوازه، وأنه استشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿لعمرى أنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، في سورة الحجر.

(٣) البخاري: هو عبد الله محمّد، المتوفى سنة ٨٧٠م. كان من كبار محدّثين في الصحيح، ورواة الحديث الذين يُستند إلى روايتهم.

(٤) ابن سريج ومعبد: مُعْتَبَران مشهوران، ترجمهما صاحب الأغاني.

فقلت لهم أنني عليه بصالح  
وما عربيٌّ بَيْنَ الضَّادِ نَطْقُهُ

عن العُربِ طُرّاً ذاكِ أَصْلِي ومَحْتَدِي  
بشامي ولا مصري ولا مُتَبَعْدِي

ومنها خطاباً لحافظ:

وقبلي قد أولاك «سامي»<sup>(١)</sup> شهادةً  
فأنت إمام النثر غير مُدافِعٍ

ومثلي بمحمود السَّجِيَّةِ يَقتدي  
وأنت أمير الشعر من بعد أحمدٍ<sup>(٢)</sup>



وأقيمت حفلة لشاعر القطرين خليل بك المطران ، فأرسلت إلى الحفلة بالأبيات الآتية،  
وذلك سنة ١٩١٢ .

لك يا خليل من القلوب مكانٌ  
لم يختلف أحدٌ عليك كأنما  
كلّ الخواطر في ولائك خاطرٌ  
ويرى التكلّف في سواك وأنما  
يكفيك ما بين العناصر أنك الـ  
عجبا له جمع القلوب على الولا  
وإذا تجرّد للنضال فإنّه  
هيهات يبلغ شأو فتكك بالعدي  
قد زين الأدب الذي أوتيته  
ووفاء طبع ما تخلفَ عن أخٍ  
تالله في الأجياد منك قلائدٌ  
لوجئت في عصر القريض لما علّتُ

هو فوق ما بسمائه كيوانٌ<sup>(٣)</sup>  
لك كلّ أربابِ التُّهى خِلالٌ  
وجميع ألسن عارفيك لسانٌ  
شَرَعٌ عليك السَّرّ والإعلانُ  
وطنني لا بُغضٌ ولا سِنانُ  
قلمٌ بكفِّكَ ساحرٌ فتانُ  
لأعزُّ ما نُصِرَتْ به الأوطانُ  
مَن في يديه صارمٌ وسِنانُ  
جمّا أن الأخلاق فيك حِسانُ  
وزماننا إخوانه خِوانُ  
غرٌّ وفي الآذان منك جُمانُ  
يوماً بنابغة لها ذبيانُ

(١) أي محمود باشا سامي البارودي الذي قرط حافظاً في تلك الحفلة.

(٢) مَن شاء يفهم أنّ حافظاً هو أمير الشعراء بعد المتنبّي، ومَن شاء يفهم أنه ثانٍ لشوقي.

(٣) كيوان: اسم كوكب زُحل (بالفارسية).



مُدْ خَفَّ عَنْكَ عَلا بِهِ المِيزانُ  
بِحِذا عُكاظَ فَإِنَّكَ المِطْرانُ

ولئن عداك موازنوك فكم فتى  
أو كانت الدنيا قسوس فصاحةٍ



القصيدة التي بعثت بها من أمريكا إلى المهرجان الذي أقيم لأحمد شوقي، أمير الشعراء، سنة ١٩٢٧ مسيحية، وتلاها في المحفل شاعر القطرين خليل مطران، وكان نظمي هذه القصيدة في البحر قبل وصولي إلى نيويورك:

إنَّ الحقوقَ لَتَقْتَضِيكَ أَداءَها  
إِعْجازَ أَحْمَدَ ما يُفَجِّرُ مَآءَها  
فاليومَ عندك ما يعيد جلاءَها  
سَدَّتْ عَلَيْها نَهْجَها وَسِوَأَها  
هُوجُ العِواصِفِ دَرَّها وَسِخاءَها  
تُرَبِّي الصِوارِمُ بالصِقالِ مِضاءَها  
والخيلُ يُظهِرُ عَدُوَّها خِلاءَها  
ما دام شوقي كافلاً أنواءَها  
صَمِنَ النَبوغُ على الزمانِ بقاءَها  
وغدت هوازنٌ<sup>(١)</sup> مع ثقيفَ فداءَها  
توتِي جَمِيعَ الكائِناتِ بِهَاءَها  
فأصابَ مِنْها كُلَّ بَكرٍ شاءَها  
هَيَّهاتِ يَنتَظرُ الزمانُ فِناءَها  
ذَكَرِي تَطبَّقُ أَرْضَها وَسِماءَها  
صَلَّتْ عَلَيْهِ صِباحَها وَمِساءَها

نادِ القَريحةَ ما اسْتَطَعْتَ نِداءَها  
مَهما يَئُلُ مِنْها الجِموُدُ فَإِنَّ مِنْ  
مَهما تَراكَمتِ الغِيومُ بأُفُقِها  
لا تَعْتَذرُ عَنيها بِكَرِّ نِوائِبِ  
فأَهمُّ ما هَمَّتِ السِحابُ إِذا مَرَّتْ  
والحِكُّ يَستورِي الزِنادَ وَإِنما  
والرِمْحُ يَكسِبُ بالثُّقافِ مِتانَةً  
حاشا القَرائِحَ أَنْ تَظُنَّ بوَدِّها<sup>(٢)</sup>  
الشاعِرُ الفِذُّ الَّذِي كَلِماتُهُ  
أَنسَتْ فَصاحَتَهُ أوِئِلَ وائِلِ  
في كُلِّ كائِنَةٍ يَزِفُ قَصيدَةً  
غَدَتِ المِعانِي كُلَّها مُلْكَاً لَها  
وكِسا اللِسانَ اليَعرِبيَّ مِطارِفاً  
سُتُخِلِّدُ الأوطانُ مِنْ تَكرِيمِهِ  
لو أَنصَفْتَ لَغةَ الأَعارِبِ قَدْرَهُ

(١) الودق: المطر.

(٢) هوازن: لغة في (هوازن) اسم قبيلة، (جوزها الشعر) بهذا الاستعمال.

من كلّ موضوع أصاب شواكلاً<sup>(١)</sup>  
بيكي «شكسبير» على أمثالها  
ولو انّ آلهة الفصاحة عندهم  
صنّاجة الشرق الذي نبرأته  
في كلّ حرف من حروف يراعه  
ما حلّ بالإسلام بأس مُلمّةٍ  
يُندي فظاعتها ويوسع هؤلها  
كانت قصائدهُ لبعثِ بلاده  
وأرى الليالي لا تعزّز أُمَّةً  
كَمْ أثبتُ التاريخُ في صفحاته  
ضلّتْ لعمرى في الحياة قبيلةُ  
والعُربُ لا تبدأ بجمع جموعها  
أَكْرِمُ بأحمدَ شاعراً وافى لنا  
أتلو قصائده فتملأُ مُهْجَتِي  
وأظُلُّ مفتخراً بها فكأنّ لي  
نَحَلتْ له نفسي مودّةً وامقٍ  
نعزو إلى لحمٍ متانة أصلها  
لا ترتجي منها النمائُ ثُلْمَةٌ  
ناشدت شعري أن يفي بمودّتي  
قد صار عهدي بالقريض كأنه

بلغت بمقتلها الصدورُ شفاءها  
وبييت «غوته» حاسداً عليها  
أدركنَ شوقي خففت غلّواها  
تجلو المشارق عندها غمّاءها  
وترُ يثيرُ سرورها وبكاءها  
إلا ورجّع شعره أصداءها  
وصفاً ويذكر داءها ودواءها  
صُوراً أراد من البلى إحياءها<sup>(٢)</sup>  
إن لم يكن سواسها شعراءها  
أمّا غدا إنشادها إنشاءها  
لم تصطحب أفعالها أسماءها  
إلا سمعت نشيدها وحداءها  
في روح أحمد<sup>(٣)</sup> حاملاً سيماءها  
فَرَحاً يُزيل همومها وعناءها  
دون الأنام ثناءها وسناءها  
وفى عهداً<sup>(٤)</sup> عهدوها إنماءها  
وتمزّ من ماء السماء صفاءها<sup>(٥)</sup>  
كلا ولا تُوهي الهنات بناءها  
وأراه يعجزُ أن يجيء كفاءها  
دِمْنٌ تقاضتها الرياح عفاءها

(١) يُقال أصاب شاكلة الرمية، أي خاصرتها.

(٢) كرّرت هذا المعنى في رثائه، رحمه الله:

بعثت به روح الحياة كأنها

(٣) أحمد بن الحسين المتنبّي.

(٤) العهد: أول مطر الوسمي.

(٥) إشارة إلى القبيلة التي ننتمي إليها، وهي لحم، وآل ماء السماء، ومزّ الماء رشفه.

هي صور إسرافيل في زعقاته

أدعو فلا يأتي الذي أرضى به  
والشعر ما رسم الضمائر نائلاً  
والشعر ما ترك المعاني مثلاً  
والشعر حيث يقال من ذا قالها  
وهناك نفس مرة ما تأتلي  
إن لم تجدني في العجاجة أولاً  
وفرت يا شوقي السباق على الورى  
تتقطع الأعناق عن غاياتها  
تالله أعطيت الرياسة حقها  
وبذذت أهل العبقريّة كلهم  
لما رأيتك قد نزحت قلبها<sup>(٥)</sup>  
فاسعد بعرش إمارة الشعر التي  
وتهنّ وابق لأمة عربية

والشعر أن تجد النفوس رضاءها  
منها الكنائن نافجاً<sup>(١)</sup> أحناءها  
فتكاد تلمس بالأكف هباءها  
ما الشعر حيث يقال من ذا قاءها  
تُملي عليّ من العلا أهواءها  
نكرت عليّ ثلاثها وثناءها  
برياسة بات السباق وراءها  
حتى الأمانى لا تحوم حذاءها  
وعقدت حبوتها<sup>(٢)</sup> ونلت حباها<sup>(٣)</sup>  
وبزرت<sup>(٤)</sup> جنة عبقر أشياءها  
ألقيت عني دلوها ورشاءها<sup>(٦)</sup>  
ألقت إليك لواءها وولاءها  
لا زلت قرة عينها وضياءها



وأقيمت حفلة عيد الخمسين سنة لأستاذنا اللغوي العلامة الشيخ عبد الله البستاني<sup>(٧)</sup>،  
طاب ذكره، وذلك في بيروت، فنظمت هذه القصيدة وبعثت بها من برلين:

أحقُّ الأيادي أن تُجَلَّ وتُعظِّما  
وتُسلِّك في الأعناق سمطاً وتُنظِّما

(١) فَنَجَّ الشيء: رفعه وعظَّمه.

(٢) ما يحتبني به المرء من عمامة أو ثوب.

(٣) الحياء: العطية.

(٤) بدّه بالذال: غلبه، ويزّه بالزاي: سلبه.

(٥) القلبيب: البثر؛ ونزح القلبيب: أفرغها من مائها.

(٦) الرشاء: الحبل.

(٧) كانت وفاة الأستاذ عبد الله البستاني، شيخنا منذ بضع سنوات، وقبل وفاته بيومين سأله الأديب الشيخ خليل تقي الدين بعض أسئلة منها قوله له: أي تلاميذك أحب إليك؟ فأجابته: أحب تلاميذي إلى الأمير شكيب أرسلان. ثم ذكر أشياء لا حاجة إلى نقلها هنا، وإنما نقل قوله: وهو لم ينسني مع طول الغربة، وأرسل تلك القصيدة التي أرسلها بمناسبة عيد الخمسين سنة لخدمتي اللغة العربية.

وتُلْبِسُهَا الأَيَّامُ حَلِيًّا وَكسوةً  
أَيْدِي الأُوْلَى كَانُوا مَصَابِيحَ عَصْرِهِمْ  
وَمَنْ أَوْضَحُوا لِلْحَائِرِينَ مَحَجَّةً  
لِعَمْرِي إِذَا الأَعْلَامُ قَيْسَتْ جُهُودَهَا  
وَجَاءَ الكِرَامُ الكَاتِبُونَ فَقَيَّدُوا  
فَمَنْ مِثْلَ عَبْدِ اللهِ فِي الشَّرْقِ عَالِمٌ  
تَلَامِيذُهُ عَدُّ الحَصَى وَتَرَاهُمْ  
أَفَاضَ عَلَى الإِرْجَاءِ عَيْلَمٌ<sup>(١)</sup> عِلْمُهُ  
وَبَثَّ لِسَانَ العُرْبِ خَمْسِينَ حَجَّةً  
وَسَلَّ سَيْوْفًا مِنْ قِرَابِ دِمَاغِهِ  
وَمَنْ يَبْتَدِلُ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ نَفْسَهُ  
رَقِيَ فِي ذُرَى التَّحْقِيقِ فِي النُّحُوزِ ذُرُوءَةً  
فَلَوْ كَانُوا لَأَقَى سَيُوبِيَهُ وَرَهْطَهُ  
وَلَمْ يَكُنْ ذِيكَ الكِتَابِ مُرَجَّبًا  
وَلَوْ كَانُوا فِي العَصْرِ القَدِيمِ مَجِيئُهُ  
وَأَصْبَحَ مَعَهُ الفَارْسِيُّ<sup>(٢)</sup> وَابْنُ فَارِسٍ<sup>(٣)</sup>  
لَبَاتَتْ بِأَحْشَاءِ المُبَرِّدِ<sup>(٤)</sup> غِلَّةً  
وَصَارَ ابْنُ عَصْفُورٍ<sup>(٥)</sup> مَهِيضًا جَنَاحَهُ  
وَلَوْ نَظَرُوهُ فِي الفِرَائِدِ مَرَّةً

وتسني لها الأحقاب عيدًا وموسمًا  
لمدَّرعٍ ليلًا من الجهل مظلمًا  
فساروا بهم في العيش نهجًا مقومًا  
وكلُّ أتى عمًا فراه مترجمًا  
لكلِّ عصاميٍّ حسابًا مرقمًا  
له مثل من ربى ورقى وعلمًا  
بُدورًا بأفاق البلاد وأنجمًا  
فَعَجَّ وَمَنْ لِلْبَحْرِ كُفُوٌ إِذَا طَمَى  
يَقُومُ مُنَادًا وَيُوضِحُ مُبْهَمًا  
فَقَلَّ بِهَا لِلْحَنِّ جَيْشًا عَرْمَرَمَا  
فَأَجْدَرُ بَأْنَ يَغْدُو عَزِيْرًا مُكْرَمًا  
يُقَصِّرُ عَنْهَا مَنْ مَضَى وَتَقَدَّمَ  
لِعَادِ لِعَمْرِي سَيُوبِيَهُ ابْنَ أَعْجَمًا  
وَرَائِحَةُ التُّفَاحِ لَمْ تَكُنْ مَغْنَمًا  
لَفَتَّ بَعِيْنَ الجَاحِظِ العَيْنِ حِصْرِمًا  
وَقَدْ بَرِئَتْ تِلْكَ الفِرَاسَةُ مِنْهُمَا!  
وَكَادَ ابْنُ جِنِّيٍّ<sup>(٦)</sup> يُجَنِّ تَأْلَمًا  
وَلَوْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ طَارَ إِلَى السَّمَاءِ  
رَأَوْا مِنْ عُلَاهُ مَا يَفُوقُ التَّوَهُّمَا

(١) العيلم: البحر.

(٢) الفارسي: هو ابن علي الفارسي، المتوفى سنة ٩٨٧م، من أئمة النحاة.

(٣) ابن فارس: هو أبو الحسين أحمد، المتوفى سنة ١٠٠٤م. لغوي شهير، كوفي المذهب.

(٤) المبرّد: هو أبو العباس (٨٢٦ - ٨٩٨)م. نحوي معروف، يمثل مذهب الكوفة.

(٥) ابن جني: هو عثمان (٩٤٢ - ١٠٠٢)م. نحوي بصري، من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف.

(٦) ابن عصفور: هو ابن علي بن مؤمن بن محمد (١٢٠٠ - ١٢٦٤)م. نحوي معروف، له "كتاب المتع".

وأصبح معه المجدُّ قد قلَّ مجدهُ  
ولو كان جار الله جارهُ بدهُ  
لقد سَعِدَتْ منه العروبةُ بالذي  
وئارت له في نصر أمةٍ يَعْرُبِ  
قضى عمره سيفًا يَقْدُ عداتها  
يُبَلِّج من أنوارها كلَّ ساطعٍ  
ويكشف عن أسرارها كلَّ غامضٍ  
فما عنَّ في يوم سُعوبيُّ فرقةٍ  
وما لاح قرن القرن إلا انبرى له  
فلو شاءتِ الفصحى وفاءً جهاده  
فمنِّ لِلألى مثلي ارتووا من معينهِ  
عرفنا له فضلاً علينا ومِنَّةً  
وما أنا إلا من تلقى بضاعةً  
وما الفضل إلا للقسامي<sup>(١)</sup> عندما  
وما هو إلا بعض مرجوع صوته  
حنانيك أستاذ الأساتيد إننا  
ولو أنصفتك العُربُ لم يبقَ مُعْرِبُ  
ولو كان لبنان يوفيك شكره  
تقبَّل ثناءً لو غدا رمل عالج<sup>(٢)</sup>  
وقابل بغضِّ الطرف ميسور وامقِ

وآبَ صِحاحُ الجوهريِّ مثلما  
وما افتخرت منه زمخشرُ بأنتما<sup>(١)</sup>  
تولَّه فيها مُستهماً مُتَيِّماً  
عزائمُ شوقٍ خالط اللّحمَ والدمَا  
فيرمي بهم سِلْوا فسِلْوا مُقسِّماً  
وقد ينكر الأنوار من رُزقِ العمى  
عليه حجاب الجهل كان مُحَيِّماً  
لمنقصةٍ إلا وخلاهُ ملجماً  
يرمي الذي يُصمى لعمري إذا رمى  
لنصت له فوق السَّمَاكِينِ مجثماً  
بأن يَنْقَعُوا من ذكر معروفه الظَّما  
ولم يكُ ما نرعاه عهداً مذمَّماً  
فمنق منها جُهد مُعي ونمنا  
يرانى الورى دبجت بُرداً مُسهماً  
وتقليد ما قد كان جاد وأنعما  
جميعاً نحى فيك من شرف الحمى  
على سطحها إلا أذاك مُسلماً  
لأوشك فيه الصخر أن يتكلَّمَا  
بكثرتَه لم نوفِ حقاً مُحْتَمَّماً  
قُصارى مُناه أن تعيش وتسلما

(١) أي وما افتخرت بلدة زمخشر بانتمائه إليها، مصححة.

(٢) الذي يطوي الثياب الطية الأولى، فتتكسر على طيه.

(٣) عالج: رمال بين قيد والقريات، وهي متصلة بالشلبية على طريق مكة.

## - قصيدة حفلة عبد الحميد بك الرافعي

واحتفل أدياء الشام بعيد الخمسين سنة للشاعر الكبير المرحوم السيد عبد الحميد الرافعي في طرابلس الشام، فاقترحوا عليّ إرسال شيء وكنيت في برلين وذلك سنة ١٩٢٩ مسيحية، فبعثت إلى طرابلس بهذه الأبيات وتليت في الحفل، ونُشِرت في جريدة الشورى:

إن كنت تبغي كرام الأنس والأنسا  
أمنًا وجاور لأرباب النهى قُدسا  
من الخصائص ما عن غيرها حبسا  
من أهلها أبحرًا في شطه جُلُسا  
مصرًا يقصّر عنها كل ما يبسا  
من المآثر ما يستنطق الخُرسا  
والخافضين من الأعداء ما رأسا  
وجددوا من دروس العلم ما دَرَسا  
ثماره ومن العلياء ما قَعُسا  
ولن يضلّ الذي من نوره اقتبسا  
صفاً أقيمت لشرع المصطفى حرّسا  
عبد الحميد يروم الإذن مُلتَمِسا  
تعارض العارض الهطال ما انبجسا<sup>(١)</sup>  
وطالما امتنعت عن غيره سُمسَا  
من تَلِكِمْ النفس نلقى ذلك النَّفسَا  
لو جاء في عصره الكِنديّ ما نبسا  
تختالُ في حِللٍ مِنْ عيده وكُسا  
في خدمة اللغة الفصحى صباحَ مَسَا  
وأن أشاهدَ فيه ذلك العُرسَا

إياك في الشرق أن تعدو طرابلسا  
وحجّ منها لقصّاد الهدى حرّما  
مدينة جادها الباري برحمته  
لم يكفها بحرها العجاج بل جمعت  
أكارم بهم باتت طرابلسُ  
ناهيك بالرافعيّين الذين لهم  
الرافعين من الأعلام أرفعها  
لقد رعوا تلعات المجد أجمعها  
وآثروا من أيادي الفضل ما قربت  
ساروا على أثر الفاروق جدّهم  
مثل السيوف المواضي في ضرائبها  
وكلّ ذي أدب يبغي الكمال فمن  
الشاعر الفذّ لو جاءت قريحته  
تغدو عذارى المعاني قيد خاطره  
من معدن كلّ صافٍ ولا عجب  
إنّي أقول وخير القول مُجمَلُهُ  
هذه طرابلسُ الفيحاء حافلة  
عيدٌ لخمسين حولاً قد تنجزها  
وقد أبت غربتي أنّي أرى وطني

(١) انبجس الماء: انفجر وتدفق.

## القسم الثالث

### في مرثي العلماء والأدباء والكبراء

#### رثاء إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ أحمد فارس الشدياق

لمّا توفي إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ أحمد فارس الشدياق، كنت لا أزال في السابعة عشرة من العمر، وكنت معجباً بأسلوبه، فضلاً عن صداقة قديمة بيننا: الأرسلايين وبين آل الشدياق. فلمّا جاءوا بتجاليده من الآستانة إلى بيروت، وصُلّي عليه في الجامع العمري الكبير، تليت عليه مرّاتٍ متعدّدة لشعراء الوقت، منها مرثية لي. لم تُذكر في ديواني الأول المُسمّى بالباكورة، لأنّ الباكورة كانت قد طبعت قبل وفاة أحمد فارس، رحمه الله. وقد فُقدت من بين أوراقه هذه المرثية، إلى أن عثرت عليها هذه السنة في رسالة نشرها الفاضل الدكتور فيليب الشدياق، تتضمّن ترجمة أحمد فارس، وهي هذه:

تمادت علينا بالخطوب الدوامسِ	ليالٍ لها بالمجد عصف الروامسِ <sup>(١)</sup>
وأصمّت رجالاً للزمان وأنهم	لنعم رجال الدهر شُمّ المعاطسِ <sup>(٢)</sup>
أحقّاً عباد الله ذا اليوم أتّه	وجوماً قد اسودّت وجوه المدارسِ
وأصبح مضمارُ البلاغة خالياً	لذنّ غاب عنه اليومَ "أحمدُ فارسِ"
هو الفارس السباق في كلّ حلبةٍ	تجمّع فيها كلّ قرنٍ ممارسِ
أجلٌ مُجلٌّ في رهان براعةٍ	وأبتع <sup>(٣)</sup> فرسان البيان المداعسِ
إذا صال لم يترك مصالاً لفارسِ	وإن قال لم يترك مقالاً لنابسِ
أقام مناراً هاديّاً كلّ حائرٍ	وأوقد ناراً أمّها كلّ قابسِ
غدا ذكره ملء الزمان ولم تكن	لائار الأيام غير فهارسِ
وشيّد للفصحى قصوراً شواهاً	على عفوهاتيك الرسوم الطوامسِ

(١) الروامس: الرياح التي تدفن الأتار.

(٢) شُمّ المعاطس: كناية عن ذوي الكبرياء، يشمخون بأنوفهم. وأراد بها الكاتب الوجه الإيجابي، أي ذوو العنقوان.

(٣) الفارس الأبتع: القويّ.

لقد جاءت الدنيا جوائبه<sup>(١)</sup> التي  
تبلج نور الشرق عن وجه سافرٍ  
فمن لفصولٍ كان يكسو بيانها  
وأيات فضل كان يحو بنورها  
فما كلُّ مَنْ رام العُلا أدرك العُلا

بإنشائه كانت طراز المجالسِ  
بها وتثنى العصرُ عن عطف مائسِ  
من الوشي والديباج أبهى الملابسِ  
دجى الشكِّ محو الصبح ليل الخنادسِ  
ولا كلَّ مَنْ يعلو السروجَ بفارسِ



وقلت أرثي المرحوم محمود بك، نجل المرحوم ابراهيم فخري بك وشقيق صاحب  
السمو أحمد نامي بك:

يا عين مهما كنت ذات جمودٍ  
ولأمطرٍ نك من الدموع سحائبًا  
ولأنتِ يا كبدي فمن نار الأسي  
ما كنت يا قلب الحديد فإن تكن  
أتعزّ في محمود دمعة ناظرٍ  
من بعد ما ملأ النواظر قرّة  
ما كنت أحسب أن مثل جبينه  
ما كنت آمل أن شُعلة ذهنه  
ما كنت آمل أن نكباء الردي  
وبكلّ نفس من أمائر<sup>(٢)</sup> نبله  
سهر الليالي في وصال حقائق  
ما غرّه زهو ولا حسب العلا  
نظمت به زهر الخلال كأنها

فلأ بكينك دما على محمودٍ  
تروينها عن كفه في الجودِ  
ذوبي ويا نار الصلوع فزيدي  
فالنار قد تلوي<sup>(٣)</sup> بكلّ حديدِ  
لو كان فيه قسوة الجلمودِ  
وغدا مسرة قلب كلّ ودودِ  
شرح الشباب يعود طعم الدودِ  
تعدو عليها اليوم كفّ خمودِ  
تودي بغصن شبابه الأملودِ  
إيماض بارقة ولمح شهودِ  
والغير يسهر في وصال الغيدِ  
إلا بمجمع طارفٍ وتليدِ  
في الخود<sup>(٤)</sup> عقد اللؤلؤ المنضودِ

(١) الجوائب: الأخبار الطارئة، وبها سمى أحمد فارس جريدته، التي كانت تصدر في الأستانة، وكانت أحسن جريدة عربية في وقتها.

(٢) ألوى به: ذهب.

(٣) أمائر: علامات، مفردها "أمارة" وجمع القياس؛ أمارات.

(٤) الخود، مفردها خود: المرأة الشابة.



ما كان من يمضي وهذا شأوه  
مارعَ مثلُ القصفِ في شرحِ الصُّبا  
يومٌ غدا في كلِّ دارٍ مأتماً  
لبسِ النهارِ به دجئةٌ غاسقٍ  
ولّى وخلفَ في ذويه من الأسي  
لو كان ينظر للحقيقة ناظرٌ  
هذا يموت بكلِّ يومٍ حسرةً  
يا أيُّها المحمودُ رفقاً بالألي  
قد كنت سبّاقاً إلى حوضِ العُلا  
والكلُّ ركبٌ سائرون وإنّما  
رفقاً بوالدك الكريم فقد وفي  
غادرتَ بعدك كلِّ باكٍ جفنه  
ومضيتَ قاصداً جنّةٍ وتركتنا  
قد عزّ فيك الصُّبرُ لولا أنه  
قد كنت تفدي في مقامِ كريمةٍ  
الموت حتم والمسافة بيننا  
يتخيّل الإنسانُ أبعدَ مطمعٍ  
لا تستحقّ من الهموم حياتنا  
ما كان سفّاحُ الدموعِ لفاجعٍ  
لكن حقّ الطبعِ محكوم به  
يا ثاكل المحمود صبراً بعده

في الستِّ والعشرين غير شهيدٍ  
والقطف قبل حلاوة العنقود<sup>(١)</sup>  
فيها وفي الفردوس يوم العيدِ  
ولقد يكون ضياء الليالي السودِ  
حالاً أشقّ من الحمامِ المودي  
فالموتُ للموجودِ لا المفقودِ  
إذ ذاك راح بيومه الموعودِ  
دفنوك بين جوانحٍ وكبودِ  
فسبقت نحو الموردِ المورودِ  
أهل النباهة فوق خيلٍ بريدِ  
سجّو الفقيد بفرحة المولودِ  
يمتاح<sup>(٢)</sup> من بحر البكا بمديدِ  
من حزننا في النار ذات وقودِ  
فرضٌ وإنّ الحزن غير مفيدِ  
لو أنّ ثمة موقفاً لجنودِ  
نزرٌ وما من قادمٍ ببعيدِ  
والموتُ منه مثل حبلٍ وريدِ  
لو أنصف الأقسام غير زهيدِ  
رأياً بمهديٍّ ولا برشيدِ<sup>(٣)</sup>  
والعقل مرتبط ببعض قيودِ  
فبقاء أحمد سلوة المفئودِ<sup>(٤)</sup>

(١) أخذتُ هذا من قول عامي كان يقول أمامي لعامي آخر مات أبوه: والدك قد حلا عنقوده. يريد أنه أنّ أوان موته.

(٢) يمتاح (الماء): يستخرجه.

(٣) المهدي والرشيد: من مشاهير الخلفاء العباسيين.

(٤) المفئود (المفئود): الذي يشكو فؤاده.

إنّ جلّ خطبك بالذي أكلته  
ومن الإله على الفقيّد تحيّة  
مهما تعاظمت الخطوبُ على الفتى

فالركن باقٍ ليس بالمهدودِ  
وفراق عاجلة لدار خلودِ  
فعزاؤه في العدلِ والتوحيدِ



وتوفيت والدة نعوم باشا، متصرف جبل لبنان، وكان صديقاً لنا، فرثيتها وعزيتُ ابنها بالقصيدة التالية، وقد مضى عليها أكثر من أربعين سنة:

ألا هل لجنّ ساهر الليل ساهدِ  
وهل لشؤون<sup>(١)</sup> أن يؤمّل غيضاها  
وهل لفؤادٍ أن يُرجى شفاؤه  
وهل لشجبيّ من سلوٍ وقد ذكتُ  
تبيت إذا دبّت أساودُ ليله  
وهل لرعاة النجم في مهمة الدجى  
تحدرّ سيل الدمع طلقاً عنانهُ  
وكيف يقاوي الدهرَ قلبٌ مهلهلٌ  
أباد الخوالي والبواقي رهائنٌ  
ولم يُبق قلباً لم يُضبه ولم يكنُ  
تأملٌ فما في العمر غير مصائبِ  
ولو سبر الناسُ الأمورَ لأصبحوا  
وليس الجديدان<sup>(٢)</sup> اللذان تعاقبا  
وما اليوم إلا ما ينمُّ على الورى

تألّف غمضٍ منذ بينك شاردٍ؟  
ومن دونها ما فاض صمُّ الجلامدِ؟  
بغير لغام الزفرة المتصاعدِ؟  
من الوجد في جنبيه نارُ المواقدِ؟  
حشاياه من أنياب رقص الأسودِ<sup>(٣)</sup>  
من الودّ إلا صحبة للفراقدِ؟  
وألقت قلوبٌ للأسى بالمقاودِ  
يشفّ وذوي آثاره في الجوامدِ  
لديه فما باقٍ به غير بائدِ  
يصاب وما يرمي بكفٍّ وساعدِ  
وما الناس إلا بين باكٍ وواجدِ  
بأسرهم من فيلسوفٍ وزاهدِ  
سوى جكمي<sup>(٤)</sup> أعمارنا عند ناقدِ  
ولا الليل إلا للفناء بقائدِ

(١) الشؤون: (ها هنا) الدموع.

(٢) الأسود، مفردا الأسود: حية عظيمة سوداء، تُعرف بالحشّ.

(٣) الجديدان: الليل والنهار، لأنهما يولدا كلّ يوم.

(٤) الجلم: محرّكة، المقرّاض.

أَهْلَتْهُ الْأَسْيَافُ فِي كُلِّ مَفْرَقٍ  
وخطبِ لِعَمْرِي لَوْ أَنَاخَ بِيَذْبَلٍ<sup>(١)</sup>  
أَنَاخَ بِأَكْنَفِ الْوَزِيرِ فَصَدَّهُ  
وَمَا كَانَ مَرْزُوعًا بِذَلِكَ وَحْدَهُ  
أُصِيبَتْ بِأُمَّ بَرَّةٍ فَمُصَابِهَا  
وَقَدْ كَانَ يَسْتَسْقِي الْعَهَادُ<sup>(٢)</sup> بِذِكْرِهَا  
مَضَتْ لَمْ يَرْتَقِ مِنْ صِفَاهَا كِدْوَرَةٌ  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَاللَّهِ مِنْ حَسَنَاتِهَا  
وَلَمْ يَكُ فَضْلٌ قَدْ حَوَتْهُ بِوَاحِدٍ  
لِمَسْتَوِرٍ مِنْ رَهْطِ عَثْمَانَ بِالْغِ  
تَوَلَّيْتُ مِنْ لَبْنَانَ خَطَّةَ شَامِخٍ  
فَأَنْهَجْتَهُ مِنْ عَدَلِ حَكْمِكَ شَرْعَةً  
وَأُورِدْتَهُ مِنْ عَفَّةٍ وَنَزَاهَةٍ  
فَلَوْ كَلَّفُوهُ أَنْ يَبْثُكَ شُكْرَهُ  
لَكَ الْيَقِظَةُ الْعَظْمَى الَّتِي بَاتَّبَاعِهَا  
فَإِنْ كَانَ لَبْنَانُ يَشَاطِرُكَ الْأَسَى  
تَعَزَّ فَكَمْ مِنْ مَوْقِفٍ لَكَ صَالِحٍ  
رَأَيْنَاكَ تَأْتِي فِي أُمُورِكَ كَلِّهَا  
فَعَالَ أَمْرِي يَخْشَى الْإِلَهَ بِخَلْقِهِ  
فَلَا زَلْتَ مَحْرُوسًا مِنَ السُّوءِ رَاقِيًا  
وَلَا زَلْتَ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ مَسَدَّدًا

وما تلکم الأسیافُ غیر حدائدِ  
لرحرح منه کلَّ راسی القواعدِ  
من الصبر جیشُ مُرصدٌ للشدائدِ  
وقد فتَّ فی عضد التقی والمحامدِ  
مُصابٌ یتیمٌ قد خلا من مُساعدِ  
إذا أظما الوسمیُّ أرضَ المعاهدِ  
ولا احتملت إصرًا یجوز لعابدِ  
سواک کفاها ذاک دون زوائدِ  
وإن تکُ ضمتَّ کلَّ فضلٍ لواحدِ  
لعمرك من موله أسنی المقاصدِ  
له شَعَفَاتُ<sup>(٣)</sup> لا تذللَ لماهدِ  
أعادته أعنی من ولیدِ لوالدِ  
بإقرار من یشنوک<sup>(٤)</sup> أصفی المواردِ  
لحیاتک من أغصانه کلُّ مائدِ  
حللت محلَّ النوم من جفن راقدِ  
فکم من سرور نحوه بکَ وافدِ  
وکم من جمیلٍ عن سليلک ذائدِ  
من القصد ما یُعنی علی کلِّ قاصدِ  
ویعلم أن المرءَ لیس بخالدِ  
مراقی تُلقی الشمسَ بین الحواسدِ  
لخدمة سلطان البلاد المجاهدِ

(١) يذبل: اسم جبل في بلاد نجد.

(٢) العهد، مفردا العهدة: أول مطر الربيع؛ والوسمي، كذلك.

(٣) الشعفات: رؤوس الجبال.

(٤) شتا: أبغض من حسد.

مقامك منه ما أردت ولا تزل  
وذكرك في الغبراء<sup>(١)</sup> أسرى من الضيا

رجا لصديقٍ أو شجا لمعاندي  
وأسيرٌ في آفاقها من قصائدي



وعندما توفّي المرحوم عبد الله باشا فكري الشهير كنت في مصر، وكانت وفاته يوم الأضحى سنة ١٣٠٧، وهو صديق وافي للأستاذ الإمام، وكانت سبقت بيني وبينه مراسلة شعرية ذكرت في هذا الديوان، فرثيته بقصيدة نشرتها جريدة المؤيد ولكنني فقدتها أيضًا من بين أوراقِي، ثمَّ وجدتها في كتاب الآثار الفكرية، وهي هذه:

إلى مثل هذا في الخطوبِ العظائمِ  
وهل بعد هذا الخطبِ خطبٌ نُعِدُّهُ  
مُصابٍ لما قد فات أنسى، ومأتم  
ولا غرَّو فيه فاجعًا عمَّ رُزوه  
مصاييحُ في الدنيا إذا هي أُطِفِئتْ  
وأعلام رُشدٍ في البرية يهتدي  
ولكنَّها الدنيا لعمرى أولعت  
يُرَجَّى التهاب النار بالماء عندها  
أحقًا عباد الله ذا اليوم قد خبا  
وأنَّ المعالي والمعاني فُجِّعتْ  
وما لشئون العلم سالت شئونها  
أجلُ مات من قد كان للفضل سيِّدًا  
قضى اليوم عبد الله فكري الذي سعى  
وحلَّفتِ الأقلامُ والصَّحفُ بعده  
وأضحى به أضحى وقد كان يومه

أرى منتهى بطش الليالي الغواشمِ  
مُصابًا بعِلمٍ أو بلاءٍ بعالمٍ؟  
به حُتِمَتْ آلامُ سُودِ المآتمِ  
فموت رجالِ العِلمِ موتُ العوالمِ  
دجا الناسُ في ليلٍ من الجهل قائمِ  
بها كلُّ سارٍ في المجاهل هائمِ  
بنكب العلى من عهدِها المتقادمِ  
وليس يُرَجَّى صفوها كلُّ حازمِ  
شهاب العلى وأنذكَ طوؤُ المكارمِ؟  
بخطبِ لُسْمِ الخَطِّ<sup>(٢)</sup> ولبيضِ ثالمِ  
على وجناتِ الفضلِ سُحَّ الغمائمِ؟  
بفاجئِ خطبِ داهمِ أيِّ داهمِ  
لنيلِ المعالي منذ نُوطِ التَّمائمِ  
بحزنٍ إلى يومِ القيامةِ دائمِ  
ولذاته قد نُغصتْ بالعلاقمِ

(١) الغبراء: صفة الأرض.

(٢) لُسْمُ الخَطِّ: الرماح، (المنسوبة إلى الخط، وهو مرفأ في البحرين حيث تباع الرماح).

وباتت تُغور كُنَّ فيه بواسمًا  
نعيُّ سَرَى مِلءُ المسامع وقعه  
كذا فليكن غَوْر الكواكب في الثرى  
مصيبةٌ مَجْدٍ أسكرتُ بسماعها  
فقدنا أميرًا كان غرّة عصرنا  
فقدنا أمير النظم والنثر راقياً  
فواهاً لأقوالٍ له قد أعارها  
ورقة ألفاظٍ صِحاح أعارب  
نظام مبانٍ يُحجِل الرَوْض بهجةً  
محاسن روح ما ابتغت في زمانها  
ولا وردت غير الشهامة مورداً  
خلاتق أمثال الرياض نواضراً  
وقد كان أذكى من سنا النار ربّها  
فلما ثوى تحت الرغام وذلّت  
بكتّه عيون المَكْرُماتِ واعلمتُ  
ولم أرَ خطباً مثله أو هنّ القوى  
سأندبه لا زاخراً درّ مدمعٍ  
ولا أنس عندي من نفائس لفظه  
وكنت مللت الشعر حتى كرهته  
إلى أن قضتُ أوصافه برثائه  
على أنني إن لم أكن قبل ناظماً  
فمن وصفه درّ المحامد والثناء  
أيا راحلاً عنّا إلى المَلِك الذي

وغادرها ذا النعي غير بواسمٍ  
إذا لصحا من غفلة كل نائمٍ  
كذا فليكن غيَضُ البحار الخضارمِ  
نهى الناس حتى أقعدت كل قائمٍ  
وحلية أجياد العُلا والمعاصمِ  
من الأمر أعلا ما ارتجت نفس رائمٍ  
سلالته واللفظ مرّ النسائمِ  
كساها بتفويفٍ<sup>(١)</sup> طراز الأعاجمِ  
وصيّد معانٍ في سُرود النعائمِ  
سوى الخير والمعروف يوماً لآدمي  
ولا عرفت من أين باب المآثمِ  
تَصَوَّعَ منها عُرفُ زهر الكمائمِ  
وأقطع رأياً من شِفار الصوارمِ  
بمصرعه للعِلم شُمُّ المراغمِ  
عليه المعالي كيف نوح الحمائمِ  
به وقد انحلت عقود العزائمِ  
ولا سامعاً في الحزن لومة لائمِ  
قلائد أغلى من لآلي العيالمِ  
وأصبح عندي في عداد المحارمِ  
فأصبح عندي اليوم صرْبَةٌ لازمِ  
أعدُّ ولنطقي فيه مُهْجَةٌ ناظمِ  
ومن نوحه درّ الدموع السواجمِ  
دعاه إلى عيش من الخُلْد ناعمِ

(١) التفويف، من قوف: تقول ثوبٌ مُفَوَّق، أي رقيق.

ولو عَمَّرَ المخلوق عُمَرَ القشاعِمِ<sup>(١)</sup>  
وجادتْ ثرى مَثوَكِ سُحْبِ المراحِمِ  
وتعزِيَةٌ يؤسى بها قلبٌ واجِمِ  
ونسألُ رَبَّ العرشِ حُسْنَ الخواتِمِ

لعمرك هذي غاية الخلق كلهم  
حباك إلهي كل روح وراحة  
وإن لنا في نجلك اليوم سلوة  
يدوم لنا الشهم الأمين مؤيدا



ثم رثيت صديقي المرحوم أمين بك فكري، نجل العلامة المرحوم عبد الله باشا فكري،  
بهذه القصيدة، وكانت وفاته سنة ١٣١٦هـ.

### (فسبحان الحي الذي لا يموت)

وآمال عَزَّ أَنْ تَتَقَطَّعا  
من الشرق شطراً في منيته معا  
يلوح لنا أن مُزْنِها ليس مُقْلعا  
فلقي لعمري الجمع والفرد مصرعا<sup>(٢)</sup>  
فما أجدر الأرزاء<sup>(٣)</sup> أن تتنوعا  
إذا ساء لا يرتاد للعدر موضعا  
وأفسد من معنى وعطل مرجعا؟  
وراخا مجالات المراثي وأوسعا  
وتنقلب العليا بمارن<sup>(٤)</sup> أجدعا<sup>(٥)</sup>  
إذا شاء فيهم أن يُصِيبَ ويُفجعا  
على فائتٍ ولِينَعِ دهرُك من نعي

بقيَّة مجدٍ ودَّعتُ يومَ ودَّعا  
ولم تنعه الأيام إلا وأدمجت  
لقاد جادنا نوء الزمان مصائباً  
وسُبْحانَ مَنْ ساق الردى بوجوهه  
إذا شنَّ جيش النحاس في القوم غارة  
وما كنت حتى اليوم أحسب دهرنا  
ألم يكفه ما غال من كل غاية  
وضيق أرجاء الرجاء فسدها  
كذا فليجل الخطب وليفدح الأسى  
أجلٌ ويُجَلِّي الدهر للناس شأوه  
حلفت فلا تمرى النوادب عبرتي

(١) قشاعم، مفردها قَشَعَم: المُسنَّ من الرجال أو النساء أو النسور.

(٢) في ذلك الوقت استولى الإنجليز على السودان.

(٣) الأرزاء: المصائب الكبيرة.

(٤) المارن: (لغة) طرف الأنف، أو ما لان من طرفه.

(٥) الجَدْع: (لغة) قطع الأنف خاصة، ويريد بها المعنى المجازي، أي تنقلب العليا من فخرها إلى الذل.

فَهَيْهَاتَ مَا إِنَّ أُسْتَطَارَ لِفَاجِعٍ  
أَحْبَبْنَا إِنْ قِيلَ فِي الصَّبْرِ رُجْلَةٌ  
تَرَكْتَ لَكُمْ فَضْلَ التَّصَبُّرِ صَبْرَةً  
وَشَعَشَعَ كُؤُوسَ الدَّمْعِ بِالدَّمِ سَاقِيًا  
وَأَعْتَدْتُهَا نَحْوَ الْأَمِينِ خِيَانَةً  
فَمَا كَانَ وُدِّي لِلْأَعَزَّةِ ضَائِعًا  
حَمَلْتُ لَهُ بَيْنَ الصُّلُوعِ أَمَانَةً  
وَأَصْفَيْتَهُ مِنِّي إِخَاءً لَوْ أَنَّهُ  
وَمَا زِلْتُ لُرْعَاهُ عَلَى الْبُعْدِ صَاحِبًا  
فَإِنْ يَكُ هَذَا التَّرْبُ غَرَّبَ بَدْرُهُ  
وَلَا لَمَعْتَ تِلْكَ الْبُرُوقُ وَقَدْ خَبَتْ  
أَمَا فِي دُجَى الْخَطْبِ الْمَخِيمِ حَاجِبٌ  
قَضَى الْيَوْمَ مَنْ رَاعَ الْبَرِيَّةَ رِزْوَهُ  
وَلَمْ يَأْتِ فِيهِ الْمَوْتُ مَصْرَعٍ وَاحِدٍ  
أَصَابَ الْحَجِيَّ وَالْعِلْمَ وَالْحَزْمَ وَالْمُضَا  
وَمَا بَقِيَتْ فِي الْمَكْرَمَاتِ سَجِيَّةٌ  
فَلَوْ نَفَعَتْ عِنْدَ الْمَنُونِ شِفَاعَةٌ  
وَدَافِعَ عَنِ حَوْبَائِهِ طَيِّبُ الشَّنَا  
وَلَكِنْ دَاعِي الْمَوْتِ لَا يَقْبَلُ الرَّشِيَّ  
تَصِيدُهُ عَنِ سَاعِدِ الْغَدْرِ فَجَاءَةٌ  
مُصَابٌ لَهُ الْأَقْطَارُ إِذْ شَاعَ زَلْزَلَتْ  
أَذَلَّ إِبَاءَ الدَّمْعِ مِنْ كُلِّ جَامِدٍ

إِذَا كَانَ مَنْ أَوْدَى الْأَمِينَ الْمُشِيْعَا  
فَإِنِّي فَتَى أَبْنِي أَنْوَحَ وَأَجْزَعَا  
وَقَلْتُ لَطَرْفِي الْيَوْمَ لَا تَأُلُّ مَدْمَعَا  
فَكُلَّ شَرَابِ زَيْنُهُ أَنْ يُشَعَّسَعَا  
إِذَا أَنَا لَمْ أَشْتَفَ كَاسِكَ مُتْرَعَا  
وَمَا كَانَ قَلْبِي مِنْ أَخِي الْوَدِّ بَلْقَعَا<sup>(١)</sup>  
لَوْ أَحْتَمَلْتَهَا السُّمُّ مَالَتْ تَصَدُّعَا  
أَعَارَ اللَّيَالِي صَفْوَهُ رُقْنٌ مَشْرَعَا<sup>(٢)</sup>  
وَقَبْلِي نَجْمُ الْأَفْقِ مِثْلِي مَنْ رَعَى  
فَلَا زَهَّرَتْ تِلْكَ الْكَوَاكِبُ مَطْلَعَا  
بُرُوقُ أَمَانَ كُنَّ بِالْأَمْسِ لُمَعَا  
لِكُلِّ مَنِيرٍ أَنْ يَضِيءَ وَيَسْطَعَا  
وَلَيْسَ يُرَاعُ النَّاسَ إِلَّا لِأَرْوَعَا  
وَلَكِنَّهُ كَانَ الْمَصَارِعَ أَجْمَعَا  
وَصَدَقَ الْمَبَادِي وَالذَّمَامَ الْمُمَنَّعَا  
وَلَا خَطَّةٌ إِلَّا ثَوْتُ مَعَهُ مَضْجَعَا  
كَفَفْتُهُ فَرِيدَاتُ الْخِصَالِ مَشْفَعَا  
وَخَلَّدَهُ لَوْ أَنَّ فِي الْخُلْدِ مَطْمَعَا  
وَأَنْفَسَ مِنْهُ لَيْسَ يَلْقَى وَأَرْفَعَا  
فَكَانَ كَرَجِعَ الطَّرْفِ أَوْ كَانَ أَسْرَعَا  
فَلَا رَكْنَ لِلْعَلِيَاءِ إِلَّا تَزَعْرَعَا  
فَلَمْ يَبْقَ عَاصٍ مِنْهُ إِلَّا تَطْوَعَا

(١) بَلْقَعًا: هَا هُنَا بِمَعْنَى خَالِيًا.

(٢) الْمَشْرَعُ: مُورِدُ الشَّارِبَةِ.

ولم أر في الأرزاء أبعد غارة  
عشيّة لا في الناس مالكُ عبّرة  
عشيّة أب الناس سكرى وإنما  
عشيّة لم تُبقِ الفجيعة مُسكة  
عشيّة وارى الناس شمسا وأظلمت  
وقيل أمين المجد فاجاه الردى  
فكم من يد أضحت تدقُّ بأختها  
فإن يك وادي النيل أُسعرَ فقد  
كريم به لفظ الكريم مقصّر  
توحى طريق الخير محصّا كأنه  
له خُلُقٌ سهّلٌ ونفسٌ أبيّة  
وأقلام صدق راجع في ولائها  
ومن بعد عبد الله كان مؤملاً  
فما زال حتى أتبع الفرع أصله  
وما زال فقدُ البدر للناس موجعا  
فإن تطوه أيدي المنون فما طوى  
وإن تكن الأكفان بيضا نواصعا  
ألا في ذمام الله سيرك إنه  
سبقت إلى حوض كأنك ناهل  
ونازلت قرن الموت لا متهيّبا  
لأديك لاراجي الجواب فقد مضى  
أخلفت ثغرا بعد بُعدك باسمًا  
ولو ساكناتُ الأيكن يعلمن من نوى

ولا من قلوب الخلق أقرب موقعا  
ولا زفرات الصدر إلا تصنعا  
بما لم يكن يوما له الكرم منبعا  
ولا حزم للمحزون إلا مضيّعا  
لها الشمس حتى لا تُردّ بيوشعا  
فلا قلب إلا عاد نهبا موزعا  
وكم شفة باتت تجاور إصبعا  
فلا جبل في الشام إلا تضععا  
إذا قيل عن قوم كرام توسعا  
من المهد حتى اللحد جاء لينفعا  
وحسن خلالِ دونها الروض ممرعا  
لأكتب من أوتي لكتاب وأبرعا  
بأن لم يغيب ذا الأصل إلا وفرعا  
زمان لتنقاد الكرام تتبعا  
وفي الليلة الدهماء أنكى وأوجعا  
كرور الليالي ذكره المتضوعا  
فإن له من أبيض الذكر أنصعا  
مسير فتى ماضٍ أغدّ وأوضعا  
على نكظ<sup>(١)</sup> خاف الزحام فأهرعا  
وحسبك ألفاظ الشهادة أدرعا  
ويا لهف قلبي أن أقول وتسمعا  
وطرفا تمنى أن ينام ويهجععا  
لما نُحن إلا في رثائك سُجععا

(١) النكظ: محرّكة العجلة.



رجوناك للأوطان أحوج ما غدت  
فلم تسمح الدنيا ولم تعلم الوفا  
وما هذه الدار التي لفنائها  
متاع قليل ثم مأوى لحفرة

إلى من يرقبها وأوحش أربعا  
ولم تر إلا أن تغرر وتخدعا  
يسق ويهوى أن يمال وينزعا  
فماذا عسى الإنسان أن يتمتعا؟



وقلت أرثي اللغوي العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي وتلوتها في محفل كبير في بيروت،  
بعد الوحشة التي وقعت بيني وبينه بسبب شوقي (وكانت وفاته سنة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م).

قصار<sup>(١)</sup> كل فتى مستكمل الخطر<sup>(٢)</sup>  
وأن يقابل صرف الدهر كيف جرى  
وأن يرى غيره مع عينه سرعا<sup>(٣)</sup>  
فما أرى ناعيا حيا بمفرده  
ليس الحياة سوى تشيع آخرنا  
وأن تغيب المنايا في مواردها  
من سامحته يوم في مصارعها  
لم يبرح الدهر فتاك المضارب عن  
كفى برب المنايا واعظا وجزا  
تخالف الناس في الأهواء حين حيوا  
وقد يلج ببعض كيد شائيه  
وقد يحاول في أعدائه ظفرا  
كم وترت قوس صغن كف ذي ترة

أن ينحني لقضاء الله والقدر  
بالخلق في عبرات العين والعبر  
فليس بينهما فرق سوى الصور  
إلا نعى لو عقلنا سائر البشر  
لأول فهي هذي فسحة العمر  
فرب ترك يليه أخذ مقتدر  
فقد أحيل على أيامها الآخر  
أيامه البيض أو ليلاته السمر  
رُشدا لمن كان من دنيا على غرر  
وجمع الموت منهم كل منتثر  
ولو درى لصفا صفوا بلا كدر  
وأنه بين ناب الموت والظفر  
فأذهب الموت عزم الوتر<sup>(٤)</sup> والوتر<sup>(٤)</sup>

(١) القصار: الجهد والغاية.

(٢) الخطر: هنا، ارتفاع القدر.

(٣) سواء.

(٤) الوتر بالفتح، وبالكسر: الثار، وأما الوتر محركة: فهي جمع وتر، وهي مجرى سهم من القوس.

والدمعُ يغسل ما بالقلب من وَصْرٍ  
لو أنصف اليازجي دمعٌ لكان له  
أو لو دَرَتُ نار ابراهيم مصرعه  
أودى الردى حينما أودى بمهجته  
بذي الضياء تكاد العمي تبصره  
من بعدما خمدت ريح البيان غدتُ  
عبارة لا ترى في رصفها قلقًا  
لا تلتقي موضعًا فيها له بدلٌ  
بكت له اللغة الفصحى وحقّ له  
يا راحلاً شكّت الأقلامُ غربتهُ  
نهجتَ في بُلغَاء العصر واردة  
إليك حَقِّكَ لا ظلمٌ ولا سَرْفٌ  
وإن يؤاخذكَ نَقَادُ ببادرةٍ  
وقد يُعابُ الذي في البدر من كَلْفِ  
إليك مني تحيات برقتها  
فاذهب عليك سلامُ الله من رجلٍ

كما يزول غبار الأرض بالمَطَرِ  
كعلمه بحر دمعٍ غير مُنْحَصِرِ  
لأصبحت من جوى لَفَاحَةِ الشَّرَرِ  
بأكتب الوقت<sup>(١)</sup> من بدوٍ ومن حَصْرِ  
وذي البيان الذي يُشفي من الحَصْرِ<sup>(٢)</sup>  
له به دولة وضاحة الغُرَرِ  
كالعدل لم يشك من طول ولا قِصْرِ  
كأنما جاءت المعنى على قَدَرِ  
بكاء كلّ كلام جاء عن مُضَرِ  
وليس بعدك منها غير مُنْكَسِرِ  
بالحق لولاك لم تُسْفِر ولم تُنِرِ  
لا يُنكر الشمس إلا فاقد البصرِ  
فليس يُرْجَمُ إلا مُثْمِرُ الشَّجَرِ  
وليس يُسَلَّبُ معنى الحسن في القَمَرِ  
كسحر لفظك أو كالتفح في السَّحَرِ  
ماضي الحُشاشة لكن خالد الأثرِ



رثائي للمرحوم محمود سامي باشا، رئيس نُظَّار مصر قبل الاحتلال البريطاني وأمير الشعراء في وقته (توفي سنة ١٣٢٣هـ - ١٩٠٤م).

أهكذا عهدنا أن نحفظ الذمما؟  
على الصديق لما أنصفتماه لما

يا ناظري الأيا تبكيان دما  
لو صار كل سوادٍ منكما يَقَقًا<sup>(٣)</sup>

(١) بأكتب الوقت: يريد بها بأفضل كتاب العصر.

(٢) أصدر في مصر مجلة اسمها البيان، ثم مجلة أخرى اسمها الضياء.

(٣) اليق: الشديد البياض.

وطالما ذببتما شوقاً لرويته  
فالآن شطت نوى ما عندها أمل  
ماذا أقول لقلبي في الدفاع إذا  
ويلممها حسرة في القلب باقية  
لو أن لي طير يُمن ما صبرت لها  
ولا عداني عن الأحباب عادية  
ولا تخلفت عن مصرٍ ومقدمها  
ألوذ بالدمع كي أظفي اللهب به  
الآن حق بأن أسخو بأسخنه  
وما بكائي لخطب قد فقدت به  
لكن بكائي على المبكي بمصرعه  
ولو سبقت به الوراق ما لحقت  
والمجد مكتسباً من كفه حللاً  
والشعر أدرك ما أعى زهير وما  
خطب هوى بخباء الفضل فانحطمت  
نبا بمحمود سيف لو ضربت به  
مصيبة أرجفت صم الجماد فقل  
نتيجة الوقت لو آلى به رجل  
لو أنصفته الليالي في مقاسمها  
لو لم يكن فضله من حظه بدلاً

وخلتماها أمانى النفس والنعم  
في القرب فاكتحلا من بعده الظلما  
أقام قاضي الهوى ما بيننا حكما  
تظل تحت الثرى تستصحب الندما  
ولا تبدلت من بئزائها<sup>(١)</sup> الرخما<sup>(٢)</sup>  
ولا حثت لغير الصفوة الرُسما<sup>(٣)</sup>  
وقد غدت دارها من دارنا أمما  
فأستزيد كأني نافخ صرما  
إن المدامع يتلو حرها السبما  
وحدي خليلاً براني ففده ألما  
أهل المشارق بل من غيرهم أمما  
مناحتي صاحبيه السيف والقلما  
والفضل مُرتقياً في ظلمه أظما<sup>(٤)</sup>  
فات الكريم على علاته هرما  
أوتاده وغدت أطنابه رِمما<sup>(٥)</sup>  
حدّ الزمان بكف السعد لانثلما  
في الشارق انقضّ أو في الشاهق انهدما  
بأنه فدّ هذا الدهر ما أثما  
لأوطأته على هام السهى قدما  
ما سامه الدهر إرهاقاً ولا حرما

(١) البئزان، مفردها البازي: من الطيور الجوارح كالنسر، والجمع المستعمل له: بُزاة.

(٢) الرخم: طير كبير الحجم يقتات بالجيف، ولا جراءة فيه.

(٣) الرُسم: النوق التي ترسم أخفافها على الرمل.

(٤) الأطم: كل بيت مرتفع وبنء شاهق.

(٥) بكسر أوله، ويجوز بالضم.

أو كان للحقّ في تلك الأمور يد  
 ما كان يأمل إلا خير أُمَّته  
 فإن يَكُنْ طاش سهمٌ عن رميته  
 كمّ ساء أمر بحمل الجاهلين له  
 لا يُحسِن الأمر إلا من تَعَوَّدَهُ  
 وما نجاح الفتى كافٍ لتزكيةِ  
 والفضل والنقص محتومٌ لزامهما  
 ما زاد جوهر سامي الحكّ غير سنّى  
 وقلّما الدهر ناوى مثله أسداً  
 مهذبٌ لا ترى في خلقه عوجاً  
 لم يكفه النسب العالي فضمّ له  
 كان الأوائل في الأنظار مزعجة  
 وليس من نابت في عصرنا أدباً  
 ما الجاهليُّ ولا ذاك المخضرم لا  
 وكلّ نابغة في الشعر ملتئمٌ  
 لو جاء في الزمن الماضي وعاصره  
 أو كان أدرك عصرًا قد تقدّمه  
 يصطاد كلّ شروءٍ في قصائده  
 أو هت فصاحته الأقوال أمّنتها  
 وردّ فارسها في الجري راجلها  
 فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبةً

نجت به الحجّة البيضا وما أتّهما  
 ولا يرجي لها إلا عزيز حمى  
 فكّم ملوم على رمي سواه رمى  
 وربّما حلّ عقداً بعض من نظما<sup>(١)</sup>  
 ماكل راكب خيل يحفظ اللجّما  
 ولا الحبوط دليلٌ أنه وهما  
 كأنّ بين الرزايا والنهى رحما  
 ولا عرا قدره نقص بما اهتضما  
 ممّن رعى تلعات المجد والأكما  
 وصاحبٌ ليس يدري وُدّه السّاما  
 أصلاً وفصلاً لعمرى ما رسا وسما  
 حتّى أتى فشأى من جدّ من قدّما  
 إلا بغيث معانيه زكا ونما  
 ولا المولّد معه حائز قسّما  
 من كأسه رشفات كي يبلّ ظما  
 حكيم كندة<sup>(٢)</sup> لم يزعم بما زعما  
 عيّ حبيب عن الإنشاد معتصما  
 فليس بيتٌ له عن صيدها حرّما  
 حتّى تكاد عليها تُؤثر البكّما  
 حتّى تساوى أخو جهلٍ ومن علّما  
 معه وقولوا لشوقي إنّه يتّما

(١) أي إنّ المبدأ كان صحيحاً والحركة مستراداً لمثلها، ولكن الذين تولّوا كبر هذا الأمر لم يحسنوا جميعاً العمل.

(٢) أي لو جاء المتنبي في عصره ما ادعى النبوة، وكندة محلّة في الكوفة ولِدَ فيها المتنبي، فنسب إليها وقيل الكندي، وليس من كندة القبيلة التي منها امرؤ القيس الكندي والفيلسوف الكندي، فالمتنبي من جهة القبيلة جمفي، وهو جمفي بن سعد، العشيرة من كهلان.

مَن للبدائع أو مَن للصنائع<sup>(١)</sup> أو  
 مَن للصوارم أو مَن للمكارم أو  
 مَن للكتائب مَن للكتب تشبهها؟  
 يا يومَ محمودَ ما أبقيتَ محمّدةً  
 تلكَ الخِلالِ فهل أتِ يجدّدها  
 هيّئاتِ يسعدُها شهْمُ يُتاحُ لها  
 لن يهتدي بعدَ محمودٍ دليلُ ثنا  
 والله ما عجبني من فوته عجبني  
 وطالما قلتُ إذ جاد الزمان به  
 يا حيلة الشرق أضحى بعدها عُطلاً  
 إن كان لم تألُك الدنيا مُعاركةً  
 ما شاب منك بلاءٌ نيّةً خلصت  
 كَمُ قاصدٍ لم تعب مسعاه خيبتَه  
 ورُبَّ مسدي يدٍ يلقي البلاء بها  
 إنَّ التقادير إن أجرت سفائنها  
 لا تبعدنَّ ولا يُبخسُ ثناك فلم  
 والله لو كنت تدري ما بنا كمداً  
 ليس الذي جاوَر الديماس<sup>(٢)</sup> في نكدي  
 إن كان حبل حياة المرء أجمعه  
 فاذهب عليك تحيات المُهيمن ما  
 هانت بمصرعك الأرزاء أجمعها

مَن للوقائع إمّا داهمٌ دهما؟  
 مَن للمغارم يقضيها عن الغرما؟  
 تلك المحاسن أضحى عقدها انفصما  
 إلّا وأوردتها في نحبه العدما  
 أو هل ترى أمل العلياء بها حلماً  
 فالدهر ألامٌ من هذا الندى شيما  
 ولست تبصرُ هذا الجرح ملتثما  
 لمثله كيف حتّى الآن قد سلما  
 مَن علّم الدهر هذا الجودَ والكرما  
 وبيضة الدهر عن أمثالها عقما  
 فلست أول حُرٍّ صادف النقما  
 ومَن عزالك مَن ظلم فقد ظلما  
 وقائد لم ينل خزيًا أن انهزما  
 ورُبَّ جانٍ سعيد بالذي حزماً  
 ألحقنَ مَن كان غمراً<sup>(٣)</sup> بالذي حزماً<sup>(٤)</sup>  
 تجرّ إلّا إباء الصّيم والسّمما  
 لكنت أنت لنا الراثي ومَن رحما  
 كَمَن يزرّجى إليه الهمّ والسقما  
 أحبولةً كان خير الحبل ما انصرما  
 همى بتربك دمع المزن منسجما  
 فليس يُجزع من رزءٍ ولو عظما

(١) الصنيعة: الإحسان، والجمع الصنائع.

(٢) الغمر، بفتح أوله: الجاهل.

(٣) حزم، بضمّ وسطه: صار حازماً.

(٤) الديماس: القبر.

وقلت أرثي المرحوم محمد بك فريد، رئيس الحزب الوطني، المتوفى في ألمانة سنة

١٣٣٨هـ - ١٩١٩م:

قد عشتَ فداً في الرجال فريداً  
جاهدتَ عمركَ ثمَّ مُتَ مغرباً  
كانتَ حياتك حفظ مصر لأهلها  
جاهدتَ نصفَ العمر في أرجائها  
لله وقيتَ الأمانة حقها  
وأذبتَ في حسراتها كبداً<sup>(١)</sup> بها  
لم تدخر في حب مصر وأهلها  
ما عزَّ عندك أن تركت لأجلها  
ولذائداً ونفائساً أورثتها  
غادرته طفلاً وطال بك النوى  
لخلاص مصرٍ قد تركت مائراً  
كنتَ المتيمِّم والعميد بحبها  
كَمْ خطأوك وعاندوك وكلَّ مَنْ  
حتى تمخضتِ السنون حقائقاً  
علموا بأنك لم تكن متهوراً  
عمدوا لرأيك فانقلبت وتلك من  
لم تُحتضِر إلا ومصرٌ كلها  
فلشدَّ ما قرَّتْ عيونك عندما  
فانظر إلى مصر العزيزة بعضها

فقضيتَ فداً في البلاد فريداً  
فغدوتَ من كلِّ الجهات شهيدا  
ما غير ذلك مطلباً منشودا  
علمًا ونصفاً في الغروب شريدا  
وبذلتَ فيها طارفاً وتليدا  
أوديتَ تحرق من ذوبك كبودا  
وسعاً ولا جهداً هناك جهيدا  
وطناً وقصراً كالسدير مشيدا  
عنها صرفتَ وعيلاً ووليدا  
فحرمتَ منظره وصار رشيدا  
بيضا سهرت لها ليالي سودا  
فلذا لفتيتها غدوت عميدا<sup>(٢)</sup>  
يفري فريكَ<sup>(٣)</sup> لم يزل محسودا  
خرّوا لديها رُكعاً وسُجودا  
بل كنتَ تنظر مُذ نظرت بعيدا  
نعم الإله مؤيداً تأييدا  
لنظير صنعك تستحثّ وفودا  
حفَّ الجميع لواءك المعقودا  
مثل البريم<sup>(٤)</sup> ببعضها مشدودا

(١) لأنه توفى، رحمه الله، بمرض الكبد.

(٢) العميد الأول هو الذي هداه العشق، والعميد الثاني هو سيد القوم.

(٣) فري الفري، بتشديد الياء: أتى بالعجب في عمله.

(٤) البريم: خيط مفقول، له لوانان مختلطان أو أكثر، يستعمل لحاشية ثوب أو للزخرفة.

تمشي إلى التحرير لا هيابة  
صارت جميعاً دنشواي وإنما  
حاشا ولو جار القوي ولو طغى  
مهما استعزّ الغالبون بجندهم  
قد أقبل الزمن الذي أبناؤه  
نم يا فريدُ على يقينك إنه  
لا بُدَّ من فرَجٍ قريبٍ عنده  
ويُسِّرُونك بالخلاص إلى الثرى  
يبقى مع الأهرام ذكرك ثابتاً  
وهناك تنقلب المدامع قُرّة

خطراً ولا الموت الزوام مُبيدا  
صار الأنام عن الحمام مَصيدا  
أحرارَ مصرٍ أن تكون عبيدا  
فالحقّ أعظم قوّةً وجنودا  
لا يحملون سلاسلًا وقيودا  
يوم تأذن بالخلاص عتيدا  
مصرٌ تؤمُّ شخصك الملحودا  
أن قُمْ وشاهدِ يومك الموعودا  
ويظلّ قبرك مثلها مشهودا  
ويعود مَأتمك المُفجّع عيدا



رثاء نظمناه في جنيف، في ١٨ مارس سنة ١٩١٩، وبعثنا به إلى ابن عمنا المرحوم  
الأمير توفيق مجيد أرسلان، لدى علمنا بوفاة ولده ملحم وكان نجيباً، وذلك بعد أن رجع  
من منفاه في الأناضول:

لقد كنت أرجو أن تعود وتغنما  
وتعتذر الأيام عما تحاملتُ  
فما راعني إلا مصابك تاركاً  
وسهم تلقاه فؤادي وإنه  
أجل لم تزل حتى أصبتَ (بملحم)  
مُصابٌ تشاظرناه طراً فكلنا  
رأينا عظيماً قبله حادث النوى  
وكنّا نرجي فرحة بزفافه

وتنسى عناءً قد مضى وتصرّما  
عليك ويمحو اليوم ما الأمسُ قدّما  
ليالي أياماً ويومي مُظلماً  
لآلم ما لاقى نبالاً وأسهُما  
فتفتتاً حتى الموت تذكر ملحمنا  
يُبكي على مفقودك الدمع والدمنا  
لعمري فجاء البينُ أدهى وأعظماً  
فواحسرتنا اعتضنا من العرس مَأتما

وصارت به تلك التهاني مراثياً  
فتى لم يكن إلا بأعوامه فتى  
تقبل بالصبر الجميل بلاءه  
تحمل من بلواه وهو مراهق  
كان الذي فيه من العقل قد أتى  
فأي فؤاد لا يذوب لمثله  
أوفيق ثق ما أنت في الخطب واحداً  
وإن كنت مجروح الفؤاد فكلنا  
تناثر دمعي فوق طرس أخطه  
يُخيل لي مبكاك عند وداعه  
مضى وبقيت العمر تذكر فقد  
مضى ولو الماضي يُهنا على الردى  
فما هذه الدار العزيزة عندنا  
إذا سبر الناس الأمور بدت لهم  
فكم فرح فيها بخير أصابه  
وكم نعمة تبدو وترجع نقمة  
عزاءك يا ابن العم هل ثم حيلة  
ومثلك من قد غلب العقل والحجى  
رجوت إلهي في بنيك الألى بقوا  
ويملاً مراهم عيونك قرة

وناح الذي قد شاء أن يترنماً  
فقد كان في عقل الرجال وأحلماً  
وحلى بشهد الطبع ما كان علقماً  
لعمري ما لو حلّ طوداً تهتما<sup>(١)</sup>  
لنزداد فيه حسرة وتألماً  
وأي سرور لا يكون محرماً؟  
ولكنه حزن علينا تقسماً  
غدا لك مجروح الفؤاد مكلماً  
لذاك غدا ثري ونظمي توأماً  
خيالاً على بُعد الديار مجسماً  
فيا ليت شعري من تروح منكما  
لقلت له اضحك ضاحكاً متبسماً  
بأهل لعمرى أن تعزّ وتكرماً  
حقائق لا تبقي فؤاداً متيماً  
يعود عليه حسرة وتندماً  
وغنم قوم عاد من بعد مغرماً  
تصدّ بها ذاك القضاء المحتماً؟  
على حسه عند المصاب وحكماً  
بأن يسلموا في جانبيك وتسلماً  
ويغدوا بدوراً في البلاد وأنجماً

(١) إشارة إلى مرض أليم أصابه في رأسه، وتحمله بصبر الكبار، رحمه الله.



رثاء للمرحوم الأمير عبد القادر، نجل جناب الخديوي عباس حلمي، توفاه الله إلى رحمته في ٢٠ إبريل سنة ١٩١٩ [عن ١٦ عامًا]، وذلك في برلين، وكنا حينئذٍ في مونترو من سويسرة نازلين في فندق مونترو بالاس، وكان في الفندق نفسه جناب الأمير محمد علي، عمّ الأمير الفقيه، فعزّيناه بالأبيات الآتية<sup>(١)</sup>:

أسائل<sup>(٢)</sup> دمعي هل غدوتُ مُجيبِي  
وهيّهات أن يقوى على النار صَيَّب<sup>(٣)</sup>  
لئن بكتِ الحنساءُ صخرًا فإنه  
يقولون لي صبرًا فقد ذبتُ لوعةً  
أحسب قلبي من حديد وإن يكن  
وقالوا ألا مهلاً تأسّ بمن مضوا  
فقلت ذروني والأسى ليس مغنيًا  
أجلّ مقامِي في المحبّة والوفا  
ورُبّ مُحِبٍّ بات يسلو حبيبهُ  
أفي كلّ يومٍ للمنيّة حادثُ  
تعمّدنا ريبُ المئون بضربةٍ  
أصبنا (بعبد القادر) اليوم إذ غدت  
هوى كوكبا باتت لوقع غُروبِهِ  
هوى كوكبا كالبدر تمّا وإن غدا  
فقلّ أيّ وجدٍ في الجوانح مُحرقُ

إذا شئتُ أطفئ حرقتي ولهيبِي؟  
وريحُ الرزايا أذنتُ بهبوبِ  
لقد بات يبكي الصخرَ طولَ نحيبِي  
وما ذوب مثلي في الأسى بعجيبِ  
فكمّ من شرارٍ للحديد مُذِيبِ؟  
فليس مُصابٌ جازعٌ بمُصِيبِ  
كلام خطيب مع كلام<sup>(٤)</sup> خُطوبِ<sup>(٥)</sup>  
عن اللهو والسلوان بعد حبيبِ  
ألا تلك أجسامٌ بغير قلوبِ  
يُسيل من الأجنان كلّ صليبِ؟  
أبى الدهر أن يأتي لها بضريبِ  
تناط به آمالُ كلّ لبِيبِ  
جميع المآقي مترعات غُروبِ<sup>(٦)</sup>  
قريب المدى من مشرقٍ لمغيبِ  
على أيّ غصنٍ في التراب رطيبِ؟

(١) نُشرت في جريدة الأهرام، بتاريخ، ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٣، تحت عنوان "رثّة النوح".

(٢) يجوز أن يكون أسائل بمعنى أسأل، ويجوز أن يكون اسم فاعل من سال. وعلى الوجه الأول الفعل المضارع مرفوع، وعلى الوجه الثاني الاسم المنادى منصوب.

(٣) الصَيَّب: السحاب ذو المطر.

(٤) كلام، الثانية بكسر أولها، جمع كلم: وهو الجرح.

(٥) خطيب وخطوب (بلاغياً): جناس.

(٦) الغروب، الأولى: جمع غرب، ومعناه الحلة. تقول: كفكفت من غربه. والغروب، الثانية: جمع غرب، وهو الدمع أو هو عرق في العين يسقي ولا ينقطع.

لئن لم يجاوزُ ستَّ عشرةَ حِجَّةٍ  
قرأت له كتبًا قُبَيْلَ نَعْيِهِ  
أبى نَكَدُ الأيامِ إلا أفوله  
وكان الذي لو عاش أحيا جدوده  
عزيزٌ نماه عرشُ مصرٍ وقد قضى  
من العلويين الأعظم فضلهم  
يُرَجِّيهم الإسلام في كلِّ مازق  
قضى العدل أنا في الكوارث كلها  
سألت لهم طول البقاء وسيلةً  
ورفعةً أوطان وعِزَّةً مِلَّةً

لقد جاز في الإدراك أهل مَشِيبِ  
بأمثالها يختال كلُّ أديبٍ<sup>(١)</sup>  
وهل تؤثر الدنيا حياةً نجيبٍ؟  
وأمسى بوادي النيل كلَّ خصيبِ  
مَنِيَّةً ناءٍ في البلاد غريبِ  
على كلِّ قاصٍ عنهم وقريبِ  
وفي كلِّ يومٍ للزمان عصيبِ  
نشاطر من أحزانهم بنصيبِ  
لنصرة أقوامٍ لهم وشعوبِ  
وَكَبْتُ عدوَّ كاشِحٍ ورقيبِ



وقلت أرثي المرحوم أحمد مختار بيهم، عين أعيان بيروت في وقته، وكانت وفاته سنة

:١٩٢٠

هلاً وأنت الجوهر المختارُ  
وتكون عن دار العلى متأخرًا  
سأبقتَ في الدنيا إلى ما بعدها  
أبقيتَ من غرر الفعّال مآثرًا  
وتركت من ظلم الحياة لياليًا  
إلا تكن تلك الحياة طويلةً  
أو كنتَ ودّعتَ الأحبَّةَ عبطةً<sup>(٢)</sup>  
كَم في الشباب الغَضُّ منك كُهولةً  
سرعان ما اخترتَ الرحيل أشدَّ ما

عن نَيْلٍ مثلك تصبر الأقدارُ  
وإلى العلاء لك السباق شعارُ  
وكذا الفناء إلى البقا مِضمارُ  
أليوم هُنَّ براحتيك منارُ  
هي عند ربك كلّها أسحارُ  
فلقد يساوي العامَ منك نهارُ  
بكرًا فعُمْرُكَ وحده أعمارُ  
وعليه من دون المشيب وقارُ  
احتاجت لك الأوطان والأوطارُ

(١) كان عمّه الأمير محمد علي، قرأ لي بعض كتب من الشاب الفقيد، رحمه الله.

(٢) أعبطه الموت: أخذه شابًا صحيحًا بدون علة.

لو لم نكن ندرى وفاك وإته  
لبيت من ملأ الملائك داعياً  
وجدوك أجدر بالجنان وشاقهم  
غارت من الأرض السماء نفاسةً  
فازت بك الخضرا لذا غبراًونا<sup>(١)</sup>  
لا غرو أن نرزا بفقدك ماجداً  
أو أن تكون لسهم دهرك معرضاً  
ما كان خطبك سيداً قد غاب بل  
قد كنت في الأوطان قبلة معشر  
كانوا إذا ما أبصروك أمامهم  
ذكروا مكان أبيك في أيامه  
فحدوث حدو أبيك بل جاوزته  
لم تجتزي بتليد مجدك عالماً  
فنهضت للعليا بنفسك طالعاً  
أمسيت في العرب الكرام منارةً  
بعزائم مشبوبة ومكارم  
كانت خلالك في الأنام فريدةً  
لم يقصر المداح فيك وربما  
أهمة القعساء يربض تحتها  
تلقي الخطوب بقلب شههم عنده  
حرمت بلادك في مصابك واحداً

أجل لقلنا جفوة ونفار  
فوراً وشأنك في الأمور بدار<sup>(١)</sup>  
يوم تجاورهم ونعم الجار  
بك والضرائر بعضهن يغار  
تبكي نواك ودمعها أنهار  
فبكل مجد للمنية ثار  
هدفا فأغراض الكبار كبار  
جمعاً يضيع وجانباً ينهار  
يهدوك هديك إن سروا أو ساروا  
رشدوا وإن ضلوا سيالك حاروا  
علماً إليه بالبنان يشار  
إن البنين لأهلهم أسرار  
إن الرجال إذا مضت أخبار  
أنجادها والفضل ليس يعار  
تعشو لضوئك يعرب ونزار  
عنهن بيعان<sup>(٣)</sup> الكرام قصار  
بنظيرها تستطرف الأشعار  
سكت اللسان وقالت الآثار  
جاش بركن ذراه ليس يطار  
أبداً كبار الحادثات صغار  
هو في الحقيقة جحفل جرار<sup>(٤)</sup>

(١) بادر (إلى الأمر) بداراً: أسرع.

(٢) الخضراء والغبراء: السماء والأرض.

(٣) بيعان، مفردها باع: قدر مدّ اليدين.

(٤) الجحفل الجرار: الجيش الكثير عدّة وعدداً.

أَتَخَيَّلُ الأَرْجاءَ بَعْدَكَ قَدْ خَلَّتْ  
 لا الثَّغْرَ ثَغْرًا إِذْ غَدَوْتَ بِرَمْلِهِ  
 أَغْزِرُ عَلِيَّ أَبَا أَمِينٍ أَنَّهُ  
 قَدْ كُنْتَ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ وَإِذْ بِهِ  
 قَدْ كُنْتَ طَوِيلَ البُعْدِ نُصِبَ نَوَاطِرِي  
 أَبَدًا أَطَارِحُكَ النُّجَيَّ<sup>(٢)</sup> كَأَنَّنَا  
 مَا مَرَّ عَنْ بِيروْتِ سَانِحِ خَاطِرِ  
 أَوْ لَا تَكُونُ كَذَا وَأَنْتِ بِأَرْضِهَا  
 أَغْزِرُ عَلِيَّ أَبَا أَمِينٍ إِنَّنِي  
 سَدَّكَ<sup>(٣)</sup> البِكَاءَ بِمُقَلَّتِي فَأَدْمَعِي  
 أَغْزِرُ عَلِيَّ بِأَنْ مَضَيْتَ وَلَمْ تَزَلْ  
 وَالنَّاسَ شَائِمَةً بِوَارِقٍ لُمَعًا  
 يَتَذَكَّرُونَكَ كُلَّ حِزَّةٍ مَأْزِقِ  
 إِذْ سَيْفِ رَأْيِكَ فِي الحِوَادِثِ فَيَصِلُ  
 وَمِنَ القُلُوبِ مَعَاصِمٌ وَمَعَاقِلُ  
 قَدْ كَانَ عَهْدُكَ لِلرِّفَاقِ: تَذَكَّرُوا  
 حَقَّ البِلَادِ بِأَنْ تَكُونَ لِأَهْلِهَا  
 أَوْطَانِنَا فِي الأَرْضِ خَالِصَةً لَنَا  
 لَا تَبْعُدَنَّ فَإِنْ تَغِبَ يَا أَحْمَدُ

فكأنما تلك الربوع قفارُ  
 رهن الضريح ولا الديار ديارُ  
 أملي بقربك عاد وهو بوارُ  
 ما بعد ذياك العشيِّ غرارُ<sup>(١)</sup>  
 ويرى الفؤاد ولا ترى الأبصارُ  
 رغم المساوفِ كلِّها سمارُ  
 إلا ومثل شخصك التذكارُ  
 قُطِبَ الرِّحَى وَعَلَى القُطُوبِ يُدَارُ  
 أرثيك نظمًا والدموع نثارُ  
 بهما غزارُ والرُّقَادِ غِرَارُ<sup>(٤)</sup>  
 تلك المنى وفنيقهنَّ<sup>(٥)</sup> حُوارُ<sup>(٦)</sup>  
 تخبو وتومض والقلوب حرارُ  
 ولدى الحنادس<sup>(٧)</sup> تُنشدُ الأَقْمَارُ  
 وندى يمينك ديمةٌ مدرارُ  
 ومن العقول أسِنَّةٌ وشِفَارُ  
 حقَّ البلاد وأنكم أحرارُ  
 ملكًا صريحًا ما عليه غبارُ  
 نحن الطيورَ وهذه الأوكارُ  
 تحت الثرى فلأحمد أنصارُ

(١) إشارة إلى قول الشاعر:

تمنع من شميم غرار نجد

(٢) النجى والنجوى واحد

(٣) سدك به: لزمه.

(٤) غرار: قليل النوم.

(٥) الفنيق: وزان أمير الجمل المكرم لا يركب.

(٦) الحوار: ولد الناقة مذ يولد إلى أن ينظم.

(٧) الحنادس: الظلمات.

فما بعد العشية من غرار

لاحت تباشير الخلاص وإنما  
ضلّ الألى حسبوا البلاد غنائما  
والطامحون إلى الفرات ودجلة  
والبائعون القدس رهط صيارفٍ  
قد كان أمّ بلادنا آباؤهم  
لو يذكرون من الحوادث ماضيًا  
لكنّهم أمنوا الزمان كأنّما  
وتوهّموا تلك العصور وقد خلّت  
كلا وربّك ما أصابَ حسابهم  
إنّ الزمان هو الزمان تقلّبا

يبدو الصباح وقبْلَهُ الإسفارُ  
تلك الجنانُ جنانُ جلق نارُ  
مجرى الفراتِ ودجلة تيارُ  
ما للصيارفِ عندنا دينارُ  
أمّما فلاقى ريحهم إعصارُ  
ما غرهم لمقامنا استحقارُ  
بين الزمان وبينهم آصارُ  
ليست تُعأ وما لها تكرارُ  
ولكلّ قومٍ نهضةٌ وعِثارُ  
ما دام إلا الواحدُ القهارُ



مرثيتي للأخ الأبرّ والأستاذ الأشهر الشيخ عبد العزيز جاویش، أرسلتها من لوزان إلى  
مصر، وتلّيتُ في حفلة الأربعين لوفاته، رحمه الله، سنة ١٣٤٧:

لم تُبقِ بعدك في الخطوب جليلاً  
خلفتَ للإسلام أيّ مناحةٍ  
في كلّ أرضٍ نصراً فيها منبرٌ  
يتذكرون مواقفاً مشهورةً  
وماثراً في الخافقين حديثها  
ما العبقريّة والتي يصفونها  
ألخاطر الوقاد إن يبدر مضي  
والمنطق الفيّاض إن يهدرُ غدا  
لا فرق بين السامعين وقد وعوا

مُد شئتَ يا عبد العزيزِ رحيلاً  
طمّمتُ وعمّمتُ عرّضه والطولا  
يتذكرونك بُكرةً وأصيلاً  
لك ليس تترك للمراءِ سبيلاً  
ومعالياً رنتِ حلّى وحجولا  
إلا حياتك مُثلّت تمثيلاً  
في الحادثات أسنّةً ونصولا  
يتدفّقُ الإبداعُ منه سيولا  
ما قلته والشاربين شمولاً<sup>(١)</sup>

(١) الشّمول: الخمر.

وَإِذَا جَرَزْتَ عَلَى الطُّرُوسِ يِرَاعَةً  
تلك اليراعة وَدَّ أكبر قائد  
تتجاوب الآفاق عن أصدائها  
هَيْهَاتَ يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ أَخُو عَلِيٍّ  
لم يعلم الخُلُقَ الكَرِيمَ وَلَا الْحَيَاةَ  
لم يعلم الآدابَ كَيْفَ تَجَسَّمَتْ  
فَكَأَنَّ رَبَّكَ عِنْدَ خَلْقِكَ قَدْ أَبِي  
تغدو أرقّ من النسيم فإن عزا  
في نعمة الحمل الوديع فإن عدا  
أسد متى يزأر لأُمَّةٍ أَحْمَدِ  
شِيحَانٍ لَمْ يُبْصِرْ عَلَيْهَا ذَلَّةً  
رضي المصائب والنوائب والنوى  
يعفو الجرائر نحوه طراً ولا  
جعل الجهاد نصيبه عن قومه  
لا تعظم الأخطار في أبصاره  
يا راحلاً أبقى فراغاً هائلاً  
آليت لا أنفك عهدك راعياً  
غادرت لي قلباً عليك مقطّعا  
وسألتُ دمعِي أَنْ يُجِيبَ جَوَانِحِي  
أَنْسَى لَعْمَرِي وَالذِّيَّ وَعِترتي  
إِذْ أَنْتَ بَرٌّ بِي كَمَا نَفْسِي وَإِذْ  
إِنِّي أَحْنُ إِلَى اجْتِمَاعِ الشَّمْلِ فِي الْأُخْرَى كَأَنَّ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى

بات الصريرُ براحتيك صليلا  
لو أنها في كفه ليصولا  
ويرتلون فصولها ترتيلا  
مِنْ دَرَكِ شَأْوِكَ يَبْلُغُ الْمَأْمُولَا  
مَنْ لَيْسَ يَعْلَمُ خُلُقَكَ الْمَعْسُولَا  
بَشَرًا فَتَى لَمْ يَصْطَحِبْكَ طَوِيلَا  
أَنْ لَا تَكُونَ مَكْمَلًا تَكْمِيلَا  
خَطْبُ غَدُوتِ الصَّارِمِ الْمَسْلُولَا  
عَادٍ تَرَى أَسَدًا يُفَارِقُ غِيْلَا  
مَلَأَ الْفِرَاتَ زَيْئِرُهُ وَالنُّيْلَا  
إِلَّا وَمَدَّ ذِرَاعَهُ الْمَفْتُولَا  
وَالْحَبْسِ حَتَّى لَا يَعِيشَ ذَلِيلَا  
يَعْفُو إِذَا الْإِسْلَامُ غُضَّ فَتِيلَا  
فَقَضَى الْحَيَاةَ مَغْرَبًا مَجْفُولَا<sup>(١)</sup>  
مَا دَامَ يُبْصِرُ حَقَّهُمْ مَأْكُولَا  
هَيْهَاتَ تَمْلَأُهُ الرِّجَالُ فَحُولَا  
حَتَّى أُغْرَبَ فِي التَّرَابِ مَهِيلَا  
دَامِي الصَّمِيمِ وَمَدْمَعًا مَوْصُولَا  
فَانْبِعَاجٌ يَجْرِي سَائِلًا مَسْئُولَا  
إِنْ كُنْتَ أَنْسَى فَضْلَكَ الْمَسْجُولَا<sup>(٢)</sup>  
تغدو عليلاً أن أكون عليلا  
إِنِّي أَحْنُ إِلَى اجْتِمَاعِ الشَّمْلِ فِي الْأُخْرَى كَأَنَّ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى

(١) جفله: نقره.

(٢) سجل الماء: صبّه.

أتركت بعدك مَنْ أَعَدُّ خَلِيلًا؟  
أتركت مثلك يَاسِرًا فَيُجِيلًا؟  
والسيف يكسب بِالْجِلَادِ فُلُولا  
تجد الصعود إلى السَّمَاءِ نُزُولًا  
هَيَّهَاتَ قَد صَارَ الْبَقَاءُ قَلِيلًا  
(عبد العزيز) مُتَيِّمًا مَتَبُولًا  
واجعله رَبًّا لَدَى عِلَاكَ نَزِيلًا  
فَأَثْبَهُ فِي دَارِ الْمَعَادِ جَمِيلًا

رَبَّ الْوَفَاءِ وَصَفْوَةَ الْخِلَآنِ قُلُّ  
يَا صَاحِبَ الْقَدْحِ الْمَعْلَى فِي الْعُلَى  
أَبَقْتَ عَلَيْكَ الْحَادِثَاتِ كُلُّومَهَا  
شَفَّتْ وَجُودَكَ هَمَّةَ جَبَّارَةٍ  
أَتَظُنُّ أَنْ تَمْضِي وَأَبْقَى وَافِرًا  
يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى بِحَبِّكَ قَدْ مَضَى  
أَمَطَرَ عَلَى ذَاكَ الثَّرَى غَيْثَ الرِّضَى  
قَد كَانَ فَعَّالَ الْجَمِيلِ حَيَاتِهِ



ولما اطلعت على مرثية شوقي للشيخ جاويز أعجبتُ بها، فارتجلت هذه الأبيات،  
وقد نشرت في جريدة الشورى:

جميعًا فكلّ يتيم فريد  
تعود بكلّ طريف جديد  
إلا إنّ ذلك بيت القصيد  
وإنّ هو غنى فأنسُ الوجود  
لهنّ سجلّ بلوح الخلود  
بعبد العزيز: العزيز الشهيد  
فأصبح هذا لهذا نديد  
بشأو مُحال عليه المزيد  
تكون المنايا أمانى الفقيّد

تفوّق شوقي بأشعاره  
وما دمت تجتاز أرجاءها  
توالى الهتاف لدى كلّ بيت  
إذا هو أبكى فزاد المعاد  
ولكن قصائد شوقي اللواتي  
فداءً لمرثية قالها  
أعار الرثاء جلال الفقيّد  
وقد كان من قبل هذا مُبينًا  
تكاد لإحراز أقوال شوقي



ورثيت صديقي، عين أعيان جبل عاملة، ومبعوث بيروت في مجلس النّواب، كامل  
بك الأسعد، رئيس آل علي الصغير، وكانت وفاته، رحمه الله، سنة ١٣٤٣:

هوى لفقْدك ركن الشرق واحرباً<sup>(١)</sup>  
كلّ المصائب يفني الدهر شِرتها  
كنا نرجيك للجلى تذللها  
تلقى النوازل بالأفعال صادقة  
ردت مُصيبتك الأرزاء هينة  
هيهات تذخر الآماق سائلة  
لو كنت مع حاتم الطائي في زمن  
تذاك بالعين مشهود ونائله  
قد كنت تهوى من الأخلاق أسمحها  
لله درك سباقاً لمكرمة  
يا أمّة سكنت أكناف عاملة  
هل عندكم قومنا عن كامل خبر  
اللامع الرأي إن يدج الزمان بكم  
كانت عيالاً عليه منكم زمر  
كانت بكاملهم أرجاء عاملكم  
قالوا عميد بني النصار قلت لهم  
لو أنصفت حقه أفناء عاملة  
لهفي على كامل الأوصاف كيف ثوى  
لهفي على البدر قد غابت مطالعه  
لهفي على السيّد الغطريف تحريمه

يا كامل من يسلي بعدك العربا  
إلا رداك فيفني الدهر والحقبا  
فاليوم من ينبري للخطب إن وثبا  
والناس في الخطب تُسدي القول والخطبا  
من بعدها وغدت أكبادنا صلبا  
من المدامع تبغي بعدك الصببا  
ما نال في الكرم الاسم الذي كسبا  
هيهات نعلم منه الصدق والكذبا  
لقاصدٍ ومن العلياء ما صعبا  
كالسيف منصلتا والسيل قد زعبا  
وأوطنت شعفات العز والهضببا  
فقد أتانا نبا أن قد نأى ونبا  
والخالف الغيث إن تستبطئوا السحبا  
من كان منهم يتيماً راء<sup>(٢)</sup> فيه أبا  
تتية عجبا على الدنيا ولا عجبا  
بل ركن كل امرئ في يعرب انتسبا  
من البكارق فيها الصخر وانتحبا  
ذاك الموحيا ظلام الرمس واحتجبا  
لهفي على البحر ذي الأمواج قد نصبا  
طوائف طالما استكفت به الثوبا

(١) واحرباً: كلمة للتفجع. وا: حرف نداء مختصر بالندبة.

(٢) راء مثل رأى منه: بك راء نفسك لم يقل لك هاتها.



لهفي على الكامل الفذ الذي فقدت  
على الذي لو قضيت الدهر تصحبه  
تقرا على وجهه آيات شيمته  
أخ أشدُّ به أزري لنائبة  
في كلِّ يومٍ أرى منه أختة  
كَمْ كنتُ أملُ أن أحظى بطلعته  
كَمْ كنتُ أذكره في غربتي كلفاً  
حتى أتاني نعيٌّ غيرُ مُنتظرٍ  
ويُلمُّها جملة لما بصرتُ بها  
من لي بأن أمسك الدمع الهتون على  
مهلاً بني الأسعد الأمجاد خطبكم  
تبكي له العربُ العرباء أجمعها  
ولو عقدنا عليه كلَّ شارقةٍ  
لكنَّما الموت حتم لا يحيك به  
زعمتُ أني أعزبكم بموعظتي  
وإنما نحن طراً ركب قافلة  
يا ربَّ أمطرِ ثراه كلَّ غاديةٍ  
آتيته كرمَ الأخلاق منقبةً

به الوري المثل الأعلى لمن وهبا  
لم تلقَ إلا الوفا والصدق والأدبا  
وتنشني قائلاً سُبْحان مَنْ كتبنا  
ولا أعزُّ عليه إخوتي نسبا  
إذ مَنْ سواه أرى الحُساد والرُّقبا  
يوماً وأطفئ من أشواقِي اللهبنا  
أحدو إلى وجهه الوضاح ربح صبا  
ألفيتُ ناضر آمالي به حطبا  
خلتُ المنايا أمانِي والحياة هبا  
خدي وأن أدرك النوم الذي هربا  
خطب به الوطن المحبوب قد نُكبا  
من ساكن مدرّاً أو ضارب طنبنا  
مناحة ما قضينا بعض ما وجبا  
حزن ولا عارض للدمع مُسكبا  
فيا ترى مَنْ يُعزِّيني بمن ذهبنا  
وكلنا شارب الكأس الذي شربنا  
تَحْضَلُ منها بقاعٌ حوله ورُبِي  
فكُنْ كريماً عليه ربنا حدبنا



رثائي للمرحوم أخي نسيب، المتوفى في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٦:

رؤيا تنهى بها دُعري وإجفالي  
مواج ما بين إدبار وإقبال<sup>(١)</sup>

نسيب قد كان ساري الطيف أبدى لي  
رأيت في دارنا الأفواج أشبه بالأ

(١) رأيت هذه الرويا قبل أن جاءني نعيه بليلة.

فقلت والبال مني كاسف قلقاً  
وما مضت ساعة إلا أذنت بها  
غدت عليّ سلوكُ البرق ناقله  
تلك التعازي التي الأخوان تبرقها<sup>(١)</sup>  
أيقنتُ حقاً بأنني قد فقدتُ أخي  
أيقنتُ أنك بعد اليوم مُغترب  
شعرتُ إذ ذاك أن لا أزرَ ينهض بي  
كأنني في فلاة لا أنيس بها  
نسيبُ غادرتني من بعد بُعدك في  
لك الخلاص من الدار التي طُبعتُ  
قد كنت أطمع أن ألقاك والهفي  
حتى أتاني نبأ قد ردَّ لي أملي  
لم يبقَ لي بعد ذلك النعي من أمل  
أبكيك في غربتي مُضنى نوى وتوى  
أبكيك حين ألقى الناسَ مجمعةً  
هم يعرفونك من قد كنت معرفتي  
ما كنت تعدو ولا تبغى على أحدٍ  
ولا ذكرت امرأة يوماً بمنقصة  
لم تعرف الكبر في قولٍ ولا عملٍ  
فيك التواضع خلقٌ ولا تكلفه  
ولم تكن لجميع الناس متضعاً  
لك المزايا التي الأقوام تحسدها

مستقبلاً من حياتي كلّ ذي بالٍ  
مُصيبة حَقَّقتْ خوفي وأوجالي  
نبأ يقطع أسلاكي وأوصالي  
وذو المدامع منها كلّ هطالٍ  
ومن أرجي لأهوالي وأوهالي؟<sup>(٢)</sup>  
عني ولست مجيباً بعدُ تسألني  
وأني رازحٌ من تحت أثقالني  
والأرض صارت جميعاً ربعا الخالي  
عيشٍ تبدلَ آلامي بأمالي  
على الشقاء، ولي حزني وإعوالي  
ولو تطاول بي حلِّي وترحالي  
واحسرتي أمل الظمان في الآلِ  
إلا بدمعٍ طوال الليل سيالٍ  
بالبعد والموت فانظر أيَّ إذلالٍ  
تبكي بكائي من دان ومن عالٍ  
فما يُزكّيك إلا شاهدُ الحالِ  
ولا تُغير عليّ عرضٍ ولا مالٍ  
يا أبعده الناس عن قبيلٍ وعن قالٍ  
كلا ولا سرتَ يوماً سيرٍ مُحْتالٍ  
وأنت تلبس منه ثوب إجلالٍ  
إلا على ثقة في النفس والآلِ  
وما انشغلت بحسّادٍ وعُدالٍ

(١) أول برفقة جاءتني هي من شيخ العروبة أحمد زكي باشا، رحمه الله.

(٢) الوهل: الفرع.

لو كانت الناس في الدنيا نظيرك لم  
ما كنت تنشد في الأعمال محمداً  
بل تلك عاطفة النفس التي طُبعتْ  
وكنتَ في الشعر فذاً لا يُشَقَّ له  
لك القوافي التي أعيتَ نظائرها  
كَمْ من شروءٍ لعمرى قد جررت بها  
لها من الحَضْر الأكياس رقتهم  
أدركت في اللغة العرباء منزلة  
كَمْ يدعي الشعر قوم لو وُزِنَتْ بهم  
قد يفقد الناس حقاً في تواضعهم  
وكَمْ مجال به بان السكيت<sup>(١)</sup> على  
يعطيك حقك دهر لن تضيع به  
ما مرَّ ذِكْرُكَ في نادٍ وحاضره  
ذِكْرُكَ باقية في الناس سائرة  
إن طالما كانت الأحزان زائلة  
جرح أتى حين شمس العمر قد دلفت  
ولوعة البين لا تنفك تسفعُ في  
يا غرب لبنان ألقِ السمع وابكِ على  
فلم يعد في أندمال الجرح من أملٍ

تحتج لعمرى لحكامِ وعَمالِ  
ولا تُبالي بألقاب وإبجالِ<sup>(٢)</sup>  
على الجميل لغير الجاه والمالِ  
أدنى غُبار وتُعيي ناره الصّالي  
نوابغ الشعر أهل الشَّيح والضالِ<sup>(٣)</sup>  
على جرير القوافي فضل أذبالِ  
في لفظ بادية رُود أطلالِ  
لها على كلِّ فحل كلِّ إدلالِ  
هدرت بحرًا وساحوا سيح أوشالِ<sup>(٤)</sup>  
ويحسب الصمت عيًّا عند جهالِ  
شأو المُجلِّي<sup>(٥)</sup> وبذَّ العاطل الحالي<sup>(٦)</sup>  
أنَّ الحقائق فيه غير أغفالِ  
لم يُتبعوك ثناء غير بُخالِ  
كما تَضوِّع عَرَف المندل الغالي  
مع الزمان فحزني غير زيالِ  
إلى الغروب ودانت بين آجالِ  
قلبي على مرِّ أسحاري وأصالي  
بُكا غريب بأقصى الغرب نزالِ<sup>(٧)</sup>  
وما بقي مهلة يسلو بها السالي

(١) أبجله الشيء إذا فرح به.

(٢) أهل الشَّيح والضال: كناية عن البدو. وكانت البادية مطلع نوابغ الشعراء.

(٣) أوشال، مفردها وشل: الماء القليل.

(٤) السكيت: آخر الخيل في حلبة السباق.

(٥) المُجلِّي: أول الخيل في حلبة السباق.

(٦) أي لجهل الناس بحقيقة الفضل.

(٧) غرب لبنان الناحية التي تسكنها أسرتنا، والغرب الثانية أوربة التي أسكنها الآن.

رثائي لفقيد العلم والوجاهة اللغوي العلامة أحمد باشا تيمور، رحمه الله، وكانت وفاته سنة ١٣٤٩:

يساورني طول الدجى وأساوره  
ولولا التقي ناديتُ يا حبذا الردي  
لعمرك ما بالعيش إرب لعاقل  
تسلسلُ آلامٍ وترداد محنةٍ  
وخيبة آمالٍ وفقد أعزةٍ  
ليهنك يا تيمور أنك جزتها  
وفارقت داراً لا يزال قطينها  
فإن تك عُقبى الدار قسمة فاضلٍ  
تخطتك في ذا الخطب داعية الرثا  
جدير بأن يرثى الذين تركتهم  
يسائل بعضاً بعضهم: أين أحمد؟  
فأتى لهم تلك الخلائق بعده  
وأتى لهم تلك السكينة والنهى  
يريدون في ذا العصر ندًا لأحمدٍ  
ينوحون نوح الثاكلات فكلهم  
على سيّد: في جنبه كلّ سيّد  
على ملك في صورة بشرية  
إذا ما جرى في أيّ نادٍ حديثه  
حريٌّ بأن الشرق يُظلم أفاقه  
وتنكس رايات الفضائل كلها  
فمن بعده للعلم تنشق حُجبه

مُلال<sup>(١)</sup> وطرفي ساهد الليل ساهره  
وقلت متى تلقى إليّ بشائره؟  
توغّل في علم الحقيقة خاطره  
تراوحه في كربها وتباكره  
وبعد طوال السجن فالموت آخره  
إلى ملاً لا يعرف الموت زائره  
يفكر في الهول الذي هو غامره  
فأقصى أمانيك الذي أنت صائره  
ولكنها صارت إلى من تغادره  
يصابر كلّ منهم ما يصابره  
وأحمدٌ قد ضمت عليه حفائره  
وأنى لهم من ذلك الوجه ناضره؟  
إذا عصفت من أيّ خطب أعاصره  
وأحمدٌ فذ مفرد الخلق نادره  
تدفق عن مثل السيول محاجرّه  
يظلّ ضئيلاً بادياتٍ مفاقره  
تعدته من هذا الوجود صفائره  
تقول فتيتُ المسك شبت مجامرّه  
لمنعه والإسلام تبكي منابره  
عليه وترخى للكمال ستائره  
ويُسلس عاصيه ويسهل واعره؟

(١) مُلال، بالضم: التغلب من المرض أو الوجع.

وللغة الفصحى يصون ذمارها  
صباياته في حسنها وسهاده  
وذوق جناها غبقة<sup>(١)</sup> وصبوحة<sup>(٢)</sup>  
أوابدُها طراً لديه أوانس  
أقام لسان العرب ممّا هوى به  
ولو كان في عصر المؤلف لم يكن  
ولو أنه وافى الصحاح مُصححاً  
وكان كتاب العين قد غاب جملةً  
ولو كان في القاموس لجج<sup>(٣)</sup> ما طما  
ولو أن ربّ التاج<sup>(٤)</sup> عاش بعصره  
ولو شمل المصباح<sup>(٥)</sup> يوماً بنقده  
مدى ليس فيه من يشقّ غباره  
فقد غيّبت تلك الفضائل كلّها  
وبات يئكي كلّ صابٍ إلى العلى  
أحمد لا تبعد ففي كلّ مهجةٍ  
لئن بنت عنّا لم تزل متمثلاً  
دخلت إلى الدار التي أنت أهلها

وتملأ فيها الخافقين مآثره؟  
ومن كُتّبها أعلّاقه وذخائره  
وجوبُ فلاها روضه وأزاهره  
وشردّها من كلّ فنّ معاشره  
ولولاه حتماً ما أقيمت عواثره<sup>(٦)</sup>  
لديه ابن منظور<sup>(٧)</sup> بكفءٍ يُناظره  
غلت فوق عهد الجوهري<sup>(٨)</sup> جواهره  
عن العين لو أنّ الخليل<sup>(٩)</sup> معاصره  
وما كان إلا كالرّقارِق<sup>(١٠)</sup> زاخره  
حلّ من التاج الذي هو ضافره  
لخلّاه مُلقى ليس يُزهر زاهره  
وطائلة ما إن بها من يُجاوره  
ودارت على ذاك النبوغ دوائرُه  
وكان حرّى أن لا تجفّ بوادره  
ولاوك عِقْدٌ مُحكّمات أواصرُه  
عليك احتوت من كلّ شخص ضمائرُه  
مكانك فيها مُشرقُ الوجه سافره

(١) العَبُوق: ما يُشرب في المساء.

(٢) الصَّبُوح: ما يُشرب في الصباح.

(٣) إشارة إلى استدراكات تيمور باشا على لسان العرب لابن منظور.

(٤) ابن منظور: هو محمّد بن مكرم، (١٢٣٢ - ١٣١١)م. لغوي مصري، صاحب قاموس "لسان العرب".

(٥) الجوهري: هو أبو نصر اسماعيل، المتوفى سنة ١٠٠٥م. لغوي معروف، له "الصّحاح".

(٦) الخليل: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى سنة ٧٨٦م. أشهر علماء اللغة وصاحب قاموس "العين".

(٧) لجج: لجاج في البحر خاض في لجّته.

(٨) الرّقارِق: الماء الرقيق في البحر، وهو بضمّ الأول.

(٩) التاج: أي تاج العروس في شرح القاموس.

(١٠) المصباح: المعجم المشهور في اللغة.

له زردٌ من نسج أيديه ناصرةٌ  
وجاد ثراك الغيث ما سحَّ ماطرُهُ  
يؤدّونه ما يذكر الحقّ ذاكرُهُ

ولا بأس من هول الحساب على امرئٍ  
عليك سلام الله ما لاح بارقٌ  
على الناس دين من ثنائك لازمٌ



ورثيت صديقي المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبّي، كبير سدنة<sup>(١)</sup> البيت الحرام وعين  
أعيان مكة المكرمة:

وهل كان المغيب سوى العيان؟  
رسائله عليّ بلا توان؟  
عهدت وما له في العهد ثانٍ  
له في كلّ مكرمة يدانٍ  
وجادوا للأقاصي والأداني  
له شأن يُكذب كلّ شاني  
كعبد الدار أو عبد المدان؟<sup>(٢)</sup>  
تسجّل بالمثلث والمثاني  
سدانة<sup>(٣)</sup> بيته طول الزمان  
ورتبة آل شيبة في أمانٍ  
تميّزهم بأخلاق حسانٍ  
يُشار إلى علاه بالبنانٍ  
إلى العلياء كالسيف اليماني  
وجا<sup>(٤)</sup> قلبي التياغ كالسنانٍ

سلاني هل على بُعدي سلاني  
وهل فارقتَه إلا تواليت  
صديقٌ نادر الأمثال فيما  
وغِطريفٌ تعزّ به قُرَيْشٌ  
مِنَ النَّفَرِ الألى سادوا وشادوا  
عريقُ المجد أروعُ عبدري<sup>(١)</sup>  
وكيف يكون من ينميه أصل  
وكيف يكون مُضْطَلَعٌ بأمرٍ  
أقرّ الله للشيبّي حقًّا  
تغيّرت البلاد ومن عليها  
وقد ضمّوا إلى ما أورثوه  
وكان عميد هذا الوقت منهم  
يهزُّ به الحجاز أخا مضاءٍ  
وإذ فارقتَه في أرض وج<sup>(٤)</sup>

(١) عبدري: مختصر عبارة "عبد الدار"، وهم من المهاجرين إلى المدينة المنورة.

(٢) عبد مدان: بنو عبد المدان، من "مذحج" من المؤمنين كـ"بنو عبد الدار"، وهم خؤولة بني هاشم.

(٣) السدنة: الذين يقومون بأمر الكعبة.

(٤) وج: هي الطائف، وكان وداعي له هناك ولم أره بعدها.

(٥) جاء، بالهمزة: ضربه بالسكين ونحوه في أي موضع كان، وخُفّف هنا للوزن.

كأنني قد شعرتُ لدى وداعي  
ولمّا جاءني منعاهُ أذكى  
وباتت تسفع الأحشاء ذكري  
زماناً كان يرعاني وفاهُ  
ألا يا آل شيبة لي حنينٌ  
لعبد القادر الشيبّي عندي  
أشاطركم بهذا الخطب حزناً  
ولكنّي بعبد الله<sup>(١)</sup> أرجو  
وأسأل للفقيد كريم نُزلٍ  
هناك العالم القدسي باقٍ

بأنني لن أراهُ ولا يراني  
ضُلوعي واستهلاً المدمعانِ  
مجالس كالأمان وكالأمانِي  
على مرّ الدقائق والثواني  
إليكم من أخّ جمّ الحنانِ  
مقامٌ لا يقوم به بياني  
شجاكم منه سهمٌ قد شجاني  
عزاءً آسيّاً جُرح الجنانِ<sup>(٢)</sup>  
لدى مولاه في عُرفِ الجنانِ  
وهذا العالم الإنسي فانٍ



هذه مرثيتي للأخّ القديم، الولي الحميم، أحمد بك شوقي، أمير الشعراء، رحمه الله،  
وقد توفّي سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م:

قد أعجز الشعراء طولَ حياته  
هيّات يوجَد في البريّة منهم  
كان الأمير لجيشهم مستنّة  
ما عاب أهلَ العبقرية أنهم  
هذا أمير الشعر غير مُدافعٍ  
لو كان وحيٌ بعد وحي محمّدٍ  
السّحر في نَفثاته والزّهْر في

واليومَ يعجزهم بِنَدْبِ مماتِهِ  
كفؤ ليرثيه بمِثْلِ لُغَاتِهِ  
فرسانهم في الظلّ من رايَاتِهِ  
قد قَصَّروا في الخبِّ<sup>(٣)</sup> عن غايَاتِهِ  
في الشرق أجمع منذ فَتَقَ لهَاتِهِ<sup>(٤)</sup>  
لانشقَّ ذاك الوحيُّ عن آيَاتِهِ  
نَفحاته والدهر بعض رُوَاتِهِ

(١) ولد الشيخ الفقيه، وهو الوجه الأستاذ الشيخ عبد الله الشيبّي.

(٢) الجنان، بفتح الجيم: القلب.

(٣) الخب والخب: ضرب من العدو، ويُقال خبّ في الأمر من باب طلب أسرع الأخذ فيه. اه مصحّحة.

(٤) اللّهاة: اللّحمة المُشرقة على الحلق في أقصى سقف الفم، ويريد أن يقول: إن شوقي ولدَ شاعراً، ومنذ أن نطقَ بالشعر.

رَقَّتْ لِنَغْمَتِهِ الْقُلُوبَ فَكَيْفَمَا  
تَغْدُو الْمَعَانِي الْعُصْمَ سُوسَ مَقَادَةٍ  
وَإِذَا أَرَادَ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ مِنْ  
مَا رَامَ شَارِدَ حِكْمَةٍ فِي نَظْمِهِ  
جَلَى الْإِلَهَ لَهُ الْأُمُورَ كَأَنَّمَا  
فَكَسَا الطَّبِيعَةَ مِنْ نَسِيجِ بَيَانِهِ  
فَتَرَى الطَّبِيعَةَ قَبْلَ نَظَرْتِهِ لَهَا  
وَالْحَسَنَ يُشْرِقُ فِي الْعَيُونَ بِذَاتِهِ  
هَذَا هُوَ الشَّعْرُ الَّذِي بَنَبُوغِهِ  
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ فِي رَفِيعِ عِمَادِهِ  
كَالِدُرِّ فِي لَمَعَاتِهِ وَالبَدْرِ فِي  
وَلَقَدْ رُوِيَ الشَّعْرُ عَنْ آحَادِهِ  
وَقَضِيَّتْ فِيهِ صَبَوْتِي وَصَبَابَتِي  
وَأَثَرْتُ فِي الْمِيدَانِ بُزْلَ فُحُولِهِ  
فَرَأَيْتُ (شَوْقِي) لَمْ يَدْعُ فِي عَصْرِهِ  
الْفَرْدَ فِي أَمْدَاحِهِ وَتُوَاحِهِ  
وَإِذَا تَعَرَّضَ لِلْغَرَامِ فَهَلْ دَرَّتْ  
مَا فِي الْهَيْامِ كَوَجْدِهِ وَحَنِينِهِ  
أَوْ بَاتَ يَعْبَثُ بِالشَّرَابِ أَضَافَ مِنْ  
أَوْ خَاضَ فِي ذِكْرِ الْعَذِيبِ<sup>(٣)</sup> تَشَابَهَتْ  
وَإِذَا تَحَدَّثَ بِالرَّبِيعِ وَرَوْضِهِ

غَنَى بِهَا رَقِصَتِ عَلَى نَبْرَاتِهِ  
فَيَقُودُهَا قُودَ الْغُلَامِ لِشَاتِهِ  
أَغْرَاضِهِ رَقَّتْ نَظِيرَ سِحَاتِهِ<sup>(١)</sup>  
إِلَّا أَصَابَ صَمِيمَهَا بِحَصَاتِهِ  
يُلْقِي عَلَيْهَا الشَّمْسَ مِنْ نَظَرَاتِهِ  
حَلَالًا خَلَّتْ مِنْ غَيْرِ طَرُزِ دَوَاتِهِ  
غَيْرَ الطَّبِيعَةَ وَهِيَ فِي مِرَاتِهِ  
وَهُنَا يُضِيءُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ  
لَمْ تَحْسَنَ النِّظْرَاءَ قَرُوعَ صَفَاتِهِ<sup>(٢)</sup>  
تَتَقَاصِرُ الْأَقْدَامُ عَنْ عَتَبَاتِهِ  
قَسَمَاتِهِ وَالصُّبْحَ فِي نَسَمَاتِهِ  
وَأَلِفَتْ لِلْسَّبَاقِ فِي حَلَبَاتِهِ  
وَقَطَفَتْ مِنْهُ خَيْرَ نُورَاتِهِ  
وَأَطْرَتْ فِي الْآفَاقِ شُهْبَ بُزَاتِهِ  
قِرْنَا يَهْزُ قَنَاتَهُ لِقَنَاتِهِ  
وَالْفَذَّ فِي أَمْثَالِهِ وَعِظَاتِهِ  
لِغَةِ الْغَرَامِ نَظِيرَ شَوْقِيَاتِهِ؟  
أَوْ فِي التَّسْيِبِ كَطَّبِيهِ وَمَهَاتِهِ  
كَاسَاتِهِ حَبَبًا إِلَى كَاسَاتِهِ  
أَعْطَافَ مَسْتَمَعْتِيهِ مَعَ بَانَاتِهِ  
أَنْسَاكَ بِالتَّحْبِيرِ وَشِي نَبَاتِهِ

(١) السحاة: تخفيف السحاة، وهي ما أخذت من القرطاس.

(٢) الصفاة: الحجر المثلد (القاسي) والضخم، ويريد أن يقول: إن شوقي منفرد بين الشعراء، فلا يستطيع أحد منهم أن يجاريه.

(٣) العذيب: (على غير القياس) أغصان الشجرة.



أَوْ سَلَّ فِي وَصْفِ الْوَقَائِعِ صَارِمًا  
لَا رَتْبَةَ تَعْلُو مَكَانَتَهُ وَلَا  
نَحَتْ الْقَوَافِي السَّائِرَاتِ أَوْ أَبَدًا  
قَدْ بَدَّ آلِهَةَ الْقَرِيضِ بِأَسْرِهِمْ  
يُنْضُونَ كُلَّ نَجِيبَةٍ أَنْ يَطْلَعُوا  
وَلَكُمْ مَرَرْتُ بِحَاسِدِينَ لِفَضْلِهِ  
لَا نِدَّ يَعْدِلِهِ وَكَمْ مِنْ مَجْلِسٍ  
يَتَمَثَّلُ الْعَصْرَ الْحَدِيثَ بِشَعْرِهِ  
وَلرُبَّ بَيْتٍ يَسْتَقِلُّ بِجَمَلَةٍ  
لَمْ يَفْتَتِنْ مِنْ عَصْرِهِ بِمَسَاوِيٍّ  
قَدْ لَازَمَ الْإِنْصَافَ فِي أَحْكَامِهِ  
وَإِذَا سَأَلْتَ عَنِ الْجِهَادِ فَإِنَّهُ  
كَالسَيْفِ فِي أَوْضَائِهِ<sup>(١)</sup> وَمُضَائِهِ  
مَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ حَيْفٌ مُصِيبَةٌ  
يَحْمِي حَقَائِقَهُ وَيُوضِحُ سُبُلَهُ  
يُلْقِي عَلَى غَمَرَاتٍ كُلِّ مَلِمَةٍ  
وَيُظَلُّ يُرْسِلُهَا قِصَائِدَ شُرَدًا  
كَانَتْ قِصَائِدُهُ هِيَ الصَّوْتُ الَّذِي  
بَعَثَتْ بِهِ رُوحَ الْحَيَاةِ كَأَنَّهَا  
قَدْ كَانَ أَدْرَى النَّاسِ بِالْدَاءِ الَّذِي  
دَاءٌ هُوَ الْأَخْلَاقُ فِي اضْمِحَالِهَا  
وَفِي عَنِ الشَّرْقِ الْقَدِيمِ نِضَالِهِ

خَلَّتِ الْعِدَى سَأَلَتْ عَلَى شَفْرَائِهِ  
شَرَفٌ يُنَافِ عَلَيْهِ مِنْ شَرَفَائِهِ  
مَاذَا يُفِيدُ النَّحْتِ مِنْ أَثْلَائِهِ؟<sup>(٢)</sup>  
وَمَحَا عِبَادَةَ لَاتِهِ وَمَنَاةِ  
جَبَلًا يَحِلُّ الرَّأْسَ مِنْ شَعْفَائِهِ  
رَغْمَ الْقَلِي يَرَوُونَ مِنْ أُبْيَائِهِ  
أَشْعَارُ شَوْقِي النَّدَّ فِي سَمَرَائِهِ  
حَقَّ التَّمَثُّلُ مِنْ جَمِيعِ جِهَائِهِ  
تَغْنِي عَنِ التَّارِيخِ فِي صَفْحَائِهِ  
كَلَّا وَلَمْ يَغْمِطُهُ مِنْ حَسَنَائِهِ  
لَا فَرْقَ بَيْنَ صَحَابِهِ وَعُدَائِهِ  
مَنْذُ الْحَدَاثَةِ كَانَ فِي سَرَوَائِهِ  
وَاللَّيْثُ فِي وَثْبَاتِهِ وَثْبَائِهِ  
إِلَّا وَكَانَ بِهَا لِسَانُ شِكَاةِ  
وَيُقِيلُ طَوْلَ الْوَقْتِ مِنْ عَثْرَائِهِ  
قَوْلًا يُزِيلُ أُجَاجَهَا بِفُرَائِهِ<sup>(٣)</sup>  
غُرْرًا تَشُقُّ الْفَجْرَ عَنِ لَيْلَاتِهِ  
سَرَى عَنِ الْإِسْلَامِ ثَقُلَ سُبَاتِهِ  
هِيَ صُورُ إِسْرَافِيلَ فِي زَعَقَاتِهِ  
قَدْ حَطَّ هَذَا الشَّرْقُ عَنِ صَهْوَاتِهِ  
فَلِذَا تَرَى الْأَخْلَاقَ رَأْسَ وَصَاتِهِ  
مِنْ يَوْمِ نَشَأَتِهِ لِيَوْمِ وَفَاتِهِ

(١) تقول: "نحنت أثلته"، أي عابه.

(٢) أوضاع: (ها هنا) بمعنى السيف اللامع المصقول؛ لغويًا: النظافة والحسن.

(٣) يزِيلُ أُجَاجَهَا بِفُرَائِهِ: يزِيلُ مَلُوحَةً مَائِهَا وَمِرَارَتَهُ، بَعْدَ الْمَاءِ وَنَمِيرِهِ. وَيُرِيدُ بِهَا أَنَّ شَوْقِي كَانَ يَخْفَفُ كُلَّ مِصَابٍ بِرَفِيقِ شَعْرِهِ.

قد زاد عنه بقلبه وبلبه  
ماضٍ يحذره استلابُ ترائه  
أعلى منار الشرق في أوصافه  
ووحى إلى الشرقي بالطُّرق التي  
أملى مكافحة الذئاب عواديًا  
الجائسين ببحره وببِره  
والغاصبين لزّرعه ولضّرعه  
أشعاره تحيا وتُحيي أُمَّة  
يا راحلاً ملأ الزمان بدائعاً  
أتركتَ بعدك شاعراً ترضى بأن  
يبكي بك الإسلام خير جنوده  
وكانَ وادي النيل من أحزانه  
ونواديّ العربية الفصحى لها  
انظر إلى الأخوان كيف تركتهم  
انظر لحال أخ فداك بروحه  
قد كنت طول العمر قُرّة عينه  
مضت السنون الأربعون ونحن في  
أرعاك عن بُعدٍ وترعاني على  
عهد رعيناه مديد حياتنا  
قد كنت أطمع أن ترى لي رائيًا  
كنا نخاف رداك قبل وقوعه  
تباً لعيشٍ قد يكون مساؤه  
والمرء إن ينظر لما يُبلى به

شأن الأبى يزود عن تركاته  
منه ويحفزه لأخذ ترائه  
وأجاد وصف الغرب في آفاته  
يمشي النجاء بها لأجل نجاته  
بالواد قد حلّوا مكان رُعاه  
والجائشين بنجده ووطاته  
والأكلين لتمره بنواته  
تجد الحياة الحقّ في كلماته  
من قبل أن نزل القضا بسكاته  
ترعى جياذ الفكر في تلعاته  
أبدًا ويرثي الشرق خير حُماته  
يُلقي على الشّطين من زفرائه  
نذبٌ عليك يُذيب في رناته  
من كل مضطجعٍ على جمراته  
لو كان يُحيي الميّت عزم فُلاته  
والآن يُجري السخن من عبّراته  
هذا الإخاء نمزّ من قهواته  
عهد نهز الرطب من عذباته  
واليوم زاد الموت من حرّماته  
يا من غدوتُ اليوم بين رُثاته  
فلنا الأمان اليوم من دهشاته  
نوحًا وكان سروره بغداته  
لا فرق بين بقائه وقواته

كالحَيِّ وهو يذوب من حَسْرَاتِهِ  
هُمُ كُلٌّ مَنْ صَنَعَ الْجَمِيلَ لِذَاتِهِ  
وَاللَّهُ لَا تُحْصَى صُرُوبُ هِبَاتِهِ  
يُشْجِي وَيُسْلِي النَّاسَ فِي نِعْمَاتِهِ  
وَالطَّائِرَ الْمَحْكِيَّ فِي جَنَاتِهِ

فالمَيِّت وهو يذوب في حَسْرَاتِهِ  
نرجو لك الدار التي عمّارها  
يُضْفِي عَلَيْكَ اللَّهُ ثُوبَ نَعِيمِهِ  
قَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا هَزَارًا صَادِحًا  
فَالآنَ كُنْ بِجَلَالِ رَبِّكَ سَاجِدًا



وقلت أرثي صديقي الطيّب الذِّكْر الحاج عبد السلام بنونه، من عيون أعيان تطوان بل المغرب كلّهُ، المنتقل إلى رحمة ربّه في ٣ شوال من هذه السنة (١٣٥٣)، وهذا آخر شعر لي إلى تاريخ نشر هذا الديوان.

وقد أرادت جريدة "الحياة" الصادرة في تطوان، في عددها المؤرّخ في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٥٣ الموافق ٧ فبراير سنة ١٩٣٥، أن تتلطف بالكلمات الآتية قبل إثبات القصيدة:

### لوعة أخ على أخيه

رثاء لمُفْخِرَة المغرب المرحوم الحاج عبد السلام بنونه، (نور الله ضريحه وروح روحه)

الأمير شكيب أرسلان، رجل الساعة في العالم الإسلامي، ابتداء يخدم القضية الإسلامية منذ خمسين عامًا، وهو أول زعيم عربي رفع صوته في الشرق والغرب مُدافعًا عن قوميتنا المغربية المهدّدة، فبلغ صدى صوته الخافقين، يحبّ المغاربة حبًّا جمًّا، وتربطه برجالهم روابط حبّ متين وإخلاص مكين، وليست هذه القصيدة التي نقدّمها للقراء اليوم إلا صورة مُصغّرة مُنبئة عن عواطفه النبيلة نحو أمّتنا وقادتها في الحياة والموت.

إني عهدتكما من خير أعواني  
أن تُطفئها بتسكاب وتهتان؟  
فأيّ يومٍ له وجدي وتحناني؟  
موزعًا بين حيران وحران

يا مدمعي أكفياني نار أحزاني  
نار تأجج في قلبي، فهل لكما  
إن لم يك اليوم لي رنات ثاكلة  
أقضي الليالي لا أحظى بطيف كرى

ما لي بغير كؤوس الدمع مُغْتَبِقٌ  
 تأبى المروءة قلبًا غير مُتَّقِدِ  
 لا بوأتني المعالي متن صهوتها  
 وليس كلّ أخٍ تاتي منيَّته  
 إنا فقدناك يا "عبد السلام" لَدُنْ  
 وكنتم ركنا لها إن أمة لجأت  
 الباهر الخصل<sup>(١)</sup> يُعبي من يُسابقه  
 يرمي بكلّ مُراشٍ من كنائنه  
 كانت محامده شتى نقول لها  
 مُهذَّب الخلق في صفوٍ وفي كدرٍ  
 مناقبُ سنمته ذرّوة قعستُ  
 بصيرةٌ تستشفّ الغيبَ أغمضه  
 كانت له في هوى الإسلام صارخة<sup>(٢)</sup>  
 وعزّة العرب العرباء مالئة  
 أخي الذي كنت أرجوه على ثقةٍ  
 يمضي إلى المجد إذ يمضي بلا مللٍ  
 ما كان يثنيه عن علياء يقصدها  
 إن صوّبت نحوه الأعداء أسهمها  
 إن شئت تعلم شأؤ المرء في شرف  
 إن الحقيقة مثل الشمس آية

وليس غير نجوم الليل ندماني<sup>(٣)</sup>  
 على حبيب وطرفًا غير ريانٍ  
 إن كان لم يُضمّ<sup>(٤)</sup> قلبي فقد خلّاني  
 على رؤوس ذويه دكّ بنيانٍ  
 كنت المرّجى لأوطارٍ وأوطانٍ  
 من الوري لأساطين<sup>(٥)</sup> وأركانٍ  
 والقائل الفصل عن علمٍ وبرهانٍ  
 عن كلّ قوسٍ من التفكير مرنانٍ  
 سُبْحان ناظمها في سلك إنسانٍ  
 وناصح الودّ في سرٍّ وإعلانٍ  
 وما أقرت لأقرانٍ بإقرانٍ<sup>(٦)</sup>  
 وهمّة تقرن العالی إلى الداني  
 الموت في سبلها والعيش سيّانٍ  
 عُروقه ملء أنداءٍ لأغصانٍ  
 إذا تشابه إخوانٍ بخوانٍ  
 ولا يُبالي بأحقادٍ وأضغانٍ  
 ثانٍ ولا يرْتضي في سبقٍ بالثاني  
 فالجد والسّلم في الدنيا نقيضانٍ  
 قسه بما هاج من بغيٍ وعُدوانٍ  
 إلا التجلّي لقومٍ غير عميانٍ

(١) بفتح أوله، المنادم، وقد يكون جمعًا.

(٢) أصمى الصيد: رماه فقتله وهو يراه.

(٣) الأسطون، مفرد أساطين: تقول أساطين الزمان، أي أفرادها وحكماؤها.

(٤) الخصل: إصابة الغرض والخطر الذي يخاطر عليه في النضال. يُقال أحرز فلان خصله، أي غلب.

(٥) أقرن له: أطاقه.

(٦) الصارخة: الإغاثة، مصدر على الفاعلة كالعافية.

تَتَعَتَّعُ<sup>(١)</sup> المغرب الأقصى لمصرعه  
 كأنما كل ما في الغرب من مُهَجٍ  
 قد كنت آمل أن نحيا مُعاصرةً  
 أدعو له في جناني كلما انفردتُ  
 فخيَّبَ البين ما قد كنت آمله  
 خُذْ في حياتك ما تشاق من نَعَمٍ  
 واعلم فما صادفتُ عينك في زمن  
 لم تحلُّ لي من زماني لحظةً عَدْبَتْ  
 ولا توقَّر لي حظًّا ألدُّ به  
 يا راحلاً فجع الإسلام أجمعه  
 ومُسْلِمًا بطلاً كانت حميته  
 بُدِّلت من هذه الدنيا سماءً عُلاً  
 شقيت في دارك الدنيا بجيرتها  
 أثواك ربك في أفياء جنته  
 وجاد تُربَّ ضريح أنت ساكنه  
 وأورث الله من أنجبت من ولد  
 فاذهب عليك سلام الله ما طلعت  
 يقلُّ بعدك، مدفوناً فجعْتُ به

فلا ترى من بنيه غير سكرانٍ  
 تجمَّعت وغدت في وسط تطوان<sup>(٢)</sup>  
 مديدَ عُمرٍ وألقاه ويلقاني  
 نفسي بنجوى وأرعاه ويرعاني  
 وكم أرثني الليالي ضدَّ حُسباني  
 وخُذْ بمقداره تهمام وجُدانٍ  
 من قُرّة فهي يوماً قرحُ أجفان  
 إلا أمرت وحاكت وقع مُرَّانٍ<sup>(٣)</sup>  
 إلا تضمَّن أشجاني واشجاني<sup>(٤)</sup>  
 فالشرق في ندبه والغرب صنوانٍ  
 تملا الفِجاج بإسلام وإيمانٍ  
 فابشر أمستبدل الباقي من الفاني  
 فاسعد من الملاء الأعلى بجيرانٍ  
 مُمتع الروح في رُوحٍ وريحانٍ  
 بكلِّ أوظف<sup>(٥)</sup> داني الهدب حَتَّانٍ<sup>(٦)</sup>  
 خلالك الغرّ، هذا خير سلوانٍ  
 شمسٌ وناح حمامٌ فوق أفنانٍ  
 إن أستطار على ضعفي لحدَثانٍ

(١) تَعَتَّعُ الشيء: حركه بعنف وقلقله.

(٢) تطوان: مدينة في المغرب.

(٣) مُرَّان: بضم أوله، الرماح الصلبة اللدنة واحدها مرانة.

(٤) أشجاء: أحزناه مثل شجاء.

(٥) وطف السحابة: تدلَّت ذبولها، ومنه الأوظف والهدب بمعنى الذيل.

(٦) الحنان: الذي له صوت.

## القسم الرابع

### في المدائح السلطانية، وشئون السياسة العثمانية

لي عدّة قصائد سلطانية، كنت أمدح بها السلطان عبد الحميد، ولم أكن أقدمها للحضرة السلطانية وإنما كنت أنشرها في الجرائد، تعظيمًا لمقام الخلافة وتأييدًا لوحدة الأمة، فمن هذه القصائد ما لم أعثر عليه حتى هذه الساعة، ولذلك تراني مُمليًا منها ما لا يزال في خاطري كيفما اتفق.

منها قصيدة نظمها في الآستانة، سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م أي من ثلاث وأربعين سنة، لا أزال أحفظ منها ما يلي:

ما إن لشأو في البيان يبينُ  
شأو لو الحدقي<sup>(١)</sup> حاول مثله  
إيتاء حقّ الشكر حقّ خليفة  
تدنو لمدحك غاية وتبينُ  
أعيا البيان لديه والتبيينُ  
تزيّن الدنيا به والدينُ

ومنها:

تغشى الأمور بفكرة وقادة  
يا طالما صدّت مقارعة الطبي  
الظنّ منها في الأمور يقينُ  
إنّ العقول معاقل وحُصونُ

ومنها:

فأسلم أمير المؤمنين ولا تزل  
في دولةٍ غراء عثمانية  
تُعطي مُناك وما تريد يكونُ  
مُتكنّفاها النصر والتّمكنُ

ومنها قصيدة أخرى بائية، نظمها في سورية، وأظنّ عهدها يرجع إلى أربعين سنة، وقد بقي منها في حافظتي الأبيات التالية:

قف بين معترك الأمواج والهضبِ  
بنقطة الأمتين التُّرك والعربِ

(١) المراد به الجاحظ، والبيان والتبيين من أشهر كتبه.

بدار سلطنة الدنيا ومركزها  
بحيث قد فرّق البرين ربّهما  
وقابل الشرق في أزياء قُدّمته  
ثغرُ الثُّغور حماه الله قام له  
ما زال من عهد قِسْطَنْطِينِ مُرْتَقِبًا  
حتّى أتته جيوش لا كفاء لها  
سَحْرُنَ من أرضه قرنا يُذَلُّ له

### ومنها في ذكر السلطان:

حاز الخلافة في عصرِ أبي لهبٍ<sup>(٣)</sup>  
فأطفأ النار من بعد السعير له

ومرجع الأرض من قُطْبِ إلى قُطْبِ  
وحيث قد مرّج البحرين عن كُتُبِ  
بصنوّه الغرب في أثوابه القُشْبِ  
من لطف بوسفوره أحلى من الشَّنْبِ<sup>(١)</sup>  
يجدُّ نحو بني عثمان في الطلبِ  
نزلنَ عند أبي أيوب في الرَّحْبِ<sup>(٢)</sup>  
اسكندر ناطح القرنين للسُّحْبِ

له جيوش العدى حمالة الحَطْبِ<sup>(٤)</sup>  
رأى يُفَرِّق بين النار والخشبِ

ومنها قصيدة نشرتها في المؤيد، عهدا يتأخّر عن عهد القصيدتين الأولين بعدة سنوات، وأذكر منها ما يلي:

مشارك أرض لَهَا بمغاربِ  
وجانس بين الغور والنجد عندها  
وضيق بين الفرجتين فصارتا  
وقرب بين العدوتين كأنما  
مروى شعار الهندواني وراويا  
لواء من الإسلام قد عزّ نصره  
لواء لو أنّ الأرض طال أثيرها

وغادر قطيها مزاجًا لقاطبِ  
كلا أرضها لم يُعَيِّ وَقَع السَّلاهِبِ<sup>(٥)</sup>  
إلى مثل ما صُمّت أناملُ حاسبِ  
له كَرَّة الغبراء أُكْرَةَ<sup>(٦)</sup> لاعِبِ  
سمان المعالي عن رفاق المضاربِ  
أطلّ على الآفاق من كلِّ جانبِ  
لما زال حتّى اندقّ بين الكواكبِ

(١) الشَّنْب: ماء ورقة يجري على الثغر، ويقصد بها "الطراوة".

(٢) إنّ أكر الحرب يوم فتح استانبول وقعت على الخليج القسطنطيني قاسم باشا، وهناك مزار أبي أيوب الأنصاري (رض).

(٣) أبو لهب: كنية أطلقها القرآن والمسلمون على عمّ من أعمام النبي وخصم من ألدّ خصومه.

(٤) حمالة الحطب: أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان وهي زوجة العزّي بن عبد المطلب المعروف بكنية أبي لهب وكانت خصمًا شديدًا للنبي.

(٥) السلاهب: الخيل الطويلة العظيمة.

(٦) الأكرة: الكرة.

ولو أن قرن الشمس أرخى ذوائبًا  
تداوله بعد النبيّ خلائفًا  
لعمرى لئن طال التحكُّكُ بالسُّهى  
لما طاولت أحسابَ عثمان عصبًا  
أرى آل عثمان بنصر محمد  
مليّون بالأمر الذي يحملونه  
لقد نوروا ليلاً من النّقع داجياً  
وقد فرّعوا من كلّ ملك عقيلة  
لقد جمعوا البرّين مع زاخريّهما

منها في ذكر السلطان:

حفظت لعثمان وفاراً مريده  
وحسنت بل حصنت ما شئت وقتضت  
سردت له هذا الحديد فلم تزل  
قواضيه في الحرب إن تُتدب لها  
وما عفت نار الحرب إلا تعقلاً  
وما عقتها إلا احتفازا لقربها  
لكلّ من الأمرين أعددت عدّة  
سهرت وقد نام الأنام بمُقلّة

وأخرها:

فحبُّك ذا شرعيّ وعُرْفِي ومذهبي

لما كان منه غير إحدى الذوائبِ  
مفاخرهم كلّ على كلّ غاربِ  
وقارب روق النجم أو لم يقاربِ  
ولا دان منها مطلب نحو طالبِ  
هي الأزدُ إلا أنا لم تصاحبِ<sup>(١)</sup>  
خليون عن خلف المساعي الكواذبِ  
بشهبِ رماحٍ للنحور ثواقبِ  
رياضتها أعت على كلّ خاطبِ  
وأحسن منه جمعهم للمناقبِ

تردّي بإذن الله حلّة خائبِ  
خواطرُك الغراء وحسن المذاهبِ  
تمدُّ بقضبانٍ له وقواضبِ  
وقضبانه في السلم إن لم تُحاربِ  
وكلّ من الدولات تُدلي بجاذبِ  
وهل ينهض البازي بغير مخالِبِ  
فسالم إذا ما طببت نفساً وغاصِبِ  
لها قلب سيّحان<sup>(٢)</sup> وجثمان شاحبِ

ومدحك ذا فرضي ووترِي وواجبي

(١) أي أن آل عثمان في نصر محمد (ص)، هم كالأوس والخزرج، إلا أنهم لم يدركوا زمن الصحابة.

(٢) الشّيحان: الفيور الحازم.



ونظم المرحوم شوقي بك عندما ذهب إلى الآستانة، وكان ضيف أمير المؤمنين،  
القصيدة الآتية:

رضي المسلمون والإسلامُ  
كيف نُحصي على عُلاكِ ثناءً  
هل كلام العباد في الشمس إلا  
ومكان الإمام أعلى ولكن  
إيه<sup>(١)</sup> «عبد الحميد» جُلَّ زمانُ  
ما رأته مثل ذا الذي تبنتي الـ  
دولة شادَ ركنها ألفُ عامٍ  
وأساس من عهد عثمان يُبنى  
حكمةٌ حال كلُّ هذا التجلّي  
يسأل الناسُ عندها الناسَ هل في الناسِ ذو المُقلّةِ التي لا تنامُ؟  
أم من الناسِ بعدُ مَنْ قولُهُ وحيٌّ كريمٌ وفعله إلهامُ؟  
يا عظيمًا ما جازه إعظامُ  
ويمينٌ بَسَطُ<sup>(٢)</sup> وأمرٌ جسامُ  
للبرايا وعِصمةٌ وسلامُ  
تُوجَّ البائسون والأيتامُ  
وسرى الخصب والنماء ووافى البشرُ والظُلّ والجنى والغمامُ  
وتلقَى الهلالَ منك جبينُ  
فسلام عليهمُ وعليه  
(وبدا الملك) ملك عثمان من عد  
يهرع العرش والملوك إليه

(١) إيه: اسم فعل، معناه الاستزادة من الحديث.

(٢) يمين بسط، بالضم مبسوط.

هكذا الدهر حالةٌ ثمَّ ضِدُّهُ  
ولأنت الذي رَعِيَّتُهُ الأُسْدُ ومسرى ظلالها الآجامُ  
ه ولبنان والرُّبى والخيامُ  
أنك السُّلم وسطه والوئامُ  
م أتمت تهذيبهُ الأَقلامُ  
وقعودٌ مع الهوى وقيامُ؟  
تشرف الكأسُ عنده والمُدَامُ  
وأنت من حُماته الأقسامُ  
والولاء الذي يريد الأيادي  
غيرَ غاوٍ أو خائنٍ أو حَسودٍ  
كيف تُهدى لما تُشيد عيونُ  
مُقلٌ عانت الظلامَ طويلاً  
قد تعيش النفوس في الضَّيْمِ حتى  
أيُّها النافرون عودوا إلينا  
غرضٌ أنتم وفي الدهر سهمٌ  
نِمتُّم ثمَّ تطلبون المعالي  
شرَّ عيش الرجال ما كان حُلماً  
ويبيت الزمان أندلسياً  
عاليَ الباب هزَّ بابُك منا  
وتجلّيت فاستلمنا كما للناس بالركن ذي الجلال استلامُ  
مثلما ينصرُ الحسامَ الحسامُ  
بك يا حامِي الحمى استعصامُ  
وكفاها أن يشهدَ العلامُ

والى السيد الخليفة تشكو  
وعدوها لنا وعودًا كبارًا  
فمللنا ولم يك الداء يحمي  
يمنع القيد أن نقوم فهل تا  
فارفع الصوت إنها هي مصر  
وارع مصرًا ولم تزل خير راع  
إن جهد الوفاء ما أنت آت  
وليصلوا بمن له الدهر عبد  
فالمواء الذي تلقوا رفيع  
من يرد حقه فللحق أنصا  
لا تروقن نومة الحق للبا  
إن للوحش والعظام منها  
رافع الضاد للسها هل قبول  
قامت الضاد في فمي لك حبًا  
إن في «يلدز» الهدى لخلالا  
قد تجلت لخير بدر أقلت  
فألزم التم أيها البدر دوما

فعارضته بالقصيدة الآتية:

هل لسان أقواله الإلهام؟  
فتبارى الألفاظ شأو المعاني  
الذي شرفت خلافته الأرز  
وغدت لهجة الشناء عليه

جور دهر أحراره ظلام  
هل رأت القرى غلاها الجهام؟<sup>(١)</sup>  
أن تمل الأرواح والأجسام  
ج فبالتاج للبلاد قيام  
وارفع الصوت إنها الأهرام  
فلها بالذي أرتك زمام  
فليقم في وفائك الخدام  
وله السعد تابع وغلأم  
والأمور التي تولوا عظام  
ر كثير وفي الزمان كرام  
غي فللحق هبة وانتقام  
لمنايا أسبابهن العظام  
فياهي النجوم هذا النظام؟  
فهي فيه تحية وابتسام  
أنا صب بلطفها مستهام  
في كمال بدت له أعلام؟  
وألزم البدر أيهذا التمام

أم بيان آياته الإحكام؟  
ويوفي حق الشناء الإمام؟  
ض فحف البرية الإكرام  
مثلما دام للصلاة إقام

(١) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

قعدت نهضة البلاغة عنه      ودنت عن خياله الأوهامُ  
قعس في الصّفيح من أطلس العزّ تهاوت من دونه الأفهامُ



وإنما وصفه على فاتح الأفكا      ر في الذرّوة التي لا تُرامُ  
كلّ طرفٍ للفكر عنه كليلٌ      كلّ طرفٍ للجري فيه كهامُ  
قصر الوصف دون من يفضح الوصف وعند الفعال يخفي الكلامُ  
ينبذ الشعر والشهود الرياضيات عدًا والحجّة الأرقامُ  
إنّ ما سال في ثناه يراعُ      لا كما سحّ من يديه غمامُ  
وفعال الضّرغام أوقع في النفس من القول إنّهُ الضّرغامُ



كلّ يومٍ له صنائع تترى      في البرايا لباسهنّ الدوامُ  
تكفل الناس كما يكفل الغبراء غيثٌ له عليها انسجامُ  
طوّق الخلق جوّده ونداهُ      فهي في مدحه لعمري حمامُ  
وجديرٌ أن تنطق الطير والوحش فيتلو الصّداح فيه البغامُ<sup>(١)</sup>



نسخت عنده الملوك وأمسى      خبرًا من أخبار كان الكرامُ  
ما رأى مثله الزمان عظيمًا      صبيّةٌ عنده الرجالُ العظامُ  
جاء من ضئضيءٍ<sup>(٢)</sup> الخلافة فردًا      هو من معشر الملوك السّنامُ  
فرعُ عثمان وكفى المجد والأحساب والمكرّمات والأحلامُ

(١) البغام: صوت الظبية.

(٢) الضئضيء: الأصل.

دولة حجة الزمان على الخلق بها دون مريّة إزامُ  
 ليس للشرق غيرها فبنو المشرق طراً بدونها أيتامُ  
 قد أقامت سُرادقِ العزِّ يعليه الوشيحُ<sup>(١)</sup> الرِّماحُ والأقلامُ  
 فوقه راية الهلال مُنيرا يُدبر الظلم عندها والظلامُ  
 ينضوي تحتها النُّقاد<sup>(٢)</sup> مع الأسدِ وترعى الذئابُ والآرامُ<sup>(٣)</sup>



كلّ مدحٍ من دون مدحك ذامُ	مجد عثمان ليس غيرك مجد
ولكم أعطسَ الملوكَ الرِّغامُ	لم تزل شامخاً بأنفِ عزيزٍ
حولها المسلمون والإسلام	لا تُرى دولةٌ هُزالاً وضعفاً
دهره تابع له وغلامُ	وعلى رأسها خليفةُ عصرٍ
ب عليهنَّ للجِباةِ ازديحامُ	لم يزل قائماً لديه بأبوا
تحت تيجانها الطُّلى <sup>(٤)</sup> والهَامُ	حيثما تهطع الملوكُ وتعنو
وتُسوّى الرؤوسُ والأقدامُ	موقف تخشع النواظر فيه
مثل البيتُ عنده والمقامُ	قد حباهُ عثمانُ أساً متيناً
وتخطّت مئاتها الأعوامُ	شابَ قرن الزمان وهو مكين
فلذا لا تنال منه السهامُ	وغدا ألفاً سهام الليالي



أنت فيه عبّاسهُ بسّامُ	إيه "عبد الحميد" إنّ زماناً
واروِ مصرًا له إليك أوامُ <sup>(٥)</sup>	أوله نصركَ العزيز وأيد

(١) الوشيح: اشتباك القراية، ويريد بها هنا تعاون الرمح والقلم، أي "السيف والقلم".

(٢) النقاد: جنس من الغنم.

(٣) الآرام: الغزلان.

(٤) الطُّلى: الأعناق.

(٥) الأوام: العطش الشديد.

أشخصتُ نحوك العيون حَيَارَى  
وتصبى القلوب منك خلال  
أقبل العصر يرتجيك وفي اليَمِّ  
حبّذا الدولة التي صار فيها  
هوذا الشرق في حماك لك الأم  
هَزَّة هَزَّة تشوب<sup>(١)</sup> بها الرو  
أرهف الحدَّ للخطوب فما يند  
لم تزل أرضنا مأسدٍ بالله

أمم الخافقين والأقوامُ  
يُحرَمُ العشق دونها والهيامُ  
نى كتاب وفي الشمال حُسامُ  
توأمين العلوم والأعلامُ  
ر جميعًا وفي يدك الزّمامُ  
ح وتُحيي الآمال وهي رمامُ  
فع مع هذه الليالي احتشامُ  
وماوى رجالنا الآجامُ



إنَّ للشرق هَبَّة بعد نومٍ  
هَبَّة تبعث الحمية في النا  
يسال الغرب عندها الشرق هل جا  
ترسل الكهرباء فيها سُعاعًا  
وتشبُّ النيران في كلِّ أرض  
إنما تثلج الصدور بسلم

أزعجته خلاله الأحلامُ  
س كما يبعثُ الخمار<sup>(٢)</sup> المدام<sup>(٣)</sup>  
ك روح تحيا به الأصنامُ؟  
ويُرى للبخار فيها ركامُ  
فتعود النيران وهي سلامُ  
حيثما يوقد الصدور ضرامُ



يا إمام الهدى هنيئًا وأولى  
إن أحاول على علاك ثناءً  
أو أعارض فتى القريض<sup>(٤)</sup> فما عا

أن يهنأ بالعيد عنك الأنامُ  
فهو ممّا قضى علتىّ الذمامُ  
رض وردَ الحدائق القلامُ<sup>(٥)</sup>

(١) تشوب: تعود.

(٢) الخمار: صداع الخمر.

(٣) المدام: من أسماء الخمر، سمها بذلك لمداوقها.

(٤) شوقي.

(٥) القلام: القاقلي. قال المعري:

ق بعزمٍ لم يثنه الإحجامُ  
جاء عفواً من القريض النظامُ

ذا مجالٌ رضيت فيه من السب  
وإذا كان بدع وصفك سمطاً



هو يومٌ خدامه الأيامُ  
فلم يتَّجه عليه ملامُ  
فاختلافاتها إلينا لِمَامُ<sup>(١)</sup>

إنَّ يوماً به الجلوس تجلّى  
كفّر الدهر فيه عن كلِّ ما جرّ  
جاء ختماً لطارقات الليالي



بمعاليك طابَ منه الختامُ

ليس يلحى على أواليه عصرٌ



ولما استرجعت الدولة العثمانية مدينة أدرنة وتوابعها بعد الحرب البلقانية المشؤومة، أرسلت الدولة وفداً إلى أدرنة من رجالات العرب لتهنئة أهل تلك الديار على رجوعهم إلى حضن الدولة، فجرت احتفالات وقيلت خطب، وكنت من جملة أعضاء الوفد العربي المذكور، فتلوت أمام ضباط الجيش العثماني قصيدة، نشرتها أكثر الجرائد العربية والتركية، ولا أزال أحفظ منها الأبيات التالية:

ومن ليس يرضى خوضه متهدماً  
وما الموت إلا أن نعيش ونسلماً  
سوى الصارم البتار للسلم سلماً  
تأخر يعتدُّ السلامة مغنماً  
وما ابيض إلا وهو أحمر بالدماً  
فما زال دفع الشرّ بالشرّ أحزماً  
إذا لم يجيء فيها الحسام مترجماً

فداً لحمانا كلّ من يمنع الحمى  
فما العيش إلا أن نموت أعزّة  
تأملتُ في صرف الزمان فلم أجد  
ولم أر أنأى عن سلام من الذي  
يقولون وجه السيف أبيض دائماً  
فإن يك دفع الشرّ بالرأي حازماً  
تجاهل أهل الغرب كلّ قضية

(١) لِمَام، جمع لمة: يقولون ما تزورنا إلا لِمَامًا، أي في الأحايين.

وكأبر قومٌ ينظرون بأعينٍ  
(أدرنة) يا أمَّ الحصون ومن غدت  
فدينك ربِّعاً ما أبرّ بأهله  
عمرنك أحقاباً طوالاً فلم نزل  
فلما أتاك المصلِّحون بزعمهم  
ألا قل (لفردينان)<sup>(١)</sup> أسرفت عادياً  
وهاجمت والأحلاف غدراً وغليةً  
رجالاً لها بعضاً ببعضٍ تشاجرٌ  
تعرّض هذا الملك منكم ومنهمو  
(أدرنتنا) لو كان للصخر السن  
فما من فتى إلا وأجهش بالبكا  
ولا غادة إلا وكفكف دمعها  
ولا منبر إلا وأورق بهجة  
وقرّت عيون المصطفى في ضريحه

منها:

تعجلتمو منا ثغوراً شواغراً  
خميس إذا النيات صحّت رأيته  
تأمل أهاضيب الجبال وقد رست  
تُضيء نواحيه بغرة عزّت<sup>(١)</sup>

ألا عمّه الألباب أعمى من العمى  
لدار بني عثمان سوراً ومعضماً  
وأما علينا ما أعزّ وأكرما  
بأهلك من أهل البسيطة أرحما  
أعادوا إلى تلك الجنان جهنماً  
وأكرت في وادي الضلالة مزعماً  
رجالاً غدوا عمّا تكيدون نُوماً  
فكان قضاء الله فيهم مُحتمماً  
لسهمين كلّ منهما انقضّ أسهما  
بها يوم عاد الراجعوها<sup>(٢)</sup> تكلمنا  
وما من جواد عاد إلا وحمحماً<sup>(٣)</sup>  
مكرٌ حُماة العرض كالسيل مُفعماً  
وقام عليه ساجع مُترنماً  
وهناه في الفردوس عيسى بن مريمًا

فهلاً وقد جاء الخميس<sup>(٤)</sup> عرمرماً؟<sup>(٥)</sup>  
يُخيم معه نصره حيث خيماً  
وحدّث عن البحر المحيط وقد طمى  
مُشيع ما تحت الصلوع غشمشماً<sup>(٦)</sup>

(١) فرديناند: ملك البلغار.

(٢) رجعه: رده، مثل أرجعه.

(٣) الحَمْحَمَة: نوع من أصوات الخيل، وهو دون الصهيل.

(٤) الخميس: الجيش المؤلف من خمسة ألوية.

(٥) العرمرم: (عامّة) الكثير.

(٦) أحمد عزّت باشا الأرناوطني، قائد الجيش.

(٧) الغشمشم: الشجاع العنيد الذي لا يتراجع.



إذا عبس الموت الزوام تبسما  
وفي أفق النادي بُدورا وأنجما  
وإخواننا الأتراك نزحفُ توأما  
عليهم إليهم يبتغون تقدما  
حنيفيةً بيضاء لن تتقسما  
فؤادكمو دهرًا عليها مُتَيِّما  
وأنف الألى منا يصيحون لوما  
ولا تفتحوا في شأنها أبدا فما  
وماء المريج<sup>(١)</sup> اليوم أسبه زمزما

يليه من الأبطال كلّ غصنفرٍ  
تراهم ليوثا في الوغى وضياغما  
فمن مُبلغ البلغار أنا إلى الوغى  
وأنا جميع العرب والترك إخوة  
وليس يزال العربُ والتركُ أمةً  
وقولوا لهم بانث سعاد فلا يزل  
ستلبثُ عثمانيةً رغم أنفكم  
فلا يطمعنكم في أدرنة مطمعُ  
أدرنةً صارت عندنا تلو مكة



ومنها:

كشادخةٍ غراء في وجه أذهما  
تُضحكهم طرا ملائكة السّما  
وما زالت الأيام بُوسى وأنعما  
يعود على الإسلام عيدًا وموسما  
هناء محاذك العزاء المُقدّما

فيا لك من يومٍ أتى في خطوبنا  
وكانت بقايا السيف تبكي فأصبحت  
وما زالت الدنيا سرورا وغمةً  
عسى كل يومٍ بعد يومٍ أدرنة  
وليس على المولى عسيرٌ بأن نرى



ولمّا أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثماني، وعمّ الفرح في ذلك الوقت جميع الأمة، حصل اجتماع كبير في بيروت فتلوت فيه هذه القصيدة، ذاهباً فيها مذهب من لا يريد أن تكون الحرّية مقرونة بالفوضى ومن يغار على مقام الخلافة:

لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى  
عليها رجالٌ قد قضاؤا دونكم قهرا

ألا يا بني عثمان حسبكم بشرى  
وقد فرّتمُ ذا اليوم بالغاية التي

(١) ماء المريج: ماء في بلاد الأندلس.

أُطْلِتْ عَلَيْكُمْ بَغْتَةً شُرِّدَ الْمُنَى  
أَتَتْ وَحِجَابَ الْيَأْسِ قَدْ حَالَ دُونَهَا  
وَكَمْ قَدْ أَسَأْتُمْ مِنْ ظُنُونٍ وَقَلْتُمْ  
فَعَنْ غَيْرٍ وَعَدِ بَدَلِ اللَّهِ حَالَكُمْ  
وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ  
أَرَادَ تَلَا فِي الشَّرْقِ مِنْ عَشْرَاتِهِ  
وَأَلْهَمَ مَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ ظَلَّهُ  
تَدَارَكَهَا رَمَقًا بِأَكْسِيرٍ نَاطِرٍ  
فَنِلْتُمْ بِنُغْمَاهِ حَيَاةً جَدِيدَةً  
سَلَامًا وَبِرْدًا نِلْتُمُوهَا بِلَطْفِهِ  
بِكُمْ ضَنْ إِشْفَاقًا وَفِي أَرْضٍ غَيْرِهِ  
وَحَاشَا أَبَا بَرٍّ الْأُبُوءَ مِثْلَهُ  
إِمَامٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَوَارِفٌ  
تَلْقَاهُ عَصْرٌ بِالْحُطُوبِ فَلَمْ يَزَلْ  
أَذَلَّ عِنَادَ النَّائِبَاتِ فَأَسْلَسْتُ  
لَنَا مِنْ نَدَاهِ الْجَمِّ فِي كُلِّ حَادِثٍ  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الطَّرِيقَ الَّذِي بِهِ  
لَكَانَ لِعَمْرِي كَافِيًا فِي ثَنَائِهِ  
لَقَدْ مَنَّ بِالنِّعْمَى الَّتِي جَاءَ وَقَعَهَا  
وَأُمَّةٌ عَثْمَانٌ أَزَالَتْ بِلِحْظَةٍ  
فِيَا لَكَ بَشْرِي فِي مَسَامِعِ أُمَّةٍ  
وَيَا لَكَ مِنْ أَمْرِ بِهِ الْبَرْقُ جَاءَنَا

تَحَقَّقْ بَعَثَ اللَّهُ مَعَ عُسْرَةِ الْيُسْرَا  
كَمَا يَنْشُرُ الدِّيَانَ مَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا  
مُضِينَا وَبَعْضَ الظَّنِّ يَحْتَقِبُ الْوِزْرَا<sup>(١)</sup>  
لِتُضْحِي لَكُمْ رُحْمِي وَتَغْدُو لَكُمْ ذِكْرِي  
وَلَيْسَ سِوَاهُ يَمْلِكُ النِّفْعَ وَالضَّرَا  
فَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِهِ سِتْرَا  
قِيَامًا عَلَى الدِّسْتُورِ فِي الدَّوْلَةِ الْغُرَا  
إِذَا مَالَ نَحْوَ التُّرْبِ صَيَّرَهُ تَبْرَا  
غَدَتْ بِنَفُوسٍ عِنْدَ غَيْرِكُمْ تَشْرِي  
وَجِيرَانِكُمْ بِالسِّيفِ هَامَاتِهِمْ تَفْرِي  
فَمَا أَكْثَرَ الْقَتْلَى وَمَا أَرْخَصَ الْأَسْرَى  
يُرِيدُ بِنَا صَيِّمًا وَيُرْهِقُنَا عُسْرَا  
عَلَى الشَّرْقِ وَالْإِسْلَامِ لَا تَقْبَلُ الْحَصْرَا  
يَكْفِاحُ فِي آرَائِهِ وَحَدَّةُ الْعَصْرَا  
وَأَصْبَحَ بِالتَّدْبِيرِ يِقْتَادُهَا قَسْرَا  
سَحَابٌ فِي الْأَفْطَارِ قَدْ حَكَتِ الْقَطْرَا  
غَدَا أُمَّةً شَبَابُكَ طَهَّ أَبِي الزَّهْرَا<sup>(٢)</sup>  
وَأَنْ يَبْلُغَ الْفَخْرَ الْمُؤَثَّلَ وَالْأَجْرَا  
عَلَى الْخَلْقِ وَقَعَ الْمَاءُ مِنْ كَبِدِ حَرِّي  
بِهِ بِاللَّيَالِي الْبَيْضِ أَيَامَهَا السُّمْرَا  
بِهَا قَدْ غَدَتْ سَكْرِي وَلَمْ تَعْرِفِ الْخَمْرَا  
فَسَالَتْ لَهُ سُحْبُ الدَّمُوعِ مِنَ السَّرَا

(١) احتقب الوزر: جمع الإثم كأنما احتمله خلفه.

(٢) سبكة حديد الحجاز.

ويوم تبشّرنا به يعدل العمرا  
 لدى تلکم البأساء قد أحسنوا الصبرا  
 وأدوا عليها من صداقتكم شكرا  
 على شاطئ لا تملكون له عبرا  
 فقد عاض حلو اليوم من مرّ ما مرّا  
 فقد نسي الظلماء من شهد الفجرا  
 فما فات فرض الصوم من شهد الشهرا  
 كفتها إلى عثمان نسبتها فخرا  
 وقبلأ أياديه على هامكم تترى  
 فقد جاء عدوا في شبيته الخضرا  
 (وشاورهم بالأمر) إن تحمل الأمرأ

ويا لك من وقت سعيد أظّلنا  
 فشكراً على النعماء أخواننا الألى  
 ألا قدروا هذي المكارم قدرها  
 فكّم قد وقفتُم صابرين وكنتم  
 ولا تذكروا ذاك الزمان الذي مضى  
 لقد طال ليل بالمحيين غاسقٌ  
 ولا عذر في التقصير بعد الذي جرى  
 وقدوا أمير المؤمنين بأنفس  
 سيغدو لكم دور جديد بجوده  
 تلقوا لنا العصر الجديد بحكمة  
 لقد من بالشورى عليكم بمقتضى



وهذه الأبيات من قصيدة نظمها وقت إعلان الدستور العثماني، وقد فقدت القصيدة<sup>(١)</sup>:

ذاك الخطاب عساها تنفع الذكّر  
 إذا ترون اغوجاجا بي فلا تذروا  
 إذا أقمناه بالأسياف يا عمر  
 باتت تُقوم مني البيض والسمر

تذكروا مثل الخطاب حين جرى  
 إذ ارتقى منبرا يدعور عيته  
 فليل والله لو أنا نرى عوجا  
 فقال أحمد ربي إذ على يدكم



وكتبت هذه القصيدة من ساحة الجهاد في الجبل الأخضر، لأول هجوم إيطاليا على

طرابلس الغرب:

فما حرّك اللاّلام غير سُكونها

سراعاً بني أُمي بحثّ ظعونها<sup>(٢)</sup>

(١) عثرنا على القصيدة كاملة تحت عنوان "العصر الجديد" (انظر الملحق ص. ٢١٢).

(٢) الطغون، بفتح أوله: البعير يحمل عليه.

وما زال فرْيُ الخطب تحت خفافها  
لَعَمْرُ المعالي ما عَدَوْنَ ديارنا  
ولا كان ما قد آثرت من فتورها  
يعافون مورود الصَّعاب إلى العُلا  
فَمَنْ يَرِدُ الأيامَ بِيضًا فلا يَكُنْ  
ركبنا ظهور الصافنات<sup>(٥)</sup> وقد ثوتُ  
وقلنا لهاديننا الفلاة فإننا  
طووا شقق البيداء شرقًا ومغربًا  
وما إن شأى<sup>(٧)</sup> بالكهرباءة مركبٌ  
فإن يقطع القوم البحار فعندنا  
على غير شيء غير أنا عصابة  
تعدوا حدود الصبر حَيْفًا بأمةٍ  
وقد طالما بتنا نغالط أنفسنا  
إلى أن تجلَى العزم لا حُجْبَ دونه  
ولم يبقَ من مستعجم في مرادهم  
فقلنا عليكم بالسيوف فإنها  
فإن يخفر الأعداء بيض عهدنا  
ألا شدَّ ماقد أصغرت من مقامنا

وشرح صدور الركب فوق متونها  
ولا حُرِبَتْ<sup>(١)</sup> إلا بطول هدونها  
سوى الأصل فيما كابدت من فتونها<sup>(٢)</sup>  
ولا مجد إلا بارتقاء حُزونها<sup>(٣)</sup>  
جَزوعًا لكرات الليالي بجونها<sup>(٤)</sup>  
بأصلابنا فرسان ما في بطونها<sup>(٦)</sup>  
رجعنا إلى آبائنا وشئونها  
ألم نكُ من ماء الأوالي وطينها؟  
بشاحطة الصحراء مدَّ هجينها  
مهامه لا تُلقي لهم بسفينها  
غضاب لدنيا المسلمين ودينها  
غدوا لبدا<sup>(٨)</sup> في عزم قطع وتينها<sup>(٩)</sup>  
ونبغي من الأعلاج سلَّ صُغونها  
وقصّر بالأعداء نصّ مابينها  
بأمةٍ صدقٍ أمعنت في ركونها  
لأفصح من أقلامنا برنينها  
فعند ذمام البيض<sup>(١٠)</sup> ردع خؤونها  
وما اقتحمنا في الغزاة لحينها

(١) حُرِبَتْ: أي ما سلبت ملكها إلا بفرط سكونها.

(٢) فتونها: الوقوع في الفتنة.

(٣) الحزون: ما غلظ وارتفع من الأرض.

(٤) الجون: ها هنا الأسود.

(٥) الصافنات: الخيل.

(٦) بطونها: أي أولادنا فرسان أولادها.

(٧) شأى: سبق.

(٨) أي اجتمعوا ولصق بعضهم ببعض، ومنه قوله تعالى في سورة الجن: ﴿كادوا يكونون عليه لبدا﴾.

(٩) الوتين: عرق القلب الرئيسي.

(١٠) البيض، الثانية: هي السيوف.

تناست سريعاً ما مضى من بلاتنا  
وظننت عروش الشرق مالت وأصبحت  
وأنّ زمان الثأر وافى فأوجفت<sup>(٢)</sup>  
فلم يزل الإسلام غصّاً<sup>(٣)</sup> بأهله  
وما رقرق القرآن ماءً طباعها  
فلا يغتري قوم بظاهر ليننا  
لنا من بني عثمان كلّ غضنفر  
فلسنا نباهي أن نحرنا سخالها<sup>(٥)</sup>  
فما اضطلعت بالسيف أيدي جنودها  
جحافل في سيف البحار تخالها  
ولولا الجوّاري المنشآت<sup>(٨)</sup> تمدّها  
لئن جرّدتها رومةً لحصارنا  
وفي كلّ يومٍ وقعة لجيوشها  
لقد طعمت ممّا جنّته وضيعة<sup>(١١)</sup>  
قد استوقدتها الحرب نار شكوكها

وأنا علّونا عاليات قُرونها  
كان لم يكن بين الصفا وحجونها<sup>(١)</sup>  
ألا خاب ما قد قدّمت من ظنونها  
ونيرانه لم تنطفيء بكمونها  
فهيهات يخشى من نضوب مَعينها  
فما الصّعدة<sup>(٤)</sup> السمراء هونا بلينها  
تخرُّ له أبطالهم لِدُقونها  
وقبلاً صرَعنا أسدّها في عرينها  
وان مهرت في الشحد أيدي قيونها<sup>(٦)</sup>  
من الدُّعر ورقاً عُكِّفاً في وكونها<sup>(٧)</sup>  
من اللجّ زجّت في مفاغر<sup>(٩)</sup> نونها<sup>(١٠)</sup>  
لقد أودعتها عندنا بسجونها  
تضيق بها بطحاؤها بدفينها  
تُخالط فيها جبنها بجنونها  
إذ العُرب وافتها بثلج يقينها

(١) أصبح مثلاً مضروباً، أصله قول الجرهمي:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا  
والحجون: مكان بمكة، بفتح الحاء ناحية البيت. قال الأعشى:  
فلا أنت من أهل الحجون ولا الصفا

(٢) أوجفت: خافت واضطربت.

(٣) الغصن: الطري الناضر.

(٤) الصّعدة: القناة (الرمح) المستقيم.

(٥) السّخال: مفرد سخل: هي صغيرة الشاة (القم).

(٦) القيون: الحدادون.

(٧) الورق جمع ورقاء، وهي الحمامة يضرب لونها إلى الخضرة؛ والوكون، جمع وكن، بفتح فسكون: وهو مأوى الطائر.

(٨) الجوّاري المنشآت: السفن.

(٩) المفاغر، جمع مفغر: يُقال واسع مفغر الفم، أي فتحة الفم.

(١٠) النون: الحوت.

(١١) الوضيعة: الحطيطة.

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولا لك حق الشرب من ماء زمزم

فدونكمو يا أيها العرب حملة  
وصونوا ذمار الملك شدا فلم يُملِ  
وهذي طُلَى<sup>(٣)</sup> الطليان تهفو إليكمو  
ستعلم أطرابلس أنا صحابها  
وكلّ ذراع عندنا من ترابها  
سلمت أمير المؤمنين لأمة  
تقيم بها في الحق حُكم أميرها  
ومن أمراء الشرق حولك عُصبة  
أعباس يا عَضُد الخِلافة والذي  
ويا سيفَ نصرٍ عاملاً في عداتها  
إذا اعتصمت في روعها من محمّد  
وإن جهمتها<sup>(٦)</sup> الحادثات فلم يزل  
إذا عالم الإسلام أولاك شكره  
تحنُّ إلى ناديك مُهْجَةٌ غائبٍ  
فإن تكُ ألت نجدة لقبيلها  
ولولا الحقوق الواجبات لما نبت  
تظلّ الدعاوى في المعالي كثيرة  
إلى مُلتقى الجمعين والسيف فاصلٌ  
هناك لنا في جانب الغرب إخوةٌ  
بَكِينًا لها نحن الألى ما تعودت

نزارية فاستسلموا لزبونها<sup>(١)</sup>  
سروج المطايا غير رِخْوٍ وضيئها<sup>(٢)</sup>  
سقوط ثمار الدوح من عن غُصونها  
وبرقة<sup>(٤)</sup> لا نرضى لعمرى بدونها  
كخالصة الأعلاق عند صُنينها  
محمّد طول الدهر نور عيونها  
وترعى لها بالرِفْق عهد أمينها  
سطاك كراسيها وشمّ حُصونها  
يُضَاء به في داجيات دجونها<sup>(٥)</sup>  
وقائمه لَمَّا يزل في يمينها  
بصاحبها منك اهتدت لمُعينها  
بعبّاسها بسّام نور جبينها  
فما لذّباب بُلغة بطنينها  
يُقطّعها في البُعد فرطُ حنينها  
فمثلك من يرض بربّ يمينها  
أماكن من أوطانها بمكينها  
وما كلّ باغٍ وُصلها بقرينها  
هنالك يُدرى غُثها من سمينها  
تسومهمُ البؤسى العدى بقُنونها  
مدامعهم في الخطب بذلّ مصونها

(١) يدفع بعضها بعضاً من الكثرة.

(٢) حزام السرج.

(٣) الطُلَى: الأعناق.

(٤) برقة: شبه جزيرة في ليبيا على خليج سرت.

(٥) داجيات دجونها: شدة ظلماتها.

(٦) جهمه: استقبله بوجه مكفهر.

فإن نحن قاررنا على صيِّمِ أهلنا  
 ترى النفس دينا وَقْفَةً في صفوفها  
 فما الشام والنيل السعيد ودجلة  
 ووالله لا أعطي المَقَاد لظالمٍ  
 إذا بات إخواني ببرقة سُهَّداً  
 فهيهات نرجو العزَّ من بعد هونها  
 قضاء عن الأرحام بعض دُيونها  
 سواها لدى أفراحها وشُجونها  
 ولما أُرِدُ بالنفس حوضَ مَنونها  
 فكيف تنام العين ملءَ جُفونها؟<sup>(١)</sup>  
 (عن مخيم عين منصور في ظاهر درنة، أول ربيع الأول سنة ١٣٣٠)



وفي أول حرب طرابلس الغرب واندفاع المصريين بمساعدة إخوانهم الطرابلسيين، أُقيمت في القاهرة سوق خيرية لشراء أشياء يعود ثمنها إلى المجاهدين والجرحى، وفي ذلك الوقت مثلوا في الأوبرا بمصر رواية "صلاح الدين الأيوبي"<sup>(٢)</sup>. وتُليقُ قصائد ثلاث: أحدها قصيدة لي تلوتها بنفسي، والثانية قصيدة للمرحوم "شوقي"، والثالثة قصيدة لشاعر القطرين "خليل مطران"، وقد فُقدت قصيدتي من بين أوراقِي، فأمليت منها ما لا يزال عالقا بخاطري وهو:

سلا: هل لديهم من حديثٍ لقادمٍ  
 وهل وردتهم عن كريمٍ مقامه  
 وهل نظروا من نحو بَرِّقة موهنا<sup>(٣)</sup>  
 تألق في ليلى ظلامٍ وقسطل<sup>(٤)</sup>  
 مواطن إخوان تملأوا من الردى  
 عن الغرب<sup>(٥)</sup> يروي فيه غلّة هائم؟  
 سِمان المعالي في لطف النساءم؟  
 فلاحت لهم منها بروق الصوارم؟  
 فتنشئُ سُحب الدمع من طرفِ شائم<sup>(٥)</sup>  
 كؤوساً تساقوها بملء الحلاقم

(١) هذا الشطر الأخير تضمين، أصله للأبيوردي في رثائه للقدس يوم فتحها الصليبيون، فهو يقول:  
 وكيف تنام العين ملء جفونها  
 وإخواننا بالشام صرعي مقيلهم  
 ولعلَّ "الهفوات" هنا تصحيف "جفوات"، فإنَّ الهفوات تُستعمل غالباً بمعنى الزلّات الخفيفة، ولم يكن إهمال بغداد للشام من هذا القبيل.  
 (٢) رواية "صلاح الدين الأيوبي" للكاتب اللبناني الشيخ نجيب الحداد، وقد قضى سنوات عديدة في مصر.  
 (٣) فيه تورية بين الغرب الذي هو الوطن المغربي، والغرب الدلو الذي يستلزم الري.  
 (٤) الوهن نصف الليل أو ما بعده.  
 (٥) شام: كَمَحَ أو رأى.

دفاعاً عن الأوطان إنَّ دفاعها  
تهيَّبهم فيها العدو مهاجماً  
وليئن في إقباله من إهابه  
فثاروا وما كانت زعانف رومة  
ونعم سقاة الموت هم كلما بدت  
وحسبك منهم كل قوم نمتهمو  
وكم وقفوا يستنصِفون عدوهم  
فلما رأوا عجز الدليل تطلَّبوا  
فلم يك مثلُ السيف كالיום قاضياً  
وما طال نوم السيف إلا تنبَّهت  
أخِلاي سوقٌ للمنايا مُقامةٌ  
فهل لكمو في سوق برٍّ ورحمة  
غياباً لمظلوم ونصراً لصارخ  
كفى بالهلال الأحمر اليوم هادياً  
وأكرم بأُمِّ المُحسِنين<sup>(٣)</sup> الذي طمى  
سليلة "إلهامي" فمَن كان جانبِ  
وأجدرِ بقومٍ أمطرتهم هياتها  
وحاشا بلاداً أنتم عن يمينها  
تخيَّلتها شوقاً على بُعد دارها  
لقد حوصروا برّاً وبحراً وأمطروا

لدى كلِّ قومٍ كان أولى المكارمِ  
فجاء ديب اللصِّ في ليل قاتمِ  
وهل يخدع الإنسان لِينُ الأرقامِ<sup>(١)</sup>؟  
من العرب أكفاء اللبوث الصِّراغمِ  
بروق المواضي في رُعود الغماغمِ<sup>(٢)</sup>  
أرومة قحطانٍ ونبعة هاشمِ  
وهزوا من الأملاك جذع المراحمِ  
لدى الصارم البتار صدق التراجمِ  
ولا العهد مثل الآن أحلام حالمِ  
عيون الدواهي منه عن جفن نائمِ  
تباع حفايفها غوالي الجماجمِ  
تنالون فيها باقيات المغانمِ  
وصمداً لمجروح وقوتاً لصائمِ  
لمن حار في ليل من الشك داهمِ  
جداها<sup>(٤)</sup> كُليج العيلم<sup>(٥)</sup> المتلاطمِ  
لها نسبٌ نحو البحور الخضارمِ  
بأن يأملوا قرب انفراج المآزمِ  
يُفت بأعضادٍ لها ومعاصمِ  
تُصافحكم بالقلب لا بالبراجمِ  
بحمُر المنايا من سواد الغمامِ

(١) الأرقام: نوع من الحيات الخبيثة.

(٢) الغماغم، مفردها الغمغمة: خليط أصوات الأبطال عند القتال.

(٣) والدة الخديوي السابق، وكانت بذلت بدلاً عظيماً لمساعدة الجرحى.

(٤) الجدا: العطاء.

(٥) العيلم: البحر.



وقد طالما أرهفت حدّ يراعتي  
أجل إننا من أمةٍ عربيةٍ  
ولو أنصف الأتوام في حقهم رأوا

فلما تعالى الخطب عُدت لصارمي  
نكافح عنها عاديات الأعاجم  
مؤاساتهم فرضاً على كل آدمي



وقبل الحرب العامة بسنة، جرى في الأستانة تمثيل رواية "صلاح الدين يوسف الأيوبي" باللغة العربية؛ وقبل التمثيل تليت قصائد منها قصيدة للأستاذ الكبير جميل صدقي بك الزهاوي العراقي، مبعوث بغداد يومئذٍ، ومنها قصيدة للأستاذ الكبير فارس بك الخوري السوري، مبعوث الشام يومئذٍ، ومنها هذه القصيدة لي. وإني لموصي قراء هذا الديوان بالتأمل في الأبيات الأخيرة منها، التي فيها الكلام على مصير البلاد الشرقية ليتأملوا كيف تمّ كل ما قيل:

إذا افتخر الشرق القديم بسيدٍ  
ونصّت موازين الفخار وقد أتى  
فمن كصلاح الدين تعنو لذكره  
يخالط أعماق القلوب ولاؤه  
وأقسم لو في الحيّ نودي بأسمه  
له عاملاً حربٍ، وسلّم، كلاهما  
مهنّده في عنق قرنٍ مساورٍ  
وما قتل الحرّ الأبيّ الذي زكت  
وما كلّ يوماً غضبه عن كرهه  
تظلّ طوال الوقت تندي سيوفه  
فكم من عدوّ قد تردّى بحربه

تميد بذكره ابتهاجاً محافله  
يماتن كلّ خصمه ويساجله  
رؤوس أعاديه ومن ذا يعادله  
وتفعل أفعال الشمول<sup>(١)</sup> شمائله  
لدى سنوات المحلّ لأخضرّ ماحله  
كفيلٌ بإذلال العدو وقاتله  
ومنته في عنق خصمٍ يُجامله  
سجايه كالعفو الذي هو شامله  
ولا ملّ من حلم ولو ملّ عامله  
دماءً وتندي جانبها فواضله  
قتيلاً وعاشت من نداء أرامله<sup>(٢)</sup>

(١) الشمول: الخمر عامة، والباردة منها خاصة.

(٢) نعم، فُتح بيت القدس بحرب تشيب الأطفال، ثمّ لما ثقف الإفرنج أسرى منّ عليهم وأطعمهم وكساهم، وقال لهم: كنت أفقر أن أفعل بكم ما فعلتموه بالمسلمين يوم دخلتم القدس، ولكن تأبى شيمى ذلك.

وفي الحرب قد تُخطي مراميه مرّة  
تفيض على بؤس العداة دموعه  
كأنّ الورى كانوا أهاليه جملةً  
ومن فهم الإنسان في الناس فهمه  
كذلك من كان التمدّن دأبه  
وليس كمن بات التمدّن يدعي  
تعلم أهل الغرب من يوسف العلي  
سلوا الشرق عن آثاره في غزاته  
مشى الغرب طراً قُضه وقضيضه<sup>(٣)</sup>  
مئات ألوف والفرنسيس<sup>(٤)</sup> وحده  
وريكارد<sup>(٥)</sup> قلب اللّيث في كلّ موقفٍ  
ومن أمة الألمان جيش عرمرم  
هي الأمم الكبرى وما ثمّ قيصر  
فصادمهم من نجل أيوب وحده  
حليف وفاءٍ لا يُضام نزيله  
له ثقة بالله ليست بغيره  
وقال وقد تُعي الجبال جموعهم  
تجمع كرات بعكّا عدوّه

وفي كلّ حال ليس يُخطيء نائله  
ولم يلف يوماً سائل الدمع سائله<sup>(١)</sup>  
فمهما يكن من بائس فهو كافله  
رأى أنّ كلّ العالمين عوائله  
سجّية صدق محضة لا تُزايله  
مقاولة قد كذبتّها مفاعله  
وإن بهرتهم في التلافي فضائله<sup>(٢)</sup>  
على حين كلّ الغرب صفّاً يُقابله  
وفارسه رامّ النزال وراجله  
غداً أمةً في الأرض إن صال صائله  
يؤازره في طولهِ ويُمائله  
يسير به من أبعـد الأرض عاهله<sup>(٦)</sup>  
سواها ولم تزحف إلينا جحافلُه  
فتى بهم جمعاً تميل موائله  
ولكنّه أمسى يُضام مُنازله  
ومن يرجُ غيرَ الله فالله خاذله  
ليفعل إلهي اليوم ما هو فاعله<sup>(٧)</sup>  
ومن تلّ كيسان<sup>(٨)</sup> تهّد صواهلُه

(١) سائل (الأولى): مائع الدمع وسيلانه؛ وسائل (الثانية): المستعطي، وهذا جناس تامّ.

(٢) كثير من مؤرّخي أوربة المُتصّفين قالوا إنّ صلاح الدين بعمله هذا أخجل أوربة أبد الدهر.

(٣) قُضهم وقضيضهم: جمّعهم.

(٤) فيليب أوغست، ملك فرنسة.

(٥) ريكارد قلب الأسد، ملك الإنجليز.

(٦) الإمبراطور فريدريك بربروس، عاهل ألمانيا.

(٧) أثنه الكتب من الشمال وهو يقاتل الصليبيين على عكّا، بأنّ ٢٠٠ ألف زاحفون إليه قد وصلت طلاّتهم إلى كيليكية، فلم يُهن له عزم من شدّة توكله على الله.

(٨) تلّ كيسان وتلّ العياضية إلى الشرق من عكّا كان فيهما مخيم صلاح الدين.

ويصطدم الجمعان حولين كلما  
ذرا برجال الشام شُمَّ جيوشهم  
وسَخَّر هاتيك المعازل كلها  
وسَلَّ عنه في حِطِين<sup>(١)</sup> يوماً عصبصبا<sup>(٢)</sup>  
وعن ملك الإفرنج وهو أسيره  
هنا انتصف الشرق الأصيل من الذي  
فهل كان مثل الشام حصناً لأمة  
ومن قصد الشام الشريف فإنه  
فبا وطني لا تترك الحزم لحظة  
وكنْ يَقِظاً لا تَسْتَنِمَ لمكيدة  
وكيدٌ على الأتراك قيل مصوب  
وتذكر قديم الأمر تعلم حديثه  
إذا غالت الجلى أخاك فإنه  
فليست بغير الاتحاد وسيلة  
وليس لنا غير الهلال مظلة  
ولو لم يفدنا عبرة خطب غيرنا  
سيعلم قومي أنني لا أغشهم

خَبَّتْ نار حرب أوقدتها مشاعله  
فعادوا كعصف بددته مأكله  
وليست سوى آي الكتاب معاقله  
غداة لواء الحق عَزَزَ حامله  
وأرناط<sup>(٣)</sup> إذ تبكي عليه حلائله  
أغار عليه واستطالت طوائله  
تمسَّى إليها الغرب تغلي مراجله  
ليعرفه قبل التوغل ساحله  
بعصرٍ أحيطت بالزحام مناهله  
ولا لكلام يُشبه الحق باطله  
ولكن لصيد الأمتين حبايله  
فكل أخيرٍ قد نَمَتُهُ أوائله  
لقد غالك الأمر الذي هو غائله  
لمن عاف أن تُغشى عليه منازلُه  
ينال لديها العزَّ من هو آمله  
لهانَ ولكن عندنا من نُسائله  
ومهما استطال الليل فالصُّبح واصلُه<sup>(٤)</sup>



ولما كنتُ في طبرية سنة ١٣٢٠، ذهبتُ إلى قرية حِطِين التابعة لطبرية لأجل مشاهدة  
الموقع، الذي دارت فيه رحى معركة حِطِين الشهيرة بين السلطان صلاح الدين يوسف،  
رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً، وبين الصليبيين. وبعد أن شاهدت حِطِين ولوبيا وقرون

(١) عند طبرية وفيها انتصر صلاح الدين في الوقعة الفاصلة وأسر ٣٠ ألف افرنجي، وقيل ٥٠ ألفاً والملك الإفرنجي غوي وجميع الأمراء.

(٢) عَصَبَصَب: شديد.

(٣) أرناط: برنس الكرك الذي كان قذف بالنبي (ص)، فنذر صلاح الدين ليقتلنه بيده، فلما وقع في أسره تولى قتله بيده.

(٤) نعم، وقد انتهى الليل وجاء الصُّبح وظهر أننا غششنا قومنا، وإنما حذرناهم من أن ينخدعوا.

حَطين التي جلس عندها السلطان بعد الظفر ولديه ملك الصليبيين ورفاقه وسائر الجيش الإفرنجي أسرى، نظمت القصيدة الآتية ونشرتها إذ ذاك في مجلة "المقتطف". ثم إنه من سنتين أعادت نشرها جريدة "الفتح" بمناسبة ذكرى وقعة حطين، وعلق الاستاذ ليث كتيبة الكتاب، السيد مُحِبّ الدين الخطيب عليها بعض تفاسير. فنحن نقلها هنا عن الفتح ونضم شيئاً من التفسير زيادة على ما علقه الأستاذ الخطيب.

أحسن ما فيه يسرح النظر	وإِ بحيث الأردن <sup>(١)</sup> ينفجر
غارَت عليه النجود من شغف	فالغور <sup>(٢)</sup> ما بينهنّ منحصر
قامت على الجانبين تخفّره	كذلك الحُسن شأنه الخفر <sup>(٣)</sup>
مبتديء الجري في الشمال لدى	شيخ له الكبرُ بات والكبر <sup>(٤)</sup>
حاوٍ إلى الموت في الجنوب لدى	بحر ولا كالبحار يُحتضر <sup>(٥)</sup>
ومن يعمّ البياض لمتّه	فهل سوى الموت بات ينتظر؟



يا شرق هونين <sup>(٦)</sup> كمّ لديك جرى	مَعين ماءٍ حَصباؤه دُرر
الشطرُ تلّ القاضي <sup>(٧)</sup> يسلسله	والشطر من بانياس <sup>(٨)</sup> ينحدر
والحاصباني بات إثرهما	يشتدّ في الجري ليس يصطبر <sup>(٩)</sup>

(١) الأردن (ويسمى نهر الشريعة) ينبع من سُفوح جبل الشيخ في الشمال، ويتكوّن من (الحاصباني) و (بانياس) و (اللدان)، ويخترق بحيرة الحولة وبحيرة طبرية ووادي الغور، وينضمّ إليه نهر (اليرموك) و (الزرقا) و (حسبان)، ثمّ ينصبّ في البحر الميت. وبه تنفصل فلسطين عن شرقي الأردن. وطول الأرض التي يمرّ بها من بحيرة طبرية إلى البحر الميت ١٠٤ كيلو مترات، ومن منبعه إلى مصبه ١٧٠ كيلو متراً، وطول مجراه بمنرجاته ٤٠٠ كيلو متر.

(٢) هو غور بيسان في جنوب طبرية بينها وبين نابلس.

(٣) تخفّره أي تحرسه، أمّا الخفر الثانية فهي الحياء (ش).

(٤) إشارة إلى جبل الشيخ الذي ينبع الأردن من سُفوحه، وسُمّي جبل الشيخ لأنّ قمته متّوجة بالثلوج صيفاً وشتاءً، وهذا الجبل على ٥٠ كيلو متراً من دمشق جنوباً وارتفاعه ٢٨٣٩ عن سطح البحر.

(٥) يُشير إلى البحر الميت الذي ينصبّ فيه نهر الأردن ويسمّى (بحيرة لوط)، وقد يعجب المرء كيف ينصبّ الأردن في بحيرة صغيرة ولا تفيض، وسرّ ذلك أنه يتخّرّ من ينايعها كلّ يوم ستة ملايين طنّ على ما يُقال، ونهر الأردن يُغذي البحيرة يومياً بمثل هذه الكمية من المياه.

(٦) جبل هونين هو الجبل الذي إلى الغرب من غور الحولة (ش).

(٧) منبع من منابع الشريعة.

(٨) بانياس مدينة قديمة في كعب جبل الشيخ، ينبع عندها القسم الآخر من الشريعة (ش).

(٩) في هذا البيت والبيتين قبله أسماء مياه وأماكن بين جبل عامل غرباً، والجولان شرقاً، وجبل الشيخ شمالاً، وبحيرة الحولة جنوباً، وهي بُقعة من أخصب بقاع الأرض وأجملها.

يملاً منها الأردنَ بركته  
حيث وشيخُ اليراعِ مشتبكٌ  
حيث نموّ النبات معجزةٌ  
والصيد ما إن يزال عن كذبٍ  
بُحيرة لم يرمِ<sup>(٤)</sup> بساحتها  
يممّ أخرى ورام ثالثةً  
أمّن جسر البنات معبره  
حتى إذا فاض من هناك غدت  
أرض علت ماؤه مناكبها  
أقبلَ يرغي وما به قطم<sup>(٥)</sup>  
حتى إذا ما مياهه اختلطت  
من بعد تلك الحياة بات به

ويزدهي مرجٌ حوله الخضرُ  
كأنما الخطُّ ثمّ والسمرُ<sup>(١)</sup>  
كأنما سوق قمحه الشجرُ  
لا كين<sup>(٢)</sup> من دونه ولا قترُ<sup>(٣)</sup>  
ضاق بها أن تقله الصغرُ  
لقد ترامت به نوى شطرُ<sup>(٥)</sup>  
وربّما خاض دونه الجسرُ<sup>(٦)</sup>  
أرض البطيحاء منه تزدهرُ  
وبات منها في البحر ينفغرُ  
وظلّ يعدو وما به بطرُ  
به تولاه بغتةً سُكرُ  
ميتاً وفي البحر يفرق النهرُ



بحر الجليل<sup>(٨)</sup> الذي شواطئه  
غذا دماء المسيح مورده  
وبين أمواجه وأربعه  
كَمُ فيه للكاتبين من سيرٍ

في كلّ شبرٍ من رَحْبها أثرُ  
وراقه منه ريقه النضرُ  
كانت تُجلى آياته الكبرُ  
وكَمُ نبيين فيه تُدَكّرُ

(١) الخطّ مكان في البحرين يُباع فيه الرّماح الخطّية، والسمرُ بفتح فضمّ شجر من العضاء في غاية القوّة.

(٢) الكنّ: السّتر.

(٣) القترُ، جمع قتره: هي ناموس الصائد.

(٤) أي لم يتوقّف بها لصفرها، وهي بركة الحولة.

(٥) نوى شطر، بضمّتين: بعيدة.

(٦) الجسر، الأولى: جسر بنات يعقوب؛ والجسر، الثانية: جمع جسور.

(٧) القطم: اشتهاه اللحم، وهو إشارة إلى قول المتنبي عن بحيرة طبرية:

والموج مثل الفحول مزبدة

تهدر فيها وما بها قطم (ش)

(٨) بحر الجليل: هو بحيرة طبرية، والأرض الممتدّة منها إلى حيفا تُسمّى أرض الجليل، وتتوسطها الناصرة التي وُلد سيّدنا عيسى فيها ونُسبَ إليها النصرارى.

عيسى حواريه وصفوته  
والصائدون الألى له أتبعوا  
وكفر ناحوم مع عجائبها  
والمجدل القرية التي نشأت  
والزهد فيه الأفراح قد دمجت<sup>(١)</sup>  
والخبز تقري الألو ف كسرتة  
والقول هذي الفتاة نائمة  
وكم نبت بالسفين عاصفة  
فسكن البحر وهو مضطرب  
سجا<sup>(٢)</sup> بإيماءة له ونجا  
في ضفتي هذه البحيرة لو  
كم خبأ الدهر في جوانبها  
ما الأبحر السبع من نتائجها  
وقوم موسى لهم بساحتها  
في طبريا مواقف حمدت  
بها رجال التلمود قد سكنوا  
وكم نبي في ذي البلاد قفا  
يكفيك ما في الأردن من عبر  
وإن يحيى<sup>(٣)</sup> على شواطئه  
ما القنج<sup>(٤)</sup> ما النيل في جوانبه  
والغور بين البحرين منبسط

والناس من حول وعظه زمر  
هدى وذاك الشراع منتشر  
ومن بها آمنوا ومن سفروا  
مريم منها والطيب منتشر  
والفقر معه البيان والفقير  
والمشي فوق المياه مشتهر  
والبكر عزريل نحوها بكر  
وظن أن الركب قد غبروا  
من بعد ما استصرخوا وما جأروا  
من حملته الألواح والدسر  
تبخر الفكر حارت الفكر  
وكم رمى فوق موجه القدر  
ما الروم ما الهند ثم ما الخزر؟  
مرقع صدق وأدمع غزر  
وأرضها مقدس ومغتفر  
وجل آرائهم بها زبروا<sup>(٥)</sup>  
موسى وكم مر ههنا الخضر  
نهر عليه آباؤهم عبروا  
بين يديه الأنام تطهر  
ما دجلة ما الفرات يُعتبر؟  
تسرح فيه الجاذر العفر

(١) دمج في الشيء: دخل فيه (ش).

(٢) سجا: سكن، ومنه قوله تعالى: ﴿والليل إذا سجا﴾، وقد سردنا هنا معجزات سيدنا عيسى، عليه السلام، حسبما هي في الإنجيل (ش).

(٣) زبروا: كتبوا.

(٤) يحيى هو الذي يُسميه النصارى يوحنا المعمدان، كان يعمد بماء الأردن.

(٥) القنج: يريد نهر الغانج "Ganga" في الهند.

لو طبّقته أيدي الوري عملاً  
قد كان والماء غابراً شرعاً  
بُحيرةٌ كلّ شأنها عجبٌ  
لله دَرّ الكِنديّ واصفها  
كانت تحفُّ الجنان دُورتها  
مِرآة نورٍ من السُفوح لها  
كانها في صفائها فلكٌ  
أجمدٌ بقوم رأوا محاسنها  
عند الشمال الأردنّ واردها  
شريعة من مياها ظهرت  
عَلَّمَ عيسى هنا شريعته  
وفي حروب الصليب قد رفعت

على فلسطين فاضت الميرُ  
والآن ما إن يكاد ينحسرُ  
وهي من الحسن كلّها غررُ  
كانها في نهارها قمرٌ<sup>(١)</sup>  
والآن تحتفّ دورها السُدْرُ<sup>(٢)</sup>  
إطار نورٍ لم تحكهِ الأطرُ<sup>(٣)</sup>  
وفلُكها فيه أنجم زهرُ  
يوماً فما أنشدوا ولا شعروا  
وفي جنوبيّها له صدرُ  
وقد تلتها شرائعٌ أُخرُ<sup>(٤)</sup>  
وقوم موسى تورّاتهم فسروا<sup>(٥)</sup>  
أعلام دين الذي نمت مُصرُ<sup>(٦)</sup>



يا يوم حطين كم حطّطت من الإ  
هبّوا من الغرب كالجراد فلم  
واستفتحوا القدس والبلاد ولم  
وهدّدوا المسجد الحرام وكم  
وكاد يبكي الميزاب فيه دمًا

فرنج شأنًا ما كان ينكسرُ  
يكنّ لشرقٍ بردهم قُدْرُ  
يعص عليهم بدوٌ ولا حضْرُ  
دعا مُلبٍ فيه ومُعتمِرُ  
ورقٌ ممّا أصابنا الحجرُ

(١) قال المتنبّي في وصف هذه البحيرة:

كانها في نهارها قمر

(٢) ليس حول هذه البحيرة اليوم جنان، وأنما حولها كثير من شجر السُدْر، والسُدْر بكسر ففتح جمع سدره (ش).

(٣) المتنبّي يقول:

فهي كماوية مطوّقة جرد عنها غشاوها الأدم

وقولي: مِرآة نُور بضمّ النون، وإطار نُور بفتحها، أي أنّ البحيرة مِرآة نُور بصفاء مائها وقد أحيطت بإطار من الزهر (ش).

(٤) ينحدر إلى الشريعة أي الأردنّ نهر اليرموك، ويُقال له شريعة حوران وأنهر أُخر (ش).

(٥) تخفيف التشديد لضرورة القافية.

(٦) مُصر: قبيلة عربية عدنانية؛ هي أخت ربيعة.

ونابت المسلمين داهية  
فكلّ كفّ أصابها شللٌ  
وكلّ جمع ناواهم انقلبت  
وحوصرت جلق<sup>(٢)</sup> ولو أخذت  
وقيل دار الإسلام قد حصرت  
ما زال ملء القلوب رعبهم  
حتى تولّى زنكي<sup>(٣)</sup> فنازلهم  
طليعة النصر في ولاية نو  
مُجاهدٌ ماهدٌ بخطته  
تقرّ عين النبيّ سيرته  
ثمّ ابن أيوب<sup>(٤)</sup> جاءه خلفاً  
مهّد دار المعزّ<sup>(٥)</sup> فانقلبت  
لما استقامت له الأمور ولم  
أقبلَ في جحفَلٍ له لَجَبٌ  
بفتية سمرهم إذا عشقوا  
غير طعان النُحور ما عرفوا  
أناخ في شاطئ البحيرة إذ  
فقام من أرضه لصدّهم

دَهْمَاءٌ قَدْ عَمَّهُمْ بِهَا الدُّعْرُ  
وَكُلَّ عَزْمٍ أَصَابَهُ خَوْرٌ  
فِرْسَانُهُ وَهِيَ لِلظُّبَى جَزْرٌ<sup>(١)</sup>  
لَمْ تَبْقَ مَدَنٌ لَنَا وَلَا مَدْرٌ  
وَحَفًّا بَاقِي بِلَادِهِ الْخَطْرُ  
وَلَمْ يَكُنْ نَافِعًا لَهَا الْحَذْرُ  
وَكَانَ مِنْ شِيرَكُو<sup>(٤)</sup> لَهُ وَزْرُ  
رِ الدِّينِ<sup>(٥)</sup> مَلِكٌ بِالْعَدْلِ يَأْتِزِرُ  
فِي الْفَتْحِ وَالْعَدْلِ سَارَتِ السَّيْرُ  
وَيَرْضِي مِثْلَ هَدِيَةِ عُمَرُ  
وَلَيْسَ إِلَّا سُورُجُهُ سُرُرُ  
يُوسُفَ مِصْرَ وَهِيَ تَفْتَخِرُ  
يَبْقَى رَقِيبٌ وَأَنْجَابُ الْعُمُرُ  
يَطْلُبُ ثَارَ الدِّينِ الَّذِي وَتَرُوا  
سُمُرَ صِعَادٍ وَبِيضَهُمْ بُتْرُ  
وغير جرد الخيول ما زجروا<sup>(٨)</sup>  
إليه عن كلّ ناجذٍ<sup>(٩)</sup> كَشَرُوا  
فِي لَسَهْلِ مِنْ لُوبِيَاءَ<sup>(١٠)</sup> وَاشْتَجَرُوا

(١) جزر السباع: اللحم الذي تأكله؛ قال: جزر السباع وكلّ نسر قشعم.

(٢) جلق: دمشق وحاصرها الصليبيون وعجزوا عنها.

(٣) هو عماد الدين زنكي، والد الملك نور الدين.

(٤) أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان أسد الدين، عم السلطان صلاح الدين.

(٥) أي الذي من ملوك الإسلام بدأ بقهر الصليبيين هو نور الدين زنكي.

(٦) هو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي.

(٧) أي القاهرة المعزية، نسبة إلى معز دين الله الفاطمي.

(٨) إشارة إلى قول المعري:

إذ تعرف الناس زجر الخيل ما عرفوا

يا ابن الألى غير زجر الخيل ما عرفوا

(٩) الناجذ: الضرس.

(١٠) لوبياء: قرية غربي طبرية وقبلي حطين (ش).



يوم تلاقى الجمعان والتظت الهيجاء حتى كأنها سقر<sup>(١)</sup>  
يوم تلاقى الجمعان وانتصب الميزان رهن انحرافه الظفر<sup>(٢)</sup>  
الشرق والغرب بعد طول وغي  
ثلاثة والنزال بينهما  
فأمطرتهم قسي جيش صلا  
ودوا وقد أبصروه عارضهم  
كأنما قومنا وقد ثبتوا  
كأنما قومنا وقد ثبوا  
ذاق العدى من سلاف طعنهم  
لما بدا الأمر غير ما حسبوا  
ولوا ظبي يوسف ظهورهم<sup>(٣)</sup>  
ضياغم أجفلوا وقد نظروا  
وأدبر القمص<sup>(٤)</sup> مع فوارسه  
لا عجب أن نجا وحيط به  
مالوا لحطّين طالبين نجا  
وأسفر السبت عن هزيمتهم  
وفوق ذلك الصعيد نائمهم  
والهيكليون<sup>(٥)</sup> من قساورهم  
لم يجبنوا ساعة وإن خذلوا

(١) سقر: من أسماء جهنم.

(٢) النشاب سد الأفق ذلك النهار (ش).

(٣) الحمر، الأولى: جمع أحمر؛ والحمر، الثانية: جمع حمار الوحش.

(٤) القمص: كونت طرابلس، فر يومئذ بسمين فارساً قبل نهاية القتال (ش).

(٥) أي لم يقدّمهم لا ميل ولا فرار.

(٦) الملك غوي، ملك القدس.

(٧) هم الذين كان يُقال لهم "التاميلية"، وكان لهم نظام خاص، وقاموا بدور عظيم في الحروب الصليبية (ش).

في حضرة من سُعيب قد شعبوا  
 فأزلفوا نحو يوسف خُضْعًا  
 ترهقهم ذُلَّةٌ وتحسبهم  
 يوسف عصرُ صلاحِ مملكةٍ  
 أصبح مُستخِيًّا دماءهم  
 أبى عليه الإباء مصرعهم  
 عفواً به عمهم وأخرج مَنْ  
 وقى بأرناط<sup>(٢)</sup> نذره بيداً  
 وقال إذ تله بصارمه  
 أزوجَ بين التهليل مُهجتَه  
 فأصبح الملك وهو مرتجفٌ  
 أبصر جسم البرنس منعفراً<sup>(٣)</sup>  
 فأفرخ الروع منه ساعة إذ  
 عوقبَ بالأسر موقن بردي

كذا لهم عن مزاره زور<sup>(١)</sup>  
 رقابهم، ناكساً لهم بصراً  
 قوماً سُكاري كأنهم حُشروا  
 بكلّ أمرٍ للبير مؤتمراً  
 حياؤه والخلائق الزهُرُ  
 وعفّ إذ عفّ وهو مُقتدرُ  
 بنكته السهل ضاق والوعرُ  
 إذ طالما لم يحك به النذرُ  
 ها أنا ذا للنبي أنتصر<sup>(٣)</sup>  
 مخضوبة صارماً هو الذكّرُ  
 ما شكّ أنّ بالحسام يبتدرُ  
 فقال إثرَ البرنس اقتفِرُ  
 بُشّر أن لن يُصيبه ضررُ<sup>(٥)</sup>  
 وجُلّ ملكاً مع العمى العورُ



وَقَعَة قَرْنِي حِطِّين مُدَّ ظَهْرُوا  
 وَكَلَّ فَتَحَ مِنْ بَعْدِهَا خَبْرُ

قاصمة الظهر للفرنج غدّت  
 كأنّ علياً حطّين مبتدأ

(١) قبر شعيب في قرية اسمها الخيارة بجوار حطّين.

(٢) أرناط كان فرعون الصليبيين، وكان ملك الكرك والشويك في شرق الأردن، وإنما قتله صلاح الدين بيده لأنه أطال لسانه بحق النبي، صلى الله عليه وسلّم، وكان كثير الغدر عظيم الجرائم.

(٣) كان صلاح الدين استاب البرنس أرناط مراراً، وكلّ مرة ينكث إلى أن أسر الحجّاج وجسهم في قلعة الكرك، وقال لهم ادعوا محمّداً يخلّصكم. فاستحلف المسلمون صلاح الدين بأن لا يعفو عنه إذا وقع، فلما وقع في حطّين قال له صلاح الدين: أنا أقتص منك لمحمّد، وقتله بيده (ش).

(٤) انعفر في التراب: تمرغ.

(٥) عندما رأى الملك غوي مصرع أرناط اعتقد أنّ الدور سيصل إليه فارتجف، فسكّن صلاح الدين روعه وأخبره أنه ما قتل أرناط إلا بعد نذره لكثرة نكته وغدره (ش).

حظّ ابن أيوب أن يفوز بها  
 وحظّ جيش لبيّ النداء غدت  
 قوم أراحوا الأقسام إذ تعبوا  
 بهم جدود الإسلام قد صعدت  
 ولابن شاذي ذكر شذاه سرى  
 قام وجه الإفرنج منفردًا  
 حتّى استردّ البلاد أكثرها  
 كانت مئات الحصون تعصمهم  
 من كلّ حصنٍ أطاق عرّتهم  
 استعصمت صور في معاقلها  
 من فرط ما عمّهم برأفته  
 فامتنعوا كلّهم بعقوتها<sup>(١)</sup>  
 إنّ عيب بالحلم والوفا بطل  
 ما شان طول الأناة في رجلٍ  
 قد كان في رقّة وفي جلدٍ  
 جمرة بأسٍ ما شابها وهل  
 ما كان يلدي من الوغى ضجرًا  
 حتّى تميط العوار أجمعه

والله من خلّقه له أثرُ  
 في اللوح مكتوبة له الأجرُ  
 وقد أناموا الأنام إذ سهروا  
 من بعد ما كان أهله عشروا  
 في كلّ قطر كأنه القطرُ<sup>(٢)</sup>  
 والقوم من كلّ أمةٍ جمروا<sup>(٣)</sup>  
 وأصبح القدس دان والصخرُ  
 منيعة إذ تُغورنا ثغرُ  
 بالسيف لم يمّش نحوهم خمّرُ<sup>(٤)</sup>  
 وكلّ طرفٍ به لها صوّرُ<sup>(٥)</sup>  
 وقلّته فلهم وقد كثروا<sup>(٦)</sup>  
 فهي لهم ملجأ ومعتصرُ  
 فإنّه خير ما هفا البشرُ  
 إن لم يكن شان باعه القصرُ  
 كالسيف في ماء حدّه السررُ  
 غمرة حلمٍ ما شابها كدرُ؟  
 والكلّ في الجانبين قد صَجروا  
 ماهان من كان همّه العسرُ

(١) العود يتبخّر به.

(٢) لم يكن في وجه الصليبيين إلاّ صلاح الدين برجال الشام والجزيرة الفراتية ومصر، والحال أنّ الفرنسيين والإنجليز والطلّبان وغيرهم كانوا لبدًا على المسلمين في تلك الحروب (ش). [وجمر القوم: جمّهم].

(٣) مشى إليه الخمر محرّكة، أي متوارياً (ش).

(٤) الصوّر: الميل والعوج.

(٥) عفا صلاح الدين عن عشرات ألوف من أسرى الصليبيين من حبّه بالعمو، فتجمّعوا في صوّر وكثرت جموعهم، فأصبح لا يقدر أخذها مع أنه كان استردّ أكثر البلاد، ثمّ عادوا فزحفوا منها إلى عكّا وأخذوها بعد حرب استمرّت سنتين وهي الصليبية الثالثة، وقلّته مثل أفلته (ش).

(٦) العقوة: ما حول الدار، أو الساحة والمحلّة.

أَمَّنْ دَارَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ عَنَا<sup>(١)</sup>  
لَمْ يَلْهُهُ عَنِ تُغُورِ مَمْلَكَةٍ  
وَكَانَ مِنْ حَرَمَةِ الْعَدُوِّ لَهُ  
تَغْدُو عِظَامَ الْمُلُوكِ<sup>(٢)</sup> وَاقْفَةَ<sup>(٣)</sup>  
وَيَنْحَنِي حَاسِرًا بِتَرْبَتِهِ  
شَهَادَةَ مِنْهُمْ لَخِصْمِهِمْ  
وَالْفُضْلَ يَحْيَا مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ  
وَنَحْنُ مِنْ بَعْدِ كُلِّ ذَاكَ وَذَا

كَذَلِكَ الشَّهْدُ دُونَهُ الْإِبْرُ  
تُغْرٌ وَلَا نَاطِرَ بِهِ حَوْرٌ  
أَنَّ ذِكْرَهُ فِي بِلَادِهِمْ عَطْرٌ<sup>(٤)</sup>  
بِبَابِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ نُخْرٌ  
رَأْسَ بِأَعْلَى التَّيْجَانِ مُعْتَجِرٌ<sup>(٥)</sup>  
وَالْحَقُّ كَالشَّمْسِ لَيْسَ يَسْتُرُ  
وَالذِّكْرُ يَبْقَى وَلَوْ عَدَّتْ غَيْرُ  
لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالسَّمْرُ!

(١) عنا: عناه وتعَب.

(٢) لا يذكر صلاح الدين في جميع أوربة إلا مقرونًا ذكره بالإجلال.

(٣) إشارة إلى زيارة القيصر ويلهم الثاني، عاهل ألمانيا، لمرقدته في دمشق ووضعه تاجًا عليه، ولما دخل الإمبراطور إلى مقام صلاح الدين دخل حاسرًا عن رأسه وانحنى أمام القبر حُرْمَةً وتعظيمًا (ش).

(٤) أصل الاعتجار للعمامة، ولكننا أجرينا التاج هنا مجراها (ش).

## ذكري الأندلس

نظمتها لما شاهدت مسجد قرطبة في سياحتي إلى الأندلس سنة ١٩٣٠:

لك الله إن شئت الصبوح فبكرٍ  
وغنّ على ذكري الليالي التي خلّت  
فقد تعجبُ الذكري ولو لفجيرةٍ  
ولولا المراثي والمآقي وراءها  
تقصّت لبانات<sup>(٣)</sup> الرجال من الجوى  
لعمرك لا يرجى لنشأة مُقبلٍ  
وما هذه الدنيا سوى متقدّم  
أدبرها تردُّ الرُّشد في عقل ذاهبٍ  
وتُحيي لنا عهدًا يصبو عِهَادُهُ<sup>(٤)</sup>

بكأسِ دِهاق<sup>(١)</sup> من حُميا التذكّرِ  
قصائد إن تُنشد على الميت يُنشرِ  
ويشفي أوار<sup>(٢)</sup> الصدر فرطُ التحسّرِ  
لأفنى الوري حرُّ الأسي المتسعرِ  
بتذكار ماضٍ أو إثارة مُضمّرِ  
ومستقبل من لم يفكر بمُدبرِ  
يُكرّر تجديدًا على متأخرِ  
وتذهب عقلَ الراشد المتبصرِ  
منازل قلبٍ من هوى الذكر مُقفرِ



وكائنة لم يعرف الدهر أختها  
يكاد الذي يقرأ غريب حديثها  
يقولون كانت أمة عربية  
وقد عمّرت أقطار أندلس بهم  
وكم أربع خضر وحرث مطبقٍ  
وكم قائد قرم وجندٍ مُدربٍ  
ولا حدثت عن مثلها كتب مُخبرِ  
يظنّ خيالاً أو أحاديث مُفترِ  
بأندلس سادت بها جمّ أعصرِ  
فكم بلدٍ فخمٍ ومصرٍ مُمصرِ  
وفاكهةٍ رَغْدٍ وزهرٍ مُنورِ  
وكم سائسٍ فحلٍ وأمرٍ مُدبرِ

(١) كأس دِهاق: بمتلثة.

(٢) أوار النار: لهيبها.

(٣) اللبانة: الحاجة من غير فقر؛ وقضى لبانتة: حاجته.

(٤) العهاد: أول مطر الربيع، ويريد المطر.

وَكَمْ بَطْلٌ إِنْ ثَارَ نَقَعُ رَأَيْتَهُ  
 وَمَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَرَأْيٍ وَحِكْمَةٍ  
 إِلَى شَمَمٍ جَمٍّ وَمَجْدٍ مُؤْتَلٍ  
 نَعَمَ كَانَ فِيهَا مِنْ نَزَارٍ وَيَعْرَبٍ  
 فَرَاخَتْ كَأَنَّ لَمْ تَفْنِ بِالْأَمْسِ وَلِقَضَى  
 كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونَ إِلَى الصِّفَا  
 كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ فِي أَرْضِ أُنْدُلُسٍ لَنَا  
 فَمَاذَا الَّذِي أَخْنَى عَلَيْهَا وَمَا الَّذِي  
 إِذَا أَعْمَلَ الْمَرْءُ الْبَصِيرَةَ لَمْ يَجِدْ  
 خِلَافَانَ هَذَا بَيْنَ قَيْسٍ وَيَعْرَبٍ<sup>(١)</sup>  
 وَلَا شَرٍّ يَحْكِي شَرَّ حَرْبٍ إِذَا التَّقَتْ

يَبِيعُ بِأَسْوَاقِ الْمَنَايَا وَيَشْتَرِي  
 وَدَرَسَ وَتَحْقِيقَ وَقَوْلٍ مُحَرَّرٍ  
 وَفِي عِزَّةٍ قَعَسَا وَوَفَّرٍ مُؤَفَّرٍ  
 جَمُوعَ تُخِيلُ الْأَرْضَ فِي يَوْمِ مَحْشَرٍ  
 لَهُمْ كُلِّ رَكْزٍ غَيْرِ ذِكْرِ مُعْطَرٍ  
 أَنْيَسَ وَلَمْ يَسْمَرَ هُنَاكَ وَيُسْهَرِ  
 جِحَافِلٍ إِنْ تَحْمَلُ عَلَى الدَّهْرِ يُدْعَرِ  
 رَمَاهَا بِهَذَا الْخَسْفِ بَعْدَ التَّصَدُّرِ؟  
 لَهَا عِلَّةٌ غَيْرُ الْخِلَافِ الْمَتَبَّرِ<sup>(١)</sup>  
 مُقِيمٍ وَهَذَا بَيْنَ عَرَبٍ وَبَرْبَرٍ<sup>(٢)</sup>  
 صِنَادِيدُ قَيْسٍ مَعَ غَطَارِيفِ حَمِيرٍ<sup>(٤)</sup>



لِعَمْرِكَ لَوْلَا الْخِلَافُ لَمْ يَكُ مَشْرِقٌ  
 لَقَدْ عَصَفَتْ فِي شَقَّةِ الْغَرْبِ رِيحُهُمْ  
 فَقَدْ أَتَلَوْا فِي أَرْضِهَا مَدْنِيَّةً  
 وَسَوَّوْا جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِعَدْلِهِمْ  
 وَلَا عَارِضُوا فِي دِينِهِ غَيْرَ مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup>  
 وَلَا نَصَبُوا دِيْوَانَ تَفْتِيشِهِمْ عَلَى

وَلَا مَغْرَبٌ يَعْصِي عَلَيْهِمْ وَيَجْتَرِي  
 فَسَادَتْ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ رِيحُ صَرْصَرٍ<sup>(٥)</sup>  
 تَرَى الْخِصْمَ فِي عَلَيَاتِهَا لَيْسَ يَمْتَرِي  
 وَمَنْ يَتَمَسَّكَ بِالسُّوَيْتَةِ يَعْمُرِ  
 وَلَا عَامَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بِمُنْكَرٍ  
 عَقَائِدِ أَقْوَامٍ يَجُوسُ وَيَفْتَرِي<sup>(٧)</sup>

(١) تبرأه أهلك ودمر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَتُوبُوا مَا عَلُوا تُبِيرًا﴾.

(٢) الحروب بين المضربة واليمينية لم تكن تنقطع، وكان العدو يستفيد منها كلها.

(٣) أول فتنة بين العرب والبربر كانت السبب في ذهاب شمالي الأندلس، ثم جاءت فتنة قرطبة بين الفريقين فكانت هي مبدأ الانهيار.

(٤) قيس وحمير: قبيلتان عربيتان؛ وحمير وطنها القديم، اليمن.

(٥) ريح صرصر: ريح شديدة.

(٦) يعترف الإفرنج أن مسلمي الأندلس أيام سلطانهم تركوا للنصارى واليهود حرمتهم الدينية على الوجه الأكمل.

(٧) ديوان التفتيش الذي نصبته الكنيسة الكاثوليكية على المسلمين الذين أكرهوا على التنصر، وكانوا يحرقون من أشبه فيه أنه باقياً في الباطن على إسلامه.

ولا أحرقوا بالنار مَنْ قِيلَ إِنَّهُ  
بذلك هاتيك الممالك أصبحت  
وقد صار نهر الرون<sup>(١)</sup> ثغر بلادهم  
وَسَكُّوا لِوَاهِمٍ فِي ذَرَى قَرْشَنَةٍ<sup>(٢)</sup>  
ودانت لهم صِيْدُ الْجَلَالِقَةِ<sup>(٣)</sup> الْأُلَى  
ولم يقف البشكنس<sup>(٤)</sup> في وجه زحفهم  
وإن يَكُ لاقى الغافقيُّ<sup>(٥)</sup> حِمَامَهُ  
فقد لبثت من بعد ذلك جيوشهم  
يقول الألى قد شاهدوا غزواتهم  
وصقر قُرَيْشٍ<sup>(٦)</sup> حين جاء مشردًا  
وشاد بهاتيك القواصي إمارة  
وخلّف أملاكًا سموا وخالقًا  
كفى بالإمام الناصر<sup>(٧)</sup> الفدّ عاهلاً  
تُقَبَّلُ أَمْلَاكُ الْفَرَنْجَةِ كَفَّهُ  
غداة تجلّى للخلافة رُونُقٌ  
وأضحت بها الزهرا تَمِيدُ جَمُوعِهَا  
تلعثم فيه كلّ ربّ فصاحةٍ

على صِلَة مع دِينِهِ بالتسْتُرِ  
مِثَالاً قَوِيماً للعلی والتَّحْضُرِ  
وَكَمْ صبغوه في الجهاد بأحمرِ  
وَسَلُّوا على نربونة<sup>(٨)</sup> كلّ أبتَرِ  
بلى<sup>(٩)</sup> منهم الرومان كلّ غضنفر<sup>(١٠)</sup>  
ولا أوطأوا الجرمان ثغرة معورِ  
ومحصّ في يوم البلاط المقدّرِ  
تعرّضُ دهرًا للفرنج وتنبري  
هم العرب فوق الخيل أمّ جنّ عبقرِ؟  
فأنشب فيهم أيّ ظفر مظفرِ  
لها أجفل المنصور والدّ جعفرِ  
أسود عرين منهم كلّ مُحدرِ  
كسى أمة الإسلام حلّة مفخرِ  
ويقصد عالي بابهُ وفدّ قيصرِ<sup>(١١)</sup>  
به ظهر الإسلام أروع مظهرِ  
فيا لك من يومٍ أغرّ مشهرِ  
فعيوا سوى قاضي الجماعة<sup>(١٢)</sup> مُنذرِ

(١) النهر الذي يخرج من سويسرة يشقّ فرنسا وينصبّ عند مرسيلية.

(٢) مدينة مُحَصَّنَةٌ في جنوبي فرنسا، استولى عليها العرب ٤٨ سنة.

(٣) العرب يسمّون نربونة أربونة، وكانت مركز قوتهم في جنوبي فرنسا.

(٤) أهل جليقية في شمالي إسبانية.

(٥) بلى وبلا: بمعنى اختبر وجرب.

(٦) الغضنفر: الأسد.

(٧) الجيل الذين منهم في إسبانية وفرنسا، ويُقال لهم الباسك.

(٨) عبد الرحمن الغافقي، قائد العرب في وقعة بواتيه الشهيرة، والعرب يُسمونها بلاط الشهداء.

(٩) عبد الرحمن الداخل الأموي.

(١٠) عبد الرحمن الناصر.

(١١) يوم جاء وفد صاحب القسطنطينية.

(١٢) منذر بن سعيد البلوطي.

ولا تهمل المُسْتَنْصِرَ<sup>(١)</sup> الحكم الذي  
غدت قبة الإسلام قرطبة العلى  
وبارى بنى العباس فيها أُميَّةُ  
وكان بها العمران يزخر مثلما  
ولمّا رأيت المسجد الجامع الذي  
عضضت على كهي بكلّ نواجذي  
هو الجامع الطامي العُباب بوقته  
ظللت به بين الأساطين سائحا  
تخيّلته والذكر يُتلى خلاله  
تأمل خليلي كمّ هنا من مهلّلٍ  
وكمّ أزهرت فيه ألوف مصابحٍ  
وكمّ قارئٍ بالسبع في وسطه حلقةٍ  
وكمّ عالمٍ يُلقى على الجمع درسه  
وكمّ ملكٍ ضخم وكمّ من خليفة  
تسدّ فجاج المغرّبين جيوشه  
خليلي تأمل كالعرائس تنجلي  
أساطين من صمّ الجماد موائلٌ  
تراها صفوفًا قائمات كأنها  
من العمُد الأسنى<sup>(٥)</sup> فكلّ يتيمةٍ  
أجادت تحريها قُرومُ أُميَّةٍ

تلاه ومن يستنصر الله ينصر  
وسارقت الزوراء لحظة أزور<sup>(٢)</sup>  
وجروا على بغداد ذيل التبخر  
تلاطم أمواج الخضم المهدر  
بقرطبة من فوق فوق التّصوّر  
وقلت لعيني اليوم دورك فاهمري  
يحاكي به عمّاره لُجّ أبحر  
بفكري حتى غاب عني محضري  
نظير دويّ النحل من كلّ مصدر  
إلى ربّه صلّى وكمّ من مكّبر  
وكمّ أوقدت أرتال عودٍ وعنبر  
وكمّ خاطب بالسجع من فوق منبر  
وكمّ واعظٍ يمري<sup>(٣)</sup> مدامع محجّر  
هنا كان يجثو عن جبين معقّر  
ويبدو هنا في ثوب أشعث أغبر<sup>(٤)</sup>  
أساطين قد تُحصى بألف وأكثر  
يذوب لها قلب الحنيف المفكّر  
حدائق نصّت من جمادٍ مشجّر  
لها نسب من مقطع متخير  
معادن شتى من فيلز<sup>(٦)</sup> ومرمر

(١) الخليفة المستنصر بن الناصر.

(٢) الزوراء: كنية بغداد.

(٣) مرى الصرع: استدره.

(٤) كان الخليفة الناصر قد يأتي إلى المسجد بثوب خلق تواضعًا منه لله تعالى.

(٥) العماد ما يعمد به، وجمعه عمُد بضمّين، وعمد محرّكة اسم الجمع.

(٦) الفلزّ بتشديد آخره هو الحجارة، وقيل هو اسم جامع لجواهر الأرض.



نبتُ دونها زرق الفؤوس وأصبحت  
ولكن لفضل الفن ألت قيادها  
فبيننا هي الصمّ الصّلاذ إذ انثت  
عرانس للتخريم فوق رؤوسها  
ووجه إلى المحراب طرفك ينسرح  
وحدق بهاتيك النقوش وزهوها  
وبالقبة العلياء يبدو شعاعها  
لو أن الثريا في سماها تعرّضت  
أقول لخصم يبخر العرب حقهم  
ويا سائحًا يبغي مآثر قومه  
تطوّف فلا تلقاك غير بدائع  
تطلع فلا تلقاك غير روائع  
خليلي فما فحص السرادق<sup>(٢)</sup> نائياً  
وهذي رسوم للمنيف<sup>(٤)</sup> ومؤنس<sup>(٥)</sup>  
وكان هنا قصر دمشق<sup>(٦)</sup> وأنه  
وزاهرة المنصور<sup>(٧)</sup> لا شك جنة  
وسائل عن المنصور نجل ابن عامر  
غزا في العدى ستاً وخمسين غزوة

لدى الفري تهزا بالحديد المعصفر  
فصالت بها الصنّاع صولة عتري  
مقاطع جبن أو قوالب سكر  
أكاليل دُرّ في قلائد جواهر  
من الصخر في مثل الطراز المحبر  
كأن فاتها صنّاعها منذ أشهر  
بألمع من زهر النجوم وأزهر  
لظلت تحدى للثريا وتزدرى  
أجاحد نور الشمس دونك فانظر  
وينشدها في كل سهل وموعر  
يميل إليها كل عطف مخصر  
لها الليث يرنو عن لواحق جؤذر<sup>(١)</sup>  
وهذا براس الطور حُصن المدور<sup>(٣)</sup>  
وقصر السرور الدارس المتبعثر  
يطاول عليا بعلبك وتدمر  
تمدّ من الوادي الكبير بكوثر  
يجابك عنه كل قوس مؤتر  
وأض<sup>(٨)</sup> بها طراً بنصر مؤزر

(١) أي مهما قسا الإنسان، فلا بدّ له من أن يرق لتلك المناظر.

(٢) فحص السرادق هو من أشهر ضواحي قرطبة.

(٣) المدور: حُصن من عمل قرطبة، يمرّ حذاءه قطار الحديد.

(٤) من قصور قرطبة.

(٥) المؤنس ودار السرور هما أيضاً من قصور قرطبة.

(٦) دمشق هو أيضاً من قصور قرطبة.

(٧) كان للمنصور بن أبي عامر قصر اسمه الزاهرة، قلّد به عبد الرحمن الناصر في الزهراء.

(٨) الأض: الجهد والمشقة.

خليلي وعرج بالهور<sup>(١)</sup> فإنه  
وهذي التي كانت تسمى قشندة<sup>(٢)</sup>  
وفيهما جرى نك العراك الذي جرى  
وقائع قيس واليماني وكلها  
وزر ضفة الوادي الكبير وسح بها  
وهذي الطواحين الشهيرة لم تزل  
قصور نبا عنها قصور مشيد  
وأفنية تحكي الجنان نضارة  
وشم حصون لا تعدد ودونها  
على همم دلت لهم وقرائح  
فأخنى على تلك المحاسن كلها  
محا الخلف من أوضاعهم كل نافع  
ولم يستفيدوا من تقاطع بينهم  
إذا أنسوا أدنى بصيص لثورة  
فكل الذي قد شيدوه بحزمهم  
ولم يبق في هذي الديار لنا سوى  
ممالك لا تقوى عليها كتائب  
إذا حضرت آثار قومي وإن خلوا  
وأشعر أني في بلادي كأنما  
وأنني أرى بالعين ما لم أكن أرى  
لعل الذي قد كان منه بوارنا

تقطع عن أمثاله كل<sup>(٣)</sup> أبهر  
وتدخل في التخطيط ضمن المسور  
وروى ثراها بالدم المتفجر  
مصائب إن تذكر لنا نتفطر  
وعرج على الجسر الطويل المقنطر  
كأن تركوها أمس لم تتغير  
وعلياء لم تعلم مشيد مقصر  
وأفنية تجري على كل أخضر  
مقاصف إن تذكر تهز وتسكر  
ويعرف بالآثار قدر المؤثر  
غرامهم بالانقسام المشطر  
وصوح من أعمالهم كل مثير  
سوى عيش ذل تحت نقمة موثر  
تداعوا لها كالماء عند التحدّر  
أضاعوه حقًا بالشقاق المدمر  
ممالك فكر من حروف وأسطر  
ولا سالب تاريخها زحف عسكر  
فإنني منها في قبيل ومعشر  
تخاطبني الأرواح من كل مقبر  
حقيقته في وصف طرس ومزبر  
يعود علينا خير وعظ ومزجر

(١) اسم قصر من قصور قرطبة.

(٢) عرق إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) حي من أحياء قرطبة جرت فيه معركة مشهورة بين المضربة والقحطانية.

وفي أثناء الحرب العامة، جاء وفدٌ تركيٌّ مؤلّف من بضعة عشر شخصًا من مبعوثي مجلس الأمة ومن أدباء الأتراك وكتّابهم، وذلك إلى سورية لأجل إحكام علاقات الاتحاد بين العرب والترك، وتلافي ما قام به جمال باشا من الأعمال التي أثارت العرب، فأقيمت لهم حفلات كثيرة في حلب والشام والقدس وغيرها. واقترح علينا والي الشام إذ ذاك تحسين بك أن ننظم أبياتًا تُتلى في المأدبة العظيمة التي أديبها لهم في دمشق. فنظمنا قصيدة تلونها في الجمع، وهي أيضًا من جملة القصائد المفقودة من بين أوراقنا، ولا يزال منها في خاطرنا الأبيات التالية:

بأرض جيّرون<sup>(١)</sup> ذات السلسل العذب<sup>(٢)</sup>  
 بجؤجؤ الباز حيث الصيد عن كئب  
 إنّ الكريم عليه هزة الطرب

قف بين مُشْتَبِك الأغصان والعذب  
 بربوة في حفافها المعين جري  
 واهتف بساكنها أن يثنوا طربًا

ومنها:

أهلاً وفي عتبات المصطفى العربي  
 صفقن بالكف من مصر إلى حلب

في ساحة المسجد الأقصى يُقال لهم  
 لو أنصفتهم ديار الشام قاطبة

ومنها في خطاب الأتراك العثمانيين:

في طاعة العقل لا في طاعة الغضب  
 في خدمة الدين والإسلام من حقب  
 أويتمو من بنيتها كل مغترب  
 بكل سيف رهيب الحدّ ذي سُطب  
 لا يعرف الحشف<sup>(٣)</sup> البالي من الرطب<sup>(٤)</sup>  
 معكم على الدهر عهد غير مُنقضب

أحبكم حبّ من يسعى لطيّته  
 أحبكم حبّ من يدري مواقفكم  
 ومذ تقلدتمو أمر الخلافة قد  
 لقد ضربتم لعمرى في حياطتها  
 فكل غرّ يماري في فضائلكم  
 مهما يكن من هنات بيننا فلنا

(١) باب من أبواب دمشق، وقد يُطلق على البلدة.

(٢) العذب: الأطراف من كل شيء، وغصون الأشجار.

(٣) الحشف: اليباس الفاسد من الثمر.

(٤) الرطب: البسر (البلح) قبل أن يصير تمرًا.

كفى الشهادة<sup>(١)</sup> فيما بيننا نسبًا  
مجدي بعثمان حامي ملتي وأنا

إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب  
لم أَسَ قحطان أصلي في الورى وأبي

ولي تهنة لأحد عيون أعيان المغرب بزفافه المبارك:

إهناً أبا العباس بالفرح الذي  
فرح به التوفيق يسحب ذيله  
يا طالما ارتقب الأنام هلاله  
حرصاً على ثمرات غصنٍ ناضرٍ  
فالآن قد وافاهم النبأ الذي  
هذا هداءً فتى يقلّ نظيره  
بذّ الشيوخ ولم تنزل أيامه  
ما زال حبّ المجد يشغل قلبه  
تهوى الملائك والملوك لو أنها  
قد أقطع الأوطان كلّ عنائه  
ناديت قطر المغرب الأقصى الذي  
يا أيّها القطر الذي فتّيانه  
حقاً نهضت بما تكن<sup>(٣)</sup> من القوى  
وعمدت للمجد القديم تُعيده  
بعصابة غراء كلّ مهذب  
فلتحي أرخ ولتُهَنّ بسيدٍ  
٤٩١ ٧٦

حلّت ملائكة الرضى بحفافه  
ويهزّ فيه السعد من أعطافه  
لِينير ليل الهمّ من أسدافه<sup>(٢)</sup>  
هو نُخبَةٌ ويُرَاد من أخلافه  
طربت قلوبهم بحسوّ سلافه  
في الدهر إن تجنح إلى إنصافه  
شَرخًا وزان شبابه بعفافه  
حتّى رقاءه إلى ذرى أعرافه  
محبوّة بالفضل من أوصافه  
وأحلّ خدمتها صميم شفافه  
يتألق الإسلام في أكنافه  
يُحيون للمتروك عن أسلافه  
حتّى استبان الدرّ من أصدافه  
بالنظم بين تِلاده<sup>(٤)</sup> وطرافه<sup>(٥)</sup>  
هو سرّ صنع الله في الطافه  
الكون مبتهجٌ بيوم زفافه  
١٠٧ ٤٥٠ ٥٨ ١٧٣

١٣٥٥

(١) أي كلمة لا إله إلا الله.

(٢) الأسداف، مفردا السدّف: الظلمة.

(٣) كُنّ الشيء: سَتَرَهُ.

(٤) التِلاد: ما كان لك من مال، قديم العهد (مجازاً) من عزّ نشأت عليه.

(٥) الطارف، الطراف: خلاف التلاد.

## الباكورة

قال الأمير:

ذكرنا في مقدّمة هذا الديوان ما سَبَقَ لنا من نُشْرِ الباكورة، نظمنا وذلك سنة ١٨٨٧  
جامعة لبكائر شعرنا من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٨٨٧، أي أيام كُنّا في الرابعة عشرة إلى أن  
صرنا في السابعة عشرة من العمر، ولم نجد لُزومًا لنُشْرِ الباكورة كلّها لأنها مطبوعة، ولكنّا  
نظرًا لندور النسخ الباقية منها، أحببنا أن ننتخب منها عدّة قصائد وعدّة مقاطع، وهي هذه:

### إهداء الباكورة

لحضرة العالم، العامل، الفيلسوف، الكامل، واسطة عقد الحكماء، ودرة تاج البلغاء،  
الأستاذ الأكبر، الشيخ محمد عبده المصري، أيده الله تعالى:

لو هاج مثلُ الفضلِ خاطرَ شاعرٍ  
أو لو وجدت بمثلِ فضلكِ عاذلاً  
لكن سطوت على القريض بأسره  
فزهوت بين مداركٍ ومشاهدٍ  
أو كيف لا تسمو ومثلك من حوى  
علمٌ على عملٍ على قلم، غدا  
وفضائلٌ تستنطق الأفواه من  
علامة العلماء والبحر الذي  
يا أيها العلم الذي أوصافه  
شهد الزمان لنا بأنك فردة  
يا أوحده العصر الذي عُقدت على  
لا غرّو أن أهدي إليك رقائقي

ألقيت بين يدي سواك بواكري  
كان الكمال إذا سلّوتك عاذري  
وغدوت أعذب منهلٍ للخاطرِ  
وسموت بين بصائرٍ وبواصرِ  
بأعزّ نفسٍ كلّ خُلُقٍ باهرٍ  
في الخطب يهزأ بالحسام الباترِ  
كلّ البرية بالثناء العاطرِ  
لا ينتهي مثل البحار لآخرِ  
أضحت رياض قرائحٍ وضمائرِ  
من كلّ بادٍ في الأنام وحاضرِ  
تقديمه في الفضل خيرٌ خناصرِ  
وأنا رقيق<sup>(١)</sup> فضائلٍ ومآثرِ

(١) الرقيق: العبد المملوك.

ليس القريض سوى تأثر خاطر  
تُمسي المحاسن وهي فيه بواعثُ  
غُرر على الأيام لولاها لما  
لم تبرح الشعراءُ صرعى نشوةٍ  
فإذا انجلت في مثل ذاتك مرّةً  
يا مَنْ غدا بعوارفٍ ومعارفٍ  
أهديك بعضًا من عقيق قريحتي  
أبيات إحسانٍ وليس جميعها  
قد جادها صوب الصبا وبنشرها  
درجت معي أطوار عمرٍ واصلٍ  
قد باكرتني قبل صادق فجره  
أوحت إلى قلبي الهوى فشعرت إذ  
فمضيت بين كمائلٍ ومفاخرٍ  
ما قلت ذا فخراً ولا عجباً وما  
لكن لترفقَ غير مأمورٍ بها  
إن تأتني عفواً فكمْ هدبْتُها  
مكثتها بعد النزاع وكمْ حكّت  
حتى أنت من بعد تربيتي لها  
عوّضت ما خسرته من حُسنٍ بما  
فكُن الوصيَّ على يتامى ناظمٍ

مما به للمرء قُرّةٌ ناظرٍ  
للشعر بين مسببٍ ومباشرٍ  
لاحت وجوه الدهر غيرَ بواسرٍ<sup>(١)</sup>  
برحيقها من سالفٍ ومُعاصرٍ  
كنتَ الأحقَّ بكلِّ مقولٍ<sup>(٢)</sup> شاكرٍ  
يزري على لُججِ العُبابِ الزاخرِ  
يا بحر لكن لا أقول جواهرِي  
من كلِّ بيتٍ بالمحاسنِ عامرٍ  
نمّ الصِّبا عن كلِّ عَرَفٍ<sup>(٣)</sup> ذافرٍ<sup>(٤)</sup>  
ما جاش من يومٍ بليلٍ ساهرٍ  
مُد كنت من أعوامه في العاشرِ  
غُصن الصبابة لا يميل لهاصرٍ  
ومشيت بين خمائلٍ وأزاهرٍ  
من معجبٍ في نظمها أو فاخرٍ  
فلكم خطت طُوراً لنيلِ الحاضرِ  
من سخف لفظٍ أو رويِّ نافرٍ  
قلقَ القداح بدت بكفِّي ياسرٍ  
حسبي وإن لم تغدُ ملءَ محاجرِي  
رُفعت إليك فلم أكن بالخاسرِ  
وبناتِ فكرٍ في ثناك قواصرِ

(١) بَسْرَ: قَطَبَ وجهه كمن يبدو عليه الغضب.

(٢) المَقُول: اللسان.

(٣) العَرَف: العبير.

(٤) ذفر الشيء: ظهرت رائحته واشتدَّ طيبه.

أهديتها لا كي تليق وطالما  
هي دون ما يُهدى إليك وإنما

قَبِلَ الكَبِيرُ هَدِيَّةً من صَاغِرٍ  
مِثْلِي على ما فاق ليس بقادرٍ

الدراهمي

شكيب أرسلان



وقلت وأنشدتها في محفل مدرسة الحكمة، وكنت في السادسة عشرة من العمر:

عما بصباح العلم رغداً وأنعماً  
قد انصاح صُبْحُ السعد في ليل نحسه  
وثاب إليه العلم عدواً بعدوه  
فأصبح داجي أفقه اليوم زاهراً  
وأينع ذاوي رَوْضه اليوم بعد أن  
ترنح عطف السعد منه بُعِيدَ أن  
وباتت غُصون العزّ تخطر عندما  
لعمرك إنَّ الشرق رُدَّ بهاؤه  
وعاد إليه الفضل والعود أحمد  
وما الشرق إلا ذلك الشرق لم يزل  
فإن نابه<sup>(١)</sup> يوماً من الدهر صرّفه<sup>(٢)</sup>  
وإما تطشّ دُهم الليالي سهامه  
وإن فاته للفضل غيْثٌ فإنما  
وإن يكُ يوماً سوّد الجهل أفقه  
نجوم علومٍ أخجلت بضياؤها  
بهنّ أهتدي في سيره كلُّ بارحٍ

بربعِ ظلامِ الجهل عنه تصرّماً  
فغادره شيئاً فشيئاً مهزّماً  
إليه فلا لومٌ إذا ما تلوّماً  
وقد كان زاهي أفقه قبل مظلماً  
تصوّح من عصف البوارح في الحمى  
رأى لثغور العلم فيه تبسّماً  
رأت فوقها طير المعارف حوّمًا  
فيرفل في ثوب النساء مُنمّماً  
عليه إذا كان الغياب مُذمّماً  
مدى الدهر أعلام العلى مُتسّمماً  
فلم تمض إلا بُرْهة فتثلّماً  
فهيهات لم تسلبه للحظّ أسهُماً  
توخّى إليه الرجوع جمّاً فعتمّاً  
فقد طالما في الفضل أطلع أنجمًا  
نجومَ ضياءٍ لحنّ في كبد السما  
توغّل في بحر الكيان الذي طمى

(١) نابه وانتابه: أصابه.

(٢) صرّف الدهر: نواته وحدثانه.

رجال بهم جاد الزمان وعله  
أقامهم في الشرق يُحيون شأنه  
هُم المَلَأُ الأخيار والعصبة الأولى<sup>(١)</sup>  
تظلم منه الفجر قبل مجيئهم  
لكم أرهفوا بالجدِّ للمجدِ مَحْدَمَا<sup>(٢)</sup>  
وكم صرفوا وجه الصُّروف من الورى  
وسلوا من الآراء أبيض صارمًا  
أماطوا قناع المكرمات وقد جلوا  
وأعلوا منار الرُّشد في أفقِ شرقهم  
وأجروا ينابيع المعارف في المَلَا  
وشادوا أصولاً للفنون وأوضحوا  
فنعيم رجال الشرق قَوْمًا ومعشرًا  
جروا في رهان الفضل في أول المدى  
ولم يرهبوا من دونها في جهادهم  
فهم أسسواركن الحضارة في الورى  
وهم أكتهوا سرّ المعارف أولاً  
فلما أحلَّ الله فيهم قضاءه  
طوتهم أيادي البين من بعد أن رموا  
فغار ضياء الشرق عند غيارهم  
ودالت إلى الغرب العلوم مع العلى

على مثل هذا الجود يوماً تندما  
فأذهل عمّا نال عادًا وجرهما  
رأينا لعمرى الرُّشد فيهم مجسماً  
فجاءوا فلما أثقلوه تظلمًا  
وكم أرغفوا بالنيل للفضل مَحْطَمَا<sup>(٣)</sup>  
وكم عَفَّرُوا بالحزم للدهر مرغما  
ففلّوا من الأرزاء بحرًا عَرَمَرَمًا  
محيًا المعالي بعد أن كان أسحَمَا<sup>(٤)</sup>  
وخلّوا سبيلًا للمآثر أقوما  
فطال بها نبتُ المعاني وقد نما  
لها سُبُلًا أضحت إلى النُّجج سُلَمَا  
إلى جدّهم أصل المعالي قد انتمى  
سِبَاقًا كما أجريت أجردَ شَيْظَمَا<sup>(٥)</sup>  
خِطَارًا فقد خالوا التوقي تَقَحُّمًا  
ولم يفعلوا إلا لِنْدرك مَغْنَمَا  
وهم عرفوا نفع العلوم مقدّمًا  
ووافاهم داعي الردى مُتَخَرَّمًا  
من الهمة الشمّاء أبعد مُرْتَمَى  
وأظلم وجه الشرق وقتًا وأقْتَمَا  
كما حكّم المُبدي المُعيدُ<sup>(٦)</sup> وأبرَمَا

(١) الألى أو الأولى: بمعنى الذين.

(٢) المخدّم: (مطلقًا) السيف؛ وقيل القاطع من السيوف.

(٣) المِخْطَم: الأنف.

(٤) الأَسْحَم: السحاب الأسود، ويريد الأسود.

(٥) الشَيْظَم: الطويل من الخيل.

(٦) المُبدي المُعيد: الله سبحانه.



وأوجف ركب السعي في طلب العلا  
فهادنه صرف الزمان مسالماً  
وباتت بلاد الشرق من بعد عزها  
إلى أن تجلّى طالع العصر بعد أن  
فثابت لدى إشراقه الهمم التي  
عن العلم حقّ العلم بالفضل ظاهر  
وعفت على ما كان قبلاً وذلّت  
فإن يك خسف<sup>(٢)</sup> الشرق أضحي محلاً  
إلا يا بني الأوطان إن عليكم  
عليكم بها فاسعوا لها وتشبهوا  
ومن قصرت أيديه فليسع طوقه<sup>(٣)</sup>  
وقد نكتفي بالطلّ إن بان وابل  
ولا سيما العلم الشريف فإننا  
أما نحن من سنوا المائر واقتفى  
ألم نعل أعلام العلوم بقطرنا  
ألم نك أهل الأوليّة في العلى  
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا  
وما زال أهل الغرب يدرون قدرنا  
متى يذكر الأفضال فيهم خطيبهم  
فلا تحسبونا قد عرينا وطالما  
وهم آثروا عنا العلوم فهذبوا

فكان بذا الجري الجواد المصمماً  
ونوله الخير الأتم المعمماً  
كأن لم تتل مجداً ولم تحو مغرماً  
تحجّب عن تلك الجوانب واكتمى<sup>(١)</sup>  
عن العلم قبلاً قد تقاعسن نوماً  
فذلك للألباب قد كان ألزماً  
جماح زمان قد طغى وتجرماً  
لديه فما كان الفلاح محرماً  
إلى السعي في تلك المعالي التقدماً  
فمن يتشبه بالكرام تكرماً  
ومن لم يجد ماء بأرض تيمماً  
فإن اعورار العين خير من العمى  
نرى نيّله جدّاً على الكل مغرماً<sup>(٤)</sup>  
مآثرنا من بعدنا حاز مستمى  
على حين حدّ السيف يرعف بالدماء؟  
ليالي لم تقصر عن المجد مغرماً؟  
زمان توخى حيفنا وتحكماً  
من الفضل ما أبدوا من الدهر معجماً  
على منبر صلى علينا وسلماً  
جررنا من الفضل الرداء المرقماً  
فجرّوا علينا مطرف المجد معلماً<sup>(٥)</sup>

(١) اكتمى: استتر.

(٢) الخسف: الذلّ.

(٣) فليسع طوقه: جهد.

(٤) المغرّم: الدّين.

(٥) المطرف المعلم: الرداء المرقم أو المخطّط.

تباروا بعلم بينهم وتنافسوا  
وقد بلغوا من باذخ العزّ منزلاً  
إذا نظر الشرقيّ حال صلاحهم  
فيا وطني حتّام تلبث غافلاً  
ألم تدرِ بالغربيّ في الأرض سائحاً  
فلله درّ العلم إنّ جداءه  
لكم نال من فخرٍ وأيد صاغراً  
وكم حلّ من عيٍّ وأطلق حُبسةً  
فمن يعتصم بالعلم يظهر بهديه  
إذا العلم هذا الحقّ ما فيه سُبهةٌ  
ومن عزّ دون العلم شأننا فإنه  
فذو السيف يلقي العزّ حيناً ومفرداً  
ومن نال أخطارَ اليراع فإنّما  
فسعداً لمن في حلّبة العلم قد جرى  
وما ذلّ من يهوى العلوم وإنّما  
سما بالذي كان الحضيض مقرّه  
فما يبلغ المنطيق وصف جدائه  
فحثّوا مطايا العزم كي تظفروا به  
فلا مُنيةٌ إلاّ ونلّتم أعزّها

فلا جُرمَ أنّ العلم سرّاً فأشكّما<sup>(١)</sup>  
يظلّ لسان الحال عنه مُترجّما  
بكي صاحبي منها دماً سال عندهما<sup>(٢)</sup>  
وحتّام يا شرقيّ أراك مُهوّماً  
على سابح<sup>(٣)</sup> من علمه ليس مُلجّما؟  
لمّا يفوق العارض المُتجسّما<sup>(٤)</sup>  
وكمّ عالٍ من فقرٍ وقلّد مُعدّماً  
وكمّ فلّ من غيٍّ وأنطق أبكّما  
فلم يكّ غير العلم شيء ليُعصّما  
وحسبك بالحقّ المُبين مُعلّماً  
لسوف يُلاقني أمره مُتحتّماً  
وذو العلم يلقي العزّ دهرًا وتوأمًا  
سُتقرن كفاءه يراعًا وصيّلما<sup>(٥)</sup>  
وسحقاً لمن في حلّبة العلم أحجّما  
تسوّد<sup>(٦)</sup> من بالعلم كان مُتيمّما  
فطنّب من فوق الدراري مُخيّمًا  
ولو كان كلّ الكون في وصفه فما  
تنالوا بيمنِ العصر منه المُيمّما  
ولو أنّها باتت على روق أعصّما<sup>(٧)</sup>

(١) أشكّم فلاناً: أعطاه. والشكّم: العطاء أو الأجر والجزاء؛ ولا جرم، أي لا بدّ.

(٢) العندم: خشب نبات، صباغه أحمر كالدم.

(٣) يريد بالسابح: الجوّاد.

(٤) السحاب الممطر.

(٥) الصلّيم: السيف.

(٦) تسوّد: (لغة) في ساد.

(٧) روقُ الأعصم: قرْن الوعل، يُضرب لكلّ شيء مستحيل أو غاية بعيدة المنال.

لئن تبذلوا فيه النفس فغيركم  
وما غيركم والله إلا أصولكم  
وقومٌ هدوا في الحق هدي جدودكم  
أولئك قد سادوا وأقصى نكايه  
بعلمٍ إذا ما بات فيهم متوجًا  
فإما لعمرى قدوةٌ بمعاصيرٍ  
ولا نحسب الأحوال وهي عوارضٌ  
وإما نصبنا في سبيل جهادنا  
وقد أشرع الدرب الموصول نحوه  
فلا صدفت فتياننا عن ووجه  
ويُرتقُ فتق<sup>(١)</sup> الشرق بعد اتساعه  
فإن الفتى من زان مسقط رأسه  
فذاك الذي في بردة الفضل ينثني  
فإن ينتظم سملُ الرجال بقطرننا  
لأن نجاح الصَّقع في حُسن أهله  
وكانوا كما الأعضاء في الجسم فاغتندى  
فيشتدُّ أزر القوم بعد انحلاله  
إذا نبتغي علمًا بدون تضافرٍ  
وكل امرئٍ عن قومه مُتخلفٌ  
فكونوا كجسمٍ واحدٍ إن تألمت  
تفوزوا بتذليل الصِّعاب إذا عصت  
وتحظوا بأعلاق المُنَى وتُحققوا  
هو العصر وافى ضاحكًا عن فنونه

لإحرازه هلك النفوس تجسُّما  
نخبر عنهم لا حديثًا مرجما  
إلى أن غدوا أعلين في الأمر مثلما  
لنا فيهم ألقاب عِلجٍ وأعجمًا  
فيا طالما قد كان فينا مُعمما  
وإما تراثٌ للذي صار أعظما  
تُغيّر في أصل المبادي فنسأما  
فأي قرارٍ لا يقابل مخرما  
بما شفّع الرّحمنُ فينا وألهمًا  
ليغدو بهم رثُ البلاد مُرمما  
ويُرفى غطاءه بعدما قد تشرما  
بما ناله من حكمةٍ وتعلما  
وليس الفتى من بالعقيق تختما  
ترتب فيه أمرنا وتنظما  
إذا كان أمر الوُدِّ في القوم مُحكما  
على الكلّ منهم خيرُهُ مُتقسما  
إذا شدَّ من عقد التضافرٍ محزما  
إذا فاتّباع الجهل قد كان أحزما  
فلا يعدمنّ الدهر للوطء منسما  
له أنملُ تلقى الجميع تألما  
وتقووا على ذا الدهر إمّا تهصما  
بهمتكم من عصرنا ما توسما  
وقد كان من قبل عليكم تأجما

(١) رتق الفتق: أصلحه، وكذلك رفا.

تَبَدَّى وهذا الجهل في الناس سائدٌ  
وراحَ على الدنيا يَنْتُ بدائِعًا  
بكم معشر الحُضَارِ تُزان أرضنا  
تجلون عن أن ترشدوا من مُمائلِي  
كفى عصركم فخراً وعِزًّا إذا ادعى  
ليجهدَ في استرجاعِ رُونِقِ شرقنا  
فلا زال في عصرِ الخلافةِ قائمًا  
ينتُ عليه الخافقان بعدله

فأطرق منه هيبَةٌ وتَحشُّمًا  
فهزَّ أخا عشقٍ ورنحَ صَيغَمًا  
ويصبح عرض الحَسْفِ فيها مكلِّمًا  
ولكنَّها ذِكرى لِمَا ليس مُبهُمًا  
أميرَ الوَري عبد الحميد المعظَّمَا  
وتجديد ما من مجده قد تَهَدَّمَا  
لِمَا انآد من أمر العبادِ مَقُومًا  
ثناءً جميلًا بالدُّعاء مُخْتَمًا



وقلت في مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية في السنة نفسها:

بُدورٌ بأفقِ العِلْمِ هذي المواسمُ  
لتغدو بها عين الفلاحِ قريرةٌ  
يُقَدَّرُ فيها العِلْمَ ما هو كاسبٌ  
فُتتج ما قد حاول الجهد في العُلَى  
شهورٌ على صدقِ الفِعالِ أُمْنِيَّةُ  
مضاميرُ أقرانِ النَّباهةِ والنُّهى  
هو الجدُّ حتى البُعدِ للقُربِ سابقٌ  
وحتى ترى ما كان في نَيْلِهِ الرَّجَا  
وهل يبلغ الآمالِ إلا مجاهدٌ  
وهل دون غاي<sup>(١)</sup> الجهد تُذركُ غايَةً  
وكيف يُرَجِّي الوصلَ من ليس يمتطي

على البدرِ قد لاحت لهُنَّ مواسمُ  
وتبدو تُغور السعد وهي بواسمُ  
ويعرف فيها الفضل ما هو غانمُ  
وتُسْفِرُ عَمَّا باشرته العزائمُ  
ولكن قُضَاةً بالسباقِ حواكِمُ  
يُمَيِّزُ مرغومٌ لديها وراغمُ  
وحتى الخوافي خلفهنَّ القوادِمُ  
صريمًا قد التفت عليه الصرائمُ<sup>(٢)</sup>  
وهل يطرد الأهوالِ إلا مقاومُ؟  
ودون اخترامِ النفسِ تعنو المخارِمُ؟  
وكيف يُزِيلُ القِرْنَ من لا يُصادِمُ؟

(١) الصرائم، مفردها صريمة: القطعة من الليل؛ والصريم: الصبح لانتقاعه عن الليل.

(٢) غاي، مفردها غاية. تقول: غاي غايات.

ولا بُدَّ من غوص الفتى قعر لُجَّةٍ  
 ومَن مُدرك مَن فاته وهو قاعدٌ  
 وما النفع من جيش تَعَبَى صَفوفُه  
 فإنَّ تمام الجهد للنُّجْح واجبٌ  
 وإنَّ المُسَمِّي العقل في المرء صاحبٌ  
 فأجدرِ بخِلٍ أن يُصاحب خِلُه  
 وللعقل طول العمر بالعلم صَبوة  
 اليفان لا ينفك كلُّ مُتَيِّمًا  
 فإن عُدَّ حقًا أفضل الناس عالمٌ  
 وإن أمكنت من دون ذا العلم عِزَّة  
 كما عزَّ بالعلم الأعاربُ قبلنا  
 ليالي لا أملاك إلا ملوكهم  
 تقدَّمنا منهم رجالٌ تقدَّموا  
 رجالٌ مضوا لم تُلهِهِم عن علومهم  
 بهم أشرقت تلك الديار وأزهرت  
 قد استخرجوا دُرَّ المعارف بالعِنا  
 فمنهم بأثار العدو صوائفٌ  
 لقد أوسعوا الأمرين فتحًا كأنما  
 فغنت رهام<sup>(٣)</sup> الطير فوق رياضهم  
 وسادوا العدى في كلِّ أمرٍ فأصبحت  
 وأصبح منهم هؤلاءِ على الثرى

لتخرج غرَّان اللآلي الخضارمُ  
 ومَن لاحِق مَن جازه وهو نائمٌ؟  
 إذا لازمت إغمادَهِنَّ الصوارمُ  
 وليس يسوغ الصدَّ عمَّا يُلائمُ  
 لَعِلم غدت منه عليه رثائمٌ<sup>(١)</sup>  
 ولا يترك الملزوم ما هو لازمُ  
 بلا سَلوةٍ والإلفُ بالإلفِ هائمٌ  
 بصاحبه تعيى لديه اللوائمُ  
 فأفضل منه عاقلٌ وهو عالمٌ  
 فبالعلم أسنى ما تُسود العوالمُ  
 فذلتُ وهابَتْهُم لِدَاك الأعاجمُ  
 تُعدُّ ولا تيجان إلا العمائمُ  
 وسادوا وما في القوم إلا ضبارمُ<sup>(٢)</sup>  
 وشغل الورى غاراتهم والملاحمُ  
 بأقطارنا أنجادها والتهائمُ  
 وموجُ العوادي حولها مُتلاطمُ  
 ومنهم لآثار العلوم معالمُ  
 مكارمهم في الحاليتين مغارمُ  
 وأنت عليهم في النزال القشاعمُ<sup>(٤)</sup>  
 بأيديهم أمصارهم والعواصمُ  
 كما سكنت بطنَ التراب الأراقمُ

(١) رثائم، مفردا رثيمة: خيط يُشدُّ على الإصبع ليستذكر به صاحبه أمرًا.

(٢) ضبارم: الأسد (مطلقًا).

(٣) رهام: ما لا يصيد من الطير.

(٤) القشاعم، مفردا قشعَم: النسر المُسن.

يخافون أمر العرب حتى كأنما  
 ولم يك إلا العلم علة مجدهم  
 فمن يعتصم بالعلم يُمسي مُعزّزاً  
 إذا ما تأملت الزمان رأيته  
 فإن عدّ كسب العلم فينا فريضة  
 وهل نرتضي ذا اليوم ذلاً بتركه  
 لعمرى لقد كانت لنا بجُودنا  
 فلا غرو أن نقتص آثار مجدهم  
 ولم لا نُرجي كل فوز وما لنا  
 ونعلم أننا إن نجد نجد وذا  
 وكيف يرى نيل الفلاح بدونه  
 بعصر يفوت القوت فيه معدّه  
 وقد نهضت كل الخواطر للعلی  
 فكل فخار ناهل الفكر حائم  
 فعزماً بني الأوطان فالجهد واجب  
 فقد قيض الرحمن فينا ذرائعاً  
 ويوم هو المشهود أيامنا به  
 لدى مشهد يستوقف الركب عن ظما  
 تناهب فيه الحمد من كل جانب  
 بهم رجع الفضل الأصيل لأهله  
 وهل ناجع بالأمر إلا رجاله؟  
 وهل يتحرى الفضل إلا عميده؟

لهيبتهم فيهم رقى وطلاسم  
 فجادهم ما لا تجود الغمام  
 ومن يفتن عنه تطأه المناسم  
 بكل نجاح في العباد يساهم  
 فكل جهالات الأنام محارم  
 إذا ساد فيه جيلنا المتقادم؟  
 مآثر في حق القصور مآثم  
 طرائقهم قدامنا والمناجم  
 سوى لفضل في جنب الزمان جرائم؟  
 مجرب أمر ليس فيه مزاعم  
 ويأمل دون الجدّ ذا النيل حازم  
 ويعدم ورد الماء من لا يزاحم  
 وزادت جيوشنا في الصدور الشكائم  
 له وعليه طائر الذهن حائم<sup>(١)</sup>  
 بذنا وبحول الله فالنصر قادم  
 وقامت لهذا الفضل فينا دعائم  
 مقلدة أجيادها والمعاصم  
 وتسكن من جفل إليه النعائم  
 كرام صنوف المجد فيهم مقاسم  
 وعادت إلى أصحابهن المكارم  
 وهل ساجع بالأيك إلا الحمائم؟  
 وهل تسكن الأجام إلا الضراغم؟

(١) حاتم، الأولى: عطشان؛ وحاتم، الثانية: للطير يستدير في الفضاء.

فَسَقِيَا لِرَوْضِ الْمَعَارِفِ نَاضِرِ  
لَأَطْيَارِهِ فِي الْعِلْمِ شَدُوٌّ وَإِنَّمَا  
يَضُوعُ لَهُ فِي الْأَرْضِ عَرَفُ مَعَارِفِ  
سَلَامٌ عَلَى السُّلْطَانِ أَمَّا مَرَامُهُ  
سَلِيلُ بَنِي عِثْمَانَ أَمَّا جَدَاؤُهُ  
أَطَاعَ لَهُ الْبِرَّانَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا  
لَهُ بَيْنَ أَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ فِي الْعُلَى  
أَقَامَ أُمُورَ الْعَرْشِ بَعْدَ تَظَاهَرَتِ  
وَقَامَ بِأَمْرِ الْمُلْكِ حَقَّ قِيَامِهِ  
فَسَدَّ تُغُورَ الْمَلِكِ بَعْدَ انْتِلَامِهَا  
وَأَحْكَمَ إِجْرَاءَ الْعَدَالَةِ فِي الْوَرَى  
فَيَتُومًا تَرَاهُ وَهُوَ لِلرِّزْقِ قَاسِمٌ  
يُسَهِّدُ جَفْنًا لَا يَطِيبُ لَهُ الْكَرَى  
فَلَا زَالَ بَدْرًا نُورُهُ مُتَكَامِلٌ  
يُعِيدُ لَنَا عِزَّ الْخِلَافَةِ عَهْدُهُ  
تُضِيءُ عَلَى الدُّنْيَا مَطَالِعُ شُكْرِهِ

بِهَا وَعَلَيْهِ عَارِضُ الْفَضْلِ سَاجِمٌ  
بِهِ الطَّائِرُ الْمُحْكِيُّ فِي الْقَوْلِ جَائِمٌ<sup>(١)</sup>  
ثَنَاءٌ عَلَى عَرَفِ الْخَلِيفَةِ دَائِمٌ  
فَنَفْعٌ وَأَمَّا شُغْلُهُ فَالْعِظَائِمُ  
فَغَيْثٌ وَأَمَّا عِزْمُهُ فَلَهَاذِمٌ<sup>(٢)</sup>  
وَدَانَتْ لَهُ فِي الْعُدُوتَيْنِ<sup>(٣)</sup> الْأَنَاسِمُ  
صَرَائِمٌ إِلَّا أَنْهَنَ صَوَارِمُ  
عَلَيْهِ خُطُوبٌ لِلظُّهُورِ قَوَاصِمُ  
يُدَافِعُ عَنْهُ تَارَةً وَيَهَاجِمُ  
وَجَازَ إِلَى دَارِ الْوَعْيِ وَهُوَ ثَالِمٌ  
وَعَمَّتْ لَهُ كُلَّ الْعِبَادِ مَرَاحِمُ  
وَيَوْمًا نَرَاهُ وَهُوَ لِلخَطْبِ حَاسِمُ  
وَفِي أَرْضِ عِثْمَانَ ظَلِيمٌ وَظَالِمُ  
وَعَيْثًا عَلَيْنَا وَذُقُهُ<sup>(٤)</sup> مَتْرَاكِمُ  
وَيَغْتَبِطُ الْإِسْلَامَ إِذْ هُوَ سَالِمُ  
وَتَعَطَّرَ فِيهِ بِالذُّعَاءِ الْخَوَاتِمُ

(١) كَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ مُدْرَسًا فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ.

(٢) اللَّهَازِمُ، مَفْرَدُهَا اللَّهْدَمُ: كُلُّ شَيْءٍ مِنْ سِنَانٍ وَسَيْفٍ قَاطِعٍ.

(٣) الْعُدُوتَةُ: الْمَكَانُ الْمَتْبَاعِدُ.

(٤) الْوَذْقُ: الْمَطْرُ.

## وقلت أشكو الزمان

وما صاحب الأيام إلا مُعَذَّبٌ  
 إذا بات في دُنْيَاهُ يَعْتَبُ يُتَعَبُ  
 متى ضاق عنه في البسيطة مذهبٌ  
 يقاسي عذاب الموت والدهر يلعبُ  
 فلم يُغْنِ عنه حِرْصه والتجنبُ  
 لِحَسْفِ بَأْنِ تَشْنَأِ<sup>(١)</sup> الذي أنت تصحبُ  
 فأسهمه من نكبةٍ ليس تُغْلَبُ  
 ومطلوبٌ دهرٍ عند مَنْ هو يطلبُ  
 إذا هو في بطن الضريح مُغَيَّبُ  
 وفيكِ غُرَابِ الْبَيْنِ ما زال يتعبُ  
 فلا منك رهبانٌ ولا فيكِ أرغبُ  
 لديكِ فصدري من فنائكِ أرحبُ  
 وأعجبُ من حالي وحالكِ أعجبُ  
 مضى ذلك الأمر الذي أتهيبُ؟  
 فلم يُجِدْنِي ما كنت أبكي وأنحبُ  
 نجوم السما طَوْرًا تُضِيءُ وتغربُ  
 شجيين طول الليل نشكو وندبُ  
 ويُطْفئها من ماء عيني صيبُ  
 وأزجر طرفي إذ يحفُّ وينضبُ  
 وعندِي وردُ الدمعِ والله طيبُ

من الدهر تشكو أم على الدهر تعبُ  
 شكِّي بلا قاضٍ شجيُّ بلا أسي  
 يلاقِي الأسي في صدره كلَّ مذهبٍ  
 هو المرء في كفِّ الزمان مقلَّبُ  
 تولد في الدنيا حليف مصائبٍ  
 يُصاحبها وهي العداة وإنه  
 إذا نقصت من كلِّ عزٍّ حظوظه  
 طريدٌ ليالٍ بات في كفِّ طاردٍ  
 فبينما يُسامُ الحَسْفَ من كلِّ وجهَةٍ  
 فللَّهِ يا دنيا حياتكِ كربةٌ  
 رأيتكِ مَحْضُ الغشِّ في مَحْضِ قُدرةٍ  
 وإني وإن ضاقت عليَّ مذاهبي  
 أرى بك من نكدي وصبري عجائبًا  
 فهل فيكِ صَيِّمٌ مثل بُعْدِ أَحْبَبِي  
 بكيْتُ عليه وانتحبتُ لِيالِيَا  
 فكم ليلة منها قضيتُ مُسامِرًا  
 إلى جانب الورقاء تندبُ في الدُّجى  
 تشبُّ شَراراتِ الأسي بترائبي  
 وقد كنت لا أبغي خُمودَ صبابتي  
 بصدري حرَّ الشوق بردٌ يلدُّ لي

(١) تشنأ: تبغض مع عداوة.



أبى الله أن أهوى السرور وإنني  
لئن عذّب التعذيب لي قبل ذا النوى  
فيا ليت شعري هل أرى الدهر مرّة  
أليست لتصفو منه يوماً سرائرُ  
أما تحفظ الأيام مني وقيعة  
فقد طال وصفي نكدها غير كاذبٍ  
فتبّأ لها من مُصمياتٍ سهامها  
هي الدّجن أمّا صاعقات خُطوبها  
قضى قبلنا الكندي<sup>(١)</sup> أحمد حقة  
على أنها الدنيا إذا شئت وصفها  
وإنني وإن لم تُحيني غير صبوةٍ  
سأشكرها إذ أنها مذّ حدائتي  
وقد نجدتني<sup>(٢)</sup> الحادثات وأدبت  
ولكنّها مني تُمارس شدة  
وما عدمت من شدة وبراعةٍ  
ولكنّه لا نفع فيها لصابرٍ  
محاكية للبحر تعلوه جيفة  
فيعدم فيها الحظّ من يستحقّه  
ويحظى بها بالجدّ من لا يرومه  
إذا الحقّ لم يصبح على الكلّ سائداً  
وإنّ عدم الحقّ المبين نصيره

على غير صوت النّوح أشجى وأطربُ  
بوجدي فهل بعد النوى ليس يعذبُ؟  
لدى غفلة عن نكبتني يتنكبُ؟  
فيحلّو لي طعم وينساعُ مشربُ  
وتغضبُ مني مثلما أنا أغضبُ  
إلا ليتها تسعى بردٌ وأكذبُ  
ولا ينفع الإنسان منها التائبُ<sup>(٣)</sup>  
فصدّقُ وأمّا البرق منها فخلبُ  
يعنفها في شعره ويؤنّبُ  
وإن لم أشأ تُملي عليّ وأكتبُ  
فكم ناشني منها إلى اليوم مخلبُ  
لقد عودتني الصبر وهو مُحبّبُ  
وليس كمثل الحادثات مؤدّبُ  
وقد عجمت عُودي<sup>(٤)</sup> فعودي أضلبُ  
ولكنّ من لاقت أشدُّ وأنجبُ  
إذا لم يكن منها لعمر كمهربُ  
وفيه نفيس الدرّ في القعر يرسبُ  
ويحرم فيها الكسب من يتكسّبُ  
ويشوى بها بالسهم من لا يُصوبُ  
فليس لحرّ في البرية مأربُ  
فما يرتضي بالعيش حرّ مهذبُ

(١) تائب: لبس الإثب، وهو قميص بغير كمين، ويريد: الدرع.

(٢) الكندي: المتنبي.

(٣) نجدتني: جرّبتني وأحكمتني.

(٤) عجم العود: عضّه ليعلم صلابته من رخاوته؛ يردي: اختيرته.

وإن لم تكن فينا على الخير عصبه  
فليس بمغنٍ للكرم اتساعها  
لكم بت أنضي همتي لأقيمه  
فما زال للأبصار تحت ستائر  
فقد قلت ما قد قلت لا عن مآرب  
وإني من القوم الذين هم هم  
عتاق المعالي قد تسامت جدودهم  
لهم نسبة في أقعس المجد عرقها  
وأصاحبهم فيها الفصاحة والحجى<sup>(١)</sup>  
بدور إذا الهامات بالبيض عمت  
بحور إذا الأرزاء ألقّت جيرانها<sup>(٢)</sup>  
فياصلُ حقّ بالبيان وتارة  
لهم حسب يحكي الشُّموس وضوحه  
فإن كنت منسوباً إليهم فإنها  
فدون انتساب المرء للمجد والعلی  
فما دمت حياً في الزمان فلم تزل  
أهم بأشياء كبارٍ ودونها  
أرى الفتح يدنو كلما أنا ساكن  
وقد غادرت قلبي العوارض حائراً  
توارد أنواعاً كشاراً وكلها

ففيما سواه ساء ما نتعصب  
إذا كان فيها الحق كالمال يُنهب  
وأظهره في بعض أمرٍ ويحجب  
إذا زال عنه غيبٌ جنّ غيب  
أجلُّ أنا من مثل ذلك وأحسب  
إذا غاب منهم كوكبٌ لاح كوكب  
على الشمّ ممن انسلّ الشيخ يعرب  
لها منزل فوق السّمك مطنّب  
وبذل اللّهي<sup>(٣)</sup> والمشرقيّ المذرب<sup>(٤)</sup>  
ليوث إذا الهامات بالبيض تُضرب  
غيوث إذا الأعوام في القوم تُجذب  
فياصلُ إذ دار الأصمّ المكعب<sup>(٥)</sup>  
يزاحم منه منكب الشمس منكب  
إليهم لتعزّي المكرمات وتُنسب  
لعمر ك لا يغنيه أمٌ ولا أب  
عليّ حقوق ليس منهنّ أوجب  
من البعد في ذي الحال عنقاء مغرب<sup>(٦)</sup>  
ويبعد عني كلما أنا أقرب  
هو القلب من تلك الحوادث قلب<sup>(٧)</sup>  
تؤثر في القلب اللطيف وتنسب

(١) الحجى: العقل.

(٢) اللّهي، (لغة): أفضل العطايا وأجزئها، ولها معانٍ كثيرة غير أن المراد بها هنا: النفس أو الروح.

(٣) المشرقيّ المذرب: السيف المسنون.

(٤) ألقّت الأرزاء، أي المصائب، جيرانها بهم: كناية عن أنها نزلت وحلت بهم بأثقالها.

(٥) الأصمّ المكعب: من صفات السيف.

(٦) عنقاء مغرب: طائر أسطوري لم يره أحد، وهو مثل يضربه العرب للقاصي والمجهول.

(٧) قلب: متقلب.

وقلت متغزلاً بالحسن المعنوي  
مفتخراً بأصحابه

مال الصِّبا بعواطف النشوانِ  
ولوى الغرامُ عنانَه نحو اللوى  
وهوى الهوى بالقلب بين أعقَّة<sup>(١)</sup>  
فغدا يُراوح من معاهدِها التي  
يأتي اللِّصابُ<sup>(٢)</sup> من الشُّعابِ<sup>(٣)</sup> ويتحي  
في كلِّ منعطفٍ وكلِّ ثنيةٍ  
وَنَحُّ المحبِّ لقد تهتك في الهوى  
أجرى العقيق بطرفه وبنى بأو  
صَبُّ أَلَمٍ به الهوى فمضى به  
أنذرتُه سوءَ المصير فقال لي  
أطلقت للقلب العنان فهمتُ لا  
لهفي عليه عدتُ بمُهَجَّتِه الطِّبا  
بين البوارقِ والصفوفِ زواحفُ  
طلب المحاسنِ في الخيامِ ودونها

مَيْلَ الصِّبا بمعاطف الأغصانِ  
وبدا الحنين لأبرقِ الحثانِ  
ومُتالِع<sup>(٤)</sup> ومِطالِعِ ورِعانِ<sup>(٥)</sup>  
في نجدٍ بين معالمٍ ومغانِ  
من منزلِ الجرعا<sup>(٦)</sup> سفوحِ البانِ<sup>(٧)</sup>  
يبدو له شجنٌ من الأشجانِ  
فرعاه في سرٍّ وفي إعلانِ  
تاد الضُّلوعِ مَضارِبَ الكُثبانِ<sup>(٨)</sup>  
للحسن تحت أسنَّةِ الخِرِصانِ<sup>(٩)</sup>  
إنَّ الصِّبابَةَ عِزَّةَ الفِثيانِ  
ألوي ولستُ لذا العنانِ بثنانِ  
حُبًّا إلى حيثِ الطُّبى بمكانِ  
تحت البيارقِ والرماحِ دوانِ  
ضرب يطيح سواعدُ الشُّجَعانِ

(١) عَقَّ الولد والده: عَصَاه فلم يُشْفِق عليه ولم يُحسن إليه؛ فهو عَفُوق وهم عَقَقَهُ وَأَعَقَقَهُ.

(٢) مُتالِع: جبل.

(٣) الرِّعان، مفردُها الرِّعان: أنْفٌ يتقدَّم الجبل؛ ويريد أنَّ الحَبَّ هوى بالقلب في غير مكان من الصحراء، حيث نشأ الغَزَل العُدري.

(٤) اللِّصاب، مفردُها اللِّصْب: مَضيق الوادي.

(٥) الشُّعاب: مفردُها الشُّعْب: ما انفرج بين جَبَلَيْن، أو مسيل الماء في بطن الوادي.

(٦) الجرعا: رملٌ مستوية لا نبت فيها.

(٧) البان: شجر معروف ينبت بين السفوح.

(٨) الكُثبان، مفردُها كُتَيْب: التلُّ من الرمل.

(٩) الخِرِصان، مفردُها الخِرِص: الرمح القصير السنان.

وإذا هوى نَجْدٍ تَحَكَّم في فتى  
هَيْهَات ليس لعاشقٍ أُمْنِيَّة  
وإذا العواصِلُ<sup>(١)</sup> دون معسول اللّمي  
وإذا الخدود القانيات تعرّضت  
وإذا الأسود وقد تردّت في الحمى  
وإذا رجال كتائب النُّعمان قد  
وإذا الأعزُّ الأيهم<sup>(٢)</sup> الغسّان قد  
حال تطيش بها العقول وربّما  
تُعبي فؤاد الأَحْوَذِيَّ<sup>(٣)</sup> كأنه  
ما أن يقاوم بأسها بطلٌ ولو  
تغشى مقاصير العظام ولم تكن  
عمّت فإن فاتت عديم القلب بال  
لكن ما أودى بعذرة حبه  
وترى القلوب على المحاسن أقبلت  
وترى إلى وصل الحبيب حنينها  
كيف الخلاف وللِفؤاد تأثّر  
أو كيف لا أهوى الجمال وقد بدا  
عين الوجود اللامع النور الذي

جعل الرّدى في حَيِّز النسيانِ  
يسعى إليها في طريق أمانِ  
يزداد معها القلب في الحَفَقانِ  
للحبّ سال لها النجيع القاني  
صرعى أمام كوانس الغزّلانِ<sup>(٤)</sup>  
ذلت لعزّ شقائق النُّعمانِ  
أمسى رقيق الأهيّف الغسّاني<sup>(٥)</sup>  
أخبت ذكاء ثواقب الأذهانِ  
مما أصيب صريع خمر دنانِ  
حازت يدها عِزّة العقبانِ  
عنها تعرّض مناسك الرُّهبانِ  
وجدان ما فاتته بالبرهانِ  
لم يختلف بشعوره اثنانِ  
مثل الدّلاء جُذِبْنَ بالأشطانِ<sup>(٦)</sup>  
يحكي حنين التُّجِبِ<sup>(٧)</sup> للأعطانِ<sup>(٨)</sup>  
بجميع ما مرّت به العَيْنانِ؟  
من نور ذاك العالم الرّبّاني؟  
ما لاح مثل سناه للأعيانِ

(١) العواصِل (اسم من فعل): الرماح اللينة.

(٢) كنس الغزال: دخل كِناسه (بيته).

(٣) الأيهم: الجريء الذي لا يُستطاع دفعه.

(٤) الغسّاني: الأولى: حدة الشباب؛ والثانية: البالغ الجمال.

(٥) الأَحْوَذِي: السريع في كل ما أخذ فيه.

(٦) الأشطان، مفردها الشطن: الجبل.

(٧) التُّجِب: كرام الإبل.

(٨) الأعطان، مفردها العطن: والعطن للإبل كالوطن للناس.

العاقب إلا كليل مصباحُ الهدى  
هو أحمد المحمود<sup>(٢)</sup> مَنْ فِي حَلَّةِ  
فَالله يشهد أن طه المُجْتَبَى  
واذكر صحابة صاحب المعراج مَنْ  
الراشدين العاملين إلى الهدى  
هُم عُصبة الدّين الحنيف وشيعة الشرع الشريف وفتية الإيمان  
تلقى أبا بكر<sup>(٤)</sup> بصدرهم أنبرى  
وترى أبا حفص<sup>(٥)</sup> يقيم المسجد ال  
يرمي الممالك بالجيوش وقد غدت  
ضربَ القياصرة العظام بصارمٍ  
فَعَنَتْ له بالرغم شُمُّ أنوفهم  
وأباد فارس سيفُ سعد<sup>(٨)</sup> وأذعنت  
وقضى الإله علاء ذادة دينه  
فالهذي فيهم ضاربٌ أطنابه  
والدّين تعصف بالممالك ريحه  
بجهد قوم أصبحت أعمالهم  
فيهم أبو الحسين صفحة سيفه  
قد كان ليثَ عرينه وفؤاده

والصادق المبعوث بالفرقان<sup>(١)</sup>  
كَنَفَ الوجودِ تَشَرَّفَ الثُّقْلانِ<sup>(٣)</sup>  
هو خير مَنْ سارت به قَدَمَانِ  
حازوا السباق بأول الميدانِ  
والناشرين شريعة القرآنِ  
هُم عُصبة الدّين الحنيف وشيعة الشرع الشريف وفتية الإيمان  
يَهْدِي الأُولَى رجعوا إلى الكفرانِ  
أقصى بهمته على أركانِ  
في قبضتيه شواسعُ البلدانِ  
أنسى البرية «سيف»<sup>(٦)</sup> في غُمدانِ<sup>(٧)</sup>  
وخلاله كسرى من الإيوانِ  
مصر لعمر و<sup>(٩)</sup> أيما إذعانِ  
بالنصر والجيشان يلتقيانِ  
والحق مُلقٍ في الورى بجرانِ  
عَمَّا يُزَلُّ مواقف البُهتانِ<sup>(١٠)</sup>  
أبدًا بجيد الدهر عقدُ جُمانِ  
فَجُرُّ ينور ليل كل طعانِ  
بحقائق الأكوان بحرُ معانِ

(١) الفرقان: القرآن.

(٢) أحمد ومحمود طه: من أسماء الرسول (ﷺ).

(٣) الثقلان: الإنس والجن.

(٤) هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه.

(٥) هو أبو حفص عمر البلوطي، من قرطبة. أسس دولة إسلامية عاصمتها الخندق بعد خروجه من قرطبة سنة ٨١٨م.

(٦) يريد سيف بن ذي يزن، المتوفى سنة ٥٧٤م.

(٧) غمدان: قصر قديم في صنعاء - اليمن.

(٨) هو سعد بن أبي وقاص، المتوفى سنة ٦٧٥م. من أبطال الصحابة، قاد جيوش، فتح بلاد فارس، بنى الكوفة.

(٩) هو عمرو بن العاص، المتوفى سنة ٦٦٤م. قائد مسلم شهير، فاتح مصر، بنى القسطنطينية.

(١٠) البُهتان: الكذب.

وأفَى مَنَازِلَ فِي العُلُومِ تَقَطَّعَتْ  
فَلَکُمْ حَوَتْ تِلْكَ الصَّحَابَةَ سَادَةَ  
صَرَفُوا إِلَى الأرواحِ جُلَّ عَنَائِهِمْ  
أَسِيفُ حَقٌّ بِالهِدَايَةِ قَطَّعَتْ  
حَقَّ الفَخَّارِ بِهِمْ لِكُلِّ مُوَحَّدٍ  
فَاذْکُرْ فَتُوحَاتِ العُقُولِ بِرَشْدِهِمْ  
وَإِذْکُرْ لَهُمْ فَتْحَ المَمَالِكِ فِي الوَرَى  
مِنْ مَشْرِقِ ذَاقِ النِّکَالِ وَمَغْرِبِ  
هَمْ قُدُوءٌ لِلعَالَمِينَ بِهَا اهْتَدَى  
أَهْلَ الخِلافةِ مِنْ بَنِي العَبَّاسِ مِنْ  
بَلَّغُوا جِدَارَ الصِّينِ مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ  
وَتَرَى حِذَاءَ<sup>(٣)</sup> فُرُوقَ وَقَعِ سِیُوفِهِمْ  
وَالغَزْنَویَّةَ<sup>(٤)</sup> یُوغَلُونَ بِزَحْفِهِمْ  
وَبَنُو أُمیَّةٍ فِي الجَزیرَةِ حَكَّمُوا  
وَإِنظِرْ بَنِي آیُوبَ لَمَّا أَعْمَلُوا  
وَصَلَّاحِ دینِ اللّهِ أَنْزَلَ بِطَشُهُ  
وَلِوَاءِ یُوسُفَ تاشفینَ<sup>(٦)</sup> بِمَغْرِبِ  
ثُمَّ السَّلاجِقَةِ العِظَامِ وَإِثْرِهِمْ  
سِیْفَ الصَّنَادِیدِ المَساعیرِ<sup>(٧)</sup> المِغَا

عَنْ دَرَكُهِنَّ نِیاطُ کُلِّ جَنَّانِ  
غُرًّا مِنْ الأَنْصارِ والأَعوانِ  
وَتَجَانَفُوا<sup>(١)</sup> عَنْ خِدمَةِ الأَبْدانِ  
بِینَ العِبادِ هِوادیِ الأوثانِ  
لِثُبُوتِ مَجْدِهِمْ بِکُلِّ أوانِ  
تُهْدَى لِحَقِّ العِلْمِ وَالعِرفانِ  
مِنْ کُلِّ نَاحِیةٍ وَکُلِّ لسانِ  
طَلَعَتْ عَلَیْهِ کِواکِبُ الفُرسانِ  
سُمُّ المِعاطِصِ فِي أُوْلِي السُّلطانِ  
بَعْدَ الخِلائِفِ مِنْ بَنِي مِروانِ  
أُخْرِی تَخَطَّوْا شَاهِقَ البِیرانِ<sup>(٢)</sup>  
وَتَجَاوَبَ الأَصْداءُ فِي السُّودانِ  
فِي السَّنَدِ آوَنَةً وَهِنْدِستانِ  
أَمْضَى ظِباهِمِ فِي ذِوِي التَّيجانِ  
فِي المِعتَدینِ عِواسِلِ المُرَّانِ<sup>(٥)</sup>  
بِالقُومِ فِي حِطِّینِ کُلِّ هِوانِ  
خَرَّتْ لَهُ الأَعْداءُ لِلأَذقانِ  
أَصْواتِ ضَرْبِ الصَّیْلَمِ العِثمانيِ  
ویرِ القُرُومِ<sup>(٨)</sup> المَعشَرِ الغُرَّانِ

(١) جنف عن الأمر: عدل عنه.

(٢) بیران: قرية قرب سمرقند.

(٣) حذاء: بمعنى محاذاة.

(٤) الغزنویون: سلالة من المماليك الأتراك، حكمت شرقي إيران وأفغانستان، قضى عليهم الغوريون.

(٥) المرَّان: الرماح.

(٦) يوسف بن تاشفين، المتوفى سنة ١١٠٦م. سلطان المغرب الأقصى، أول الملوك المرابطين وأشهرهم، بنى مدينة مراكش.

(٧) المساعير: يريد موقدي نار الحرب.

(٨) القُروم: (مجازاً) الأبطال.

ما كان يُنْضَى<sup>(١)</sup> في وَغَى الْأَمَلِ<sup>(٢)</sup> الد  
سَلْ عَنْهُ عَثْمَانُ الْقَدِيمُ وَإِنْ تَمَلُّ  
وَانظُرْ مُرَادَ وَبْنَ يَزِيدَ بَغْرِبَهُ  
وَارْمُقَ أَبَا الْفَتْحِ الْأَعَزِّ مُحَمَّدًا  
فِي مَأْزِقِ وَالْجَانِبَانِ تَصَادِمًا  
وَالْحَيْلِ بَاشَرَتِ الْبَحَارَ فَرَدَّهَا ال  
وَالْبَيْضَ تَخَطَّبَ فِي الرُّؤُوسِ رَوَاكِعًا  
حَتَّى تَصَاغَرَتِ الْبِلَادُ لِأَمْرِهِ  
وَعَدَا سَلِيمُ رَبُّ كُلِّ إِيَالَةٍ  
وَأَتَى سَلِيمَانُ الزَّمَانَ بِفَيْلَقٍ  
مَادَتْ لَهَيْبَتِهِ الْبَسِيطَةَ مَيْدَةً  
وَسَعَتْ عِزَائِمُهُ الزَّمَانَ وَقَائِعًا  
تَفْدِي بَنِي عَثْمَانَ كُلَّ قَبِيلَةٍ  
حَمَلُوا الْخِلَافَةَ وَالْبِلَادُ طَرَائِقُ  
فَغَدَّتْ وَقَدْ صَارَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا  
وَلَهُمْ بِهَا الْعَدْلُ الَّذِي أَبَدَى لَنَا  
حَقًّا إِذَا مَا أَمَّنُوا فِيهِ الْوَرَى  
فَبِمَثَلِهِمْ فَلِنَفْتَحِرْ وَبِهَدْيِهِمْ

نِيَا بَرُّعْبَ صَلِيلِهِ الرَّتَّانِ  
لِزِيَادَةِ فَاعْطِفْ عَلَى أَرْخَانَ<sup>(٣)</sup>  
قَادَا الْأَعَادِي كُلَّهَا بَعْرَانَ<sup>(٤)</sup>  
أَخْنَى عَلَى جُرْثُومَةِ الرُّومَانِ  
وَتَقَابِلِ الْبَرَّانِ وَالْبَحْرَانَ  
فِرْسَانَ فَاْمْتَنَعْتَ عَلَى الْأَرْسَانَ  
طَوْرًا وَتَنْطِقُ الْأَسْنَ النِّيرَانَ  
وَاسْتَسَلَمْتَ لِيَدِيهِ مِثْلَ الْعَانِي  
فِي الشَّرْقِ مَحْمِيًّا بِهِ الْحَرَمَانَ  
خَضَعْتَ لَهُ الْأَفْلَاكَ فِي الدَّوْرَانَ  
لَمْ تُبْقِ مِنْ أَحَدٍ وَمِنْ ثَهْلَانَ<sup>(٥)</sup>  
مِنْ كُلِّ حَرْبٍ فِي الْعِدَاةِ عَوَانَ<sup>(٦)</sup>  
فِي الْأَرْضِ أَبْرَزَهَا لَنَا الْعَصْرَانَ  
فِي كَفِّ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالْعِصْيَانَ  
تِيهَا تَجَرَّ صَوَافِي الْأُرْدَانَ  
كَيْفَ اسْتَوَاءَ الشَّاةُ وَالسَّرْحَانَ<sup>(٧)</sup>  
رَدُّوا غِرَارَهُمْ<sup>(٨)</sup> إِلَى الْأَجْفَانَ<sup>(٩)</sup>  
فَلْنُهِدَ بَعْدَ تَقَاعُدٍ وَتَوَانَ

(١) نَضَا السِّيفَ مِنْ غَمْدِهِ: سَلَّهُ.

(٢) مَلَا: أَي مَلَأَ.

(٣) أَرْخَانَ: هِيَ أَرْجَانُ مَدِينَةٍ فِي فَارَسِ.

(٤) عِرَانَ: مَوْضِعٌ قَرِبَ الْبِيَامَةِ فِي بِلَادِ نَجْدِ.

(٥) أَحَدٌ وَثَهْلَانَ: جَبْلَانِ.

(٦) حَرْبٌ عَوَانَ: بِالْفَعْلِ الشَّدَّةِ.

(٧) السَّرْحَانَ: الذَّنْبِ.

(٨) الْغِرَارُ: حَدُّ السِّيفِ.

(٩) الْأَجْفَانَ: الْأَغْمَادِ.

في السالفين من الأفاضل عبرة  
في كلِّ يومٍ من برازخهم<sup>(١)</sup> لنا  
أو لا نُجيب ونحن أحياء في الورى  
أن نعتذر بزماننا وطباعه  
إنَّ المبادئ لا تزال فواعلاً  
فيها يكون إلى الحصول توَسُّلاً  
يغدو الزمان بها على أحواله  
والعقل لا يعنو لحالاتٍ إذا  
وإذا تحصَّلت الشجاعة لم تكن  
فلنعملنَّ فالرأي في نيل المُنَى

تجلو المرء بأقصر الإمعانِ  
داعٍ ينبّه خاطر الغفلانِ  
يومًا ندا الأجنان في الأجنانِ<sup>(٢)</sup>  
فهي العوارض لم تُخصَّ بأنِ  
ما بين ما يتعاقب الملوآنِ<sup>(٣)</sup>  
وبدون ذلك علة الحرمانِ  
بالناس من زيدٍ ومن نقصانِ  
ما شاء أوقعها بحال تفرانِ  
عند المحصِّل غاية الإمكانِ  
هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

(١) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، يريد بها: الدار الآخرة.

(٢) ندا الأجنان، الأولى: نداء الأموات؛ الثانية: القبور.

(٣) الملوآن: الليل والنهار.



## وقلت مفتخرًا بالسلف

وأضيقُ نُصحي ما تقول عواذلي  
وأهدأُ حالي ما تهيجُ بلابلي<sup>(١)</sup>  
وتطربُ من مرِّ النسيم شمائلي  
على عذبات البان عند الأصائلِ  
نواعمُ لا يعرفنَ غير الخمائلِ  
وأبكي لأيام الصِّباء الرِّواحلِ  
بدمعِ طويلِ الذَّيلِ هامٍ وهاملِ  
وسُهدي على هجرِ الخليلِ<sup>(٢)</sup> المزائلِ<sup>(٣)</sup>  
وروقِ إعناتِ الغرامِ مناھلي  
وقلبِ على حُكمِ الصِّبابةِ نازلِ  
ويُعجني في الرملِ هديُّ المَطافلِ<sup>(٤)</sup>  
وأعشقُ رباتِ الخُصورِ النواحلِ  
وأمرحُ في بَدْخِ الصِّبَا غيرِ سائلِ  
وحبِّ الدُّمى مجرى الدِّمَا في مفاصلي  
ويا غادةِ الجرِّعاءِ حُبِّكَ قاتلي  
ويا هذه الأُلحاظِ سحرِكَ بابلي  
أطلتَ بتعنيفي على غيرِ طائلِ

أقلُّ عذابي ما تُصابِ مَقَاتلي  
وأسعرُ ناري ما تُكُنَّ جوانحي  
تفيضُ دموعي كلما لاحَ بارقُ  
وإني لتشجونِي الحمائمُ إنْ شدتْ  
سواجعُ بالشَّكوى يُنحَنَ على النَّوى  
يبكين أوقات الصِّفاء التي خلت  
وإني لَصَبُّ لم أزلْ أندبُ اللُّقا  
حنيني إلى عهدِ الوصالِ وأهلهِ  
ولكنَّه قد دمَّتْ الحبُّ مُهَجَّتِي  
تفرَّدتُ في طبعِ إلى الحبِّ نازعِ  
فيطر بني هَمْسُ القصائرِ<sup>(٥)</sup> في الحمى  
وأهوى لِحاظِ العينِ معسولةِ اللَّمى  
وأختال في غيِّ الهوى غيرِ عابئِ  
وإني لِيَجري في جناني هوى الحمى  
فيا ظبيَّةَ الكُثبانِ حُسنِكَ فاتني  
ويا هذه الأَعْطافِ رمحكِ طاعني  
ويا عاذلي أقصرِ فلستَ بوازعي

(١) البلايل: شدةُ الهمِّ ووسواسِ الصدرِ.

(٢) الخليل: الصديق.

(٣) زابله: فارقه.

(٤) القصائر، مفردُها القصيرة والقصورُ من النساء: المحبوسة لا يُسمح لها بأن تخرج من بيتها.

(٥) المطافل، مفردُها المُطْفِل: الناقة التي وضعت أولادها حديثًا، تتمهَّل في سيرها لكي يلحق بها أولادها.

سأمنع عن عيني لأجلك نومها  
 وأجري بمضمار الهوى مُتهتِكَا  
 لأعشقُ حتى ليس لي من مُعادلِ  
 وأرهنُ هذا القلبَ للغَيْدِ والمَهْيِ  
 وما الحبَّ إلا خُلِقَ كلَّ مهذَّبِ  
 وما الحُسنُ إلا دونَ كلِّ عرينةِ  
 إذا كلُّ طَرْفٍ ذابلٍ عندِ ذابلِ  
 تجولُ جِيادُ الخيلِ في كلِّ عَرِصَةٍ<sup>(٣)</sup>  
 وتحمي سيوفُ الهندِ عن كلِّ كَلَةٍ  
 أزورُ خيامَ الرَّبْعِ غيرِ مُوارِبِ  
 وإنِّي من الشعبِ الذين إذا سعوا  
 ألم ترهم بالأمسِ حزمًا وقوَّةَ  
 فما آجِلٌ يرجونه غيرِ عاجلِ  
 لقد خيَّبوا آمالَ كلِّ معارضِ  
 بسُقْمِ سَراحيبِ<sup>(٥)</sup> وسُمُرِ ذوابِلِ  
 غداةَ بلادِ الناسِ شرقًا ومغربًا  
 لقد دكدكوا الأَجبالَ فيها وشيَّدوا  
 سقوا تربةَ الأرضينِ سهلاً ومرقبًا  
 أطاروا قلوبَ الكاشحينِ وأرقصوا

وأقسم ما تبكيه بين المنازلِ  
 أُجرِّرُ في سُوطي فُضولَ الغلائلِ  
 وأكلفُ حتى ليس لي من مُمائلِ  
 وأجعلُ هذا العقلَ مَهْرَ العقائلِ  
 وما الوجودُ إلا شأنُ كلِّ حُلاحِلِ<sup>(١)</sup>  
 وما الوصلُ إلا في مجالِ الغوائلِ  
 وكلِّ قوامِ عاسلٍ دونَ عاسلِ<sup>(٢)</sup>  
 وأنضي إليها كلَّ يومٍ رواحلي<sup>(٤)</sup>  
 لقد طالما علقتُ فيها حمائلي  
 وأغشى ديارَ الحيِّ غيرِ مُخاتِلِ  
 يُجَلِّونَ قَدْرًا عن حوولِ الحوائلِ  
 مفاعيلهم في الأمرِ قبلَ المَقاولِ؟  
 وما عاجلٍ يابونه غيرِ آجِلِ  
 وقد زلزلوا أقدامَ كلِّ مُنازلِ  
 وبيضِ أصاليتِ<sup>(٦)</sup> وصُفْرِ عياطِلِ<sup>(٧)</sup>  
 أطلُّوا على أقطارها بالجحافلِ  
 سِواهُنَّ سُمًّا من غبارِ القساطِلِ<sup>(٨)</sup>  
 من الدمِّ بالأنهارِ لا بالجداولِ  
 فرائصهم من كلِّ حافٍ وناعلِ

(١) الحُلاحِلِ: السَيْدُ في عشيرته، الشجاع التام.

(٢) الذابل والعاصل: الرمح.

(٣) العرصة: ساحة الدار.

(٤) أنضي الرواحل: كناية عن كثرة الأسفار.

(٥) السُقْمِ السَراحيبِ: الخيل المتناسبة الأعضاء.

(٦) البيضِ الأصاليتِ: السيوف المصقولة الماضية.

(٧) العياطل: التُّوق الطوال.

(٨) القسطل: الغبار الساطع في الحرب، وكانما أقاموا منه جبالاً، بدلاً من الجبال.

وقد سحقوا بطشاً رؤوس عداتهم  
فما زال منهم باخعا كلّ عامل  
إلى أن ولوا بالسيف أقصى بلادهم  
فهم خير من في الأرض سلّوا صوارمًا  
وهم خير من ضمّوا اليراع إلى القنا  
لقد نشروا العلم الحقيقي في الورى  
وقد خطبوا في الأرض بالحق من على  
أزالوا سفاهات الشعوب وقابلوا  
وشادوا على تلك الرسوم حضارة  
فأصبح منهم عامرًا كلّ غامرٍ  
زها ونما نبتُ الوشيج بأرضهم  
أولئك آبائي فجئني بمثلهم  
رجال لديهم راق جمع مناقب  
بُدور بأفاق الزمان أوافلُ  
أقاموا زمانًا ثم مرّ عليهم  
زمانًا قضوه بالعلاء ولم تكن  
كذلك قد كانت أوائل قومنا  
ونحبي رسومًا غادروا لاعتبارنا  
أما نحن من حازوا الغنى بعقولهم  
وقد كان منا كلّ ندبٍ مجرّبٍ  
وكلّ همامٍ مشيع الحجرِ راشدٍ  
وكلّ إمامٍ كالغزالي وهو من  
وكلّ حكيمٍ كالرئيس الذي جرى

وقد نزلوهم من رؤوس المعازلِ  
وما زال فيهم عاملاً كلّ عاملٍ  
فلم يدعوا فيها مجالاً لجائلٍ  
وقادوا عتاق الخيل قُبّ الأياطلِ<sup>(١)</sup>  
وهم خير حدّ بين حقّ وباطلٍ  
على حين تغلي الحرب غلي المراجِلِ  
منابر عزّ من مُتون الصواهلِ  
سفسفهم بالمكرمات الجلائلِ  
أقيمت على أسّ التقي والفضائلِ  
وأضحى لديهم مُمرعًا كلّ قاحلٍ  
وفي مُدُنهم زادت فنون الصياقلِ  
والآفهم في الأرض خير القبائلِ  
عفافٍ وإقدامٍ وحزْمٍ ونائلِ  
نحبي على تلك البُدور الأوافلِ  
عتو الدواهي والليالي الدوائلِ  
ليالي غلامهم بالليالي القلائلِ  
ألا ليتنا نبني بناء الأوائلِ  
فأصبح منها دارسًا كلّ مائلٍ  
وجادوا على كلّ الورى بالفواضلِ  
بنور الحجى جال دياجي المعاضلِ  
مُوفّق آراءٍ دليل مجاهلِ  
إذا قال لم يترك مجالاً لقائلِ  
وخلّى أرسطو خلفه بمراحلِ

(١) قُبّ الأياطل: صفة لأصائل الخيل. والأياطل، مفرد الأياطل: الخاصة؛ وقبّ الخاصة: دقّ وضمر.

وكلّ أريب كآبن رُشد<sup>(١)</sup> ومَن على  
فبالشرق منّا كالرشيد وقومه  
ولا تنسَ في وادي الفرات وجلّق  
ولا سادة منهم محمّد<sup>(٥)</sup> جاعل  
لعمرى إذا ندري الأمور فإنّما  
وغرّ العلى فوق العوالي دوامياً  
لنعمَ نداء الحرب في كلّ أمةٍ  
لينشر من أكفانه كلّ مَيّتٍ  
فذلك أمر لا يزال مجدّداً  
إذا ضاق عنه النثر فبالبحر واسع

هُداه وكالرازي<sup>(٢)</sup> نَدُّ الأوائلِ  
وبالغرب منّا ناصرٌ بعد داخلِ<sup>(٣)</sup>  
وفي مصر آثار الصلاح وعادلِ<sup>(٤)</sup>  
بقبضته البرّين دون مطاولِ  
زوال العنا بين القنا والقنابلِ  
ونَيْلُ المنى دون المنى<sup>(٦)</sup> والمناصيلِ  
أناخ عليها دهرها بالكلاكلِ  
ويوقظ من تهويمه كلّ غافلِ  
نشاهده فليذكّرَن كلّ ذاهلِ  
بنا والقوافي رافداتُ الفواصلِ

(١) ابن رشد: الفيلسوف.

(٢) أبو بكر الرازي: أشهر أطباء الإسلام وفلاسفتهم.

(٣) عبد الرحمن الناصر الأموي بعد جدّه عبد الرحمن الداخل.

(٤) صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقبله نور الدين زنكي، المُلقَّب بالملك العادل.

(٥) محمّد الفاتح العثماني.

(٦) المنى، بفتح الميم: الموت.

## وكتبت إلى السيد جمال الدين الأفغاني، رحمه الله

يا جمال الإسلام والإسلامُ  
مثلما أنت في الحياة والآ  
هكذا إن يصح في الأرض مجدٌ  
همم دونها الكواكب مثوى  
قاذفات على المصاعب عزمًا  
مثل هذا حويت يا رجل الأرم  
لم تزل تُحرز المحامد حتى  
أنت فرد فيما شملت ولكن  
لك نفس الأملاك في عزة الأوف  
لك طبع سامٍ ووجهٍ وسيمٍ  
ورُموزٍ ملء الحقائق طرًا  
ويراع كالغيث منه انسكابٌ  
ومعانٍ لو أوحيت لجماد  
حيرت كل ذي حصاة<sup>(٣)</sup> إلى أن  
كل هذا حوى الجمال وأوفى  
كل حيٍّ لم يحدُّ فضلك حدواً  
فلتطاول بك الكواكب وليفخر بعلياك آدم لا سام<sup>(٤)</sup>  
ونجب ما تدعو إليه والآ  
صدّه عن هوى الجمال الملامُ  
فحياة الفتى عليه حرامُ  
دونه كل ما نرى أو هامُ  
ومضاء من دونه الأيامُ  
لو تبدى تدكُّدك الأعلام<sup>(١)</sup>  
ض فماذا عسى يدلّ الكلامُ  
كلّ حمْدٍ له عليك ذمامُ  
في اقتدار الجنان أنت لهُام<sup>(٢)</sup>  
سلاك في جود من يده الغمامُ  
أدبر الظلم منهما والظلامُ  
وعلوم فوق العلى أعلامُ  
وذكاء كالنار فيها ضرامُ  
هزّه الشوق نحوها والغرامُ  
قيل لا شك إنها إلهامُ  
يا جمال الدنيا عليك السلامُ  
كلّ ساعات عمره آثامُ  
فليحقّ النفوس منا اهتضامُ

(١) الأعلام: الجبال.

(٢) اللُّهَام: الجيش الكثير، يريد أن الأفغاني كان أمةً وحده في راحة عقله.

(٣) الحَصَاة: العقل.

(٤) سام: ابن نوح.

كلّ نفسٍ قصدَ الفلاحَ عليها  
 وقبيحٌ يا نفسِ قولك هذا  
 أبدعَ الله في العبادِ أمورًا  
 حسبنا الله من وكيلٍ ولكن  
 دون نَيْلِ العُلَى رُبِيٌّ ووهادٌ  
 نطلب المجد من سوانا ولكن  
 يا زمانًا أتى بكلّ عجيبٍ  
 جيئُ بما شئت يا زمان غريبًا  
 إنّ أمرًا أصحابه تركوه  
 فغدوا مثلما جعلتَ وما كا  
 يا جمال الإسلامِ إنّي امرؤٌ تمّ  
 عبثًا يُجهزُ الزمانُ علينا  
 ليس يخلو الزمانُ يومًا من العبد  
 حالةً عن فِصالِ أمثالها الأير  
 منك يرجى يا سيّدي يا جمال الد  
 أنت للمسلمين في دينهم حجةٌ حقّ لغيرهم إلزامٌ  
 عطف النفس ما استطعت علينا  
 ما شككنا في أن تنال الأمانى  
 ما عجبنا للفرس إذ بصنيع الد  
 أظهر اليوم يا محمد وابهر

طلفًا<sup>(١)</sup> ليس تخلقُ الأنامُ  
 فوق همّي وقوّة لا تُضامُ  
 وعليها عليهمُ الإقدامُ  
 لنقل مثل ذا ونحن قيامُ  
 لا ننال العلى ونحن نيامُ  
 لم يسود عصامُ إلا عصامُ<sup>(٢)</sup>  
 أيّ يومٍ كُنّا وخسفاً نسامُ  
 وتحكّم إذ أنت لست تُلامُ  
 بعد ما أظفروا عليه وصاموا  
 ن إلهي مُغيّرًا لو داموا  
 من عليهم والله ضاق الكِظامُ<sup>(٣)</sup>  
 «ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ»  
 مرة لكن قد سُلت الأفهامُ  
 ام قد مسّها لعمرى العُقَامُ  
 ين وصلُ الحبالِ وهي رِمَامُ<sup>(٤)</sup>  
 نحن لولاك في الورى أيتامُ  
 سيّد أنت والزمان غلامُ  
 ولة اليوم حَقّك الإعظامُ<sup>(٥)</sup>  
 أنت في المشرقين بدر تامُ

(١) الطلف: هنا، الهين من كلّ شيء.

(٢) العصامي: من شرف نفسه لا بأبائه؛ يريد ما جعل عصام سيّدًا لا عصاميته.

(٣) الكِظام: مخرج النفس.

(٤) رَمَّ (الحبل): تقطع.

(٥) كان هذا في أول ذهابه إلى إيران قبل أن ينكبه فيها الشاه ناصر الدين.

وتغلب على العوائق واجعل  
قاطع رأيك المسدد في الدهر  
فيك يأتي القريض منتظماً عف  
ذا مجال إن تجتنبه خنازير  
فامهر اليوم ما زفت قبولاً  
خدم الدهر باب عزك بالإخ

كل ما لا يرام مما يرام  
ر الذي ليس يقطع الصمصام  
وا وتنساب وحدها الأقلام  
ذ<sup>(١)</sup> القوافي فإنني الصرغام  
يا جمالاً أنا به مستهام  
لاص ما واصل افتتاحاً ختام



### وقلت وكتبت بها إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده<sup>(٢)</sup>

لقلبي ما تهمي العيون وتأرق  
وما كنت ممن يرهب العشق قلبه  
وما كنت ممن يرشق السهم لحظه  
أصبت به كل القلوب وإنه  
تركت الورى أسرى هواك وإنما  
لديك استرقتهم من الطبع رقة  
جذبت بهاتيك المعاني قلوبهم  
كلام إذا القيته في جماعة  
عليه من النور الإلهي مسحة  
مناهل الطاف وأعين حكمة  
يبيت بها غصن البلاغة ناضراً  
سلام على وجه الإمام محمد

وللعين ما يبلي الفؤاد ويرهب  
ولكن من يدري فنونك يعشق  
فيهوى لذا، لكن يراعك أشيق  
لينضحها بالنبل قبل يفوق<sup>(٣)</sup>  
أسيرك في ميدان فضلك مطلق  
فأنت لهم حق رقيق ومعتق  
وتيمها والله ذاك التأنق  
غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينسق  
تكاد على أرجائه تتألق  
تظل على روض المعارف تغدق  
وريقاً على نبت الفصاحة يسمق  
محيًا به ماء الحيا يترقرق

(١) الخنذيد: الشاعر المجيد.

(٢) الشيخ محمد عبده، من أعلام عصر النهضة، تلميذ السيد جمال الدين الأفغاني وأستاذ الأمير شكيب أرسلان.

(٣) الفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. وفوق السهم: وضع فوقه في الوتر ليرمي به.

ولله دُرُّ البحرِ دَرُّ مُحَمَّدٍ  
وأخلاقه الغرَّاء إذا شئت وصفها  
إمامٌ بخصل العقل والنقل فائزٌ  
إذا ما تبرى في حلبة الفضل قصرت  
خطيب الورى بالحق للحق مظهرٌ  
إذا قام من فوق المنابر فاصلاً  
تميد الورى عند استماع خطابه  
فما قام بالحق الحنيفي صادعاً  
له القلم المشهور يزرى مداده  
عجائب مولى في محمد عبده  
لك الله يا مولاي هل من فضيلة

ومنها:

وفي أمل أني لدى فعل واجبٍ  
إذا نال مثلي من كلامك لفظةً

تتوج منه للمعارف مفرقٌ  
وإن لم أشأ توحى إلي وأنطقُ  
سبوق لغاياتٍ حكيمٍ مُحَقِّقُ  
حوالي مداه حلبة هنَّ سَبَقُ  
ظهيرٌ وللبطلان مُرْدٍ ومُزهِقُ  
فأي ضلال ليس يُمحي ويُمحقُ  
وتعجب للأعواد إذ ليس تُورقُ  
وللفكر شملٌ بات ليس يُمزقُ  
بتبرٍ إذا في مُهْرَقٍ<sup>(١)</sup> هو مُهْرَقُ  
وربك يعطي ما يشاء ويرزقُ  
بهذا الورى إلا بها أنت أليقُ؟

أسكن قلباً دونه بات يخفقُ  
تشرّفه فهو السعيد الموفقُ

وقلت أمدح الأمير الكبير علي باشا، صاحب تونس الخضراء، وأقرظ تأليفه المسمى  
بمناهج التعريف في أصول التكليف:

عُجٌّ باللّصاب وعُنقُ الليلِ مقتولُ  
بصارمِ ابنِ ذكاءٍ وهو مسلولُ

ومنها:

باتت سعاد علي ذا كله وغدتُ  
إذا تمرّ الصّبا في خدرها غلّساً<sup>(٢)</sup>  
كذاك حتّى إذا شمس الصُّحى طلعت

(١) المُهْرَق: الصحيفة.

(٢) الغلّس: ظلمة آخر الليل.



قامت سعاد تحيينا فما قمر  
جلت محاسن ما يُلقى لها مثل  
نقول بدرٌ وغصنٌ كي نشبها  
فلا يغرنك في مثل لها طمعٌ  
حتى إذا شغف القلب الذي اجتذبت  
يحاول الجهد كي يقتص مدرجها  
تجوب جوز الفلا في كل ناحية  
مرثومة<sup>(٣)</sup> بالبري<sup>(٤)</sup> خلت مخاطمها<sup>(٥)</sup>  
فاعطف على طلل الجزع<sup>(٦)</sup> إن دمي  
كانت لنا غرُّ أوقات مضت معها  
تلك الليالي التي ما بُت أذكرها  
كنا نهيم بها والعمر مقتبلٌ  
في كل وادٍ من الآرام ليس به  
أما الليالي فقد عادت وهنّ بنا  
ولت سعاد وبُدّلنا بها جزعاً  
فلا يغرنك من دنياك زخرفها  
إنّا نزلنا على وادي تضلل قد  
يمدّ في كل يومٍ للورى شركاً

على قضيب على الكُثبان مَحْمُولُ  
وما لملتَمِسٍ مِنْهُنَّ تَنْوِيلُ  
وإنّما قولنا يا صاحِ تَمَثِيلُ  
فدون أمثالها العنقاء والغولُ  
«بانت سعاد فقلبي اليوم مَثْبُولُ»  
وهل يطيق تباع العيس مغلول؟  
تزلُّ عن متنها رَقْطَاءُ<sup>(١)</sup> زُهْلُولُ<sup>(٢)</sup>  
جذباً كما غودر الثوبُ الرَّعَابِيلُ<sup>(٦)</sup>  
منها على طللٍ<sup>(٨)</sup> بالجزع مَطْوُولُ  
والخَطْبُ منهزم والهَمّ معزولُ  
إلا شجيت وبي اهتاجت عقابيلُ<sup>(٩)</sup>  
والعيش غصن ورَبْعُ الأَسِّ مَاهُولُ  
إلا أغنَّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ  
من بعد ما كُنّا أطفالاً مطافيلُ  
وكلّ شيءٍ له في الأرض تبديلُ  
فما زخارفها إلا الأباطيلُ  
تدفقت من حوالينا الأضاليلُ  
والناس منهم به ناجٍ ومَحْبُولُ

(١) الرقطاء: حية خبيثة.

(٢) الزهلول: الأملس.

(٣) مرثومة: في أنفها بياض، وهو من دلالات الحُسن. الرثم: كسر الأنف.

(٤) البري، مفردا بُرّة: كلّ حلقة من سوار وقرط واخلخال.

(٥) المخاطم، مفردا مِخْطَم: الأنف.

(٦) ثوب رعابيل، مفردا رعبولة: أي ممزقة، ولعله يريد أن هذه المرأة غدت نهباً لكلّ طامع.

(٧) الجزع: محلّة القوم.

(٨) طللّ الدم: هُدُر، فهو مَطْوُول.

(٩) العقابيل، مفردا عقبول: الشدائد.

فَمَنْ سَعَى عَنْ طَرِيقِ الْغَيِّ مَبْتَعِدًا  
وَمَنْ تَهَاوَتْ عَمْدًا فِي ضَلَالَتِهِ  
كَمْ زَلَزَلَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ لِكُفْرِهِمْ  
فَلَيْسَ تَبْرَحَ لِلرَّحْمَنِ حَامِيَةٌ  
هَلْ بَأَى تُونِسَ إِلَّا السِّيفَ جَرْدَهُ  
فَالْيَوْمَ لِلرُّشْدِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْطَةٌ  
بِكَفِّ أَبْلَجٍ مَيِّمُونَ مَطَالِعُهُ  
أَشَدُّ أَوْسَعِ مَنْ فِي ذِرْعِهِ سِعَةٌ  
مَشْبُوبٌ عَزَمَ بِحَسَنِ الْحَدْسِ مَتَّقِدٌ  
يَلَا حَقَّ الْقَصْدِ بِالتَّسْهِيدِ مُتَهَجِّجًا  
إِذَا تَغَضَّفَ جَنَحَ الْخَطْبِ مُعْتَكِرًا  
مِنْ مَعْشَرِ الْمُؤْمِنِينَ الْغُرِّ مَحْتَدُهُ

ومنها:

بَفَيْلَقٍ لَجِبٍ<sup>(١)</sup> مِنْ كُلِّ مُلْتَثِمٍ  
مُقَدَّفٍ<sup>(٥)</sup> يَقْدِفُ الْعَادِي بَصْهَوْتَهُ  
لِلَّهِ هَذِهِ عَلَى بَايِ<sup>(٦)</sup> الزَّمَانِ فَهَلْ  
عَنْ مِثْلِ عَلَيْهِ كَفُّ الدَّهْرِ قَاصِرَةٌ  
فَلَيْسَ يَنْضِي لِرَوْعِ عَضْبِ هِمَّتِهِ  
وَلَيْسَ يُمَسِّكُ عَنْ عَافٍ مَوَاهِبَهُ

فَجَبَلٌ مَسْعَاهُ بِالْخَيْرَاتِ مَوْصُولٌ  
فَلْيُعْلَمَنَّ فَعَرْشَ الْكُفْرِ مَثْلُولٌ  
قَدَمًا وَأَهْلِكَ جَيْلٌ قَبْلَهُ جَيْلٌ  
لَتَزْهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ زِحْلِيلٌ<sup>(١)</sup>  
فِي الْأَرْضِ رَبِّي فَحَدَّ الْبَغْيِ مَقْلُولٌ؟  
وَلِلتَّعَسُّفِ وَالْإِلْحَادِ تَذْلِيلٌ  
فَحُمِ الْجَنَابِ وَقِيلَ قَيْلُهُ الْقَيْلُ<sup>(٢)</sup>  
طَوَلًا وَأَطْوَلُ مَنْ فِي بَاعِهِ طَوْلٌ  
فَوَادِهِ وَبِحَبِّ اللَّهِ مَشْغُولٌ  
إِذَا انْتَحَتْ هِدْيَةُ السَّارِي الْعَوَاقِلُ<sup>(٣)</sup>  
فَمَا عَلَى غَيْرِهِ فِي الْكَشْفِ تَعْوِيلٌ  
لَدَى عِمَامَتِهِ تَعْنُو الْأَكَالِيلُ

لَهُ صَدِيقٌ غَدَاةَ الْحَرْبِ عَزْرِيلٌ  
إِذَا عَلَا النَّقْعُ تَكْبِيرٌ وَتَهْلِيلٌ  
لِمِثْلِ مَحْصُولِهِ فِي الْمَجْدِ تَحْصِيلٌ؟  
وَأَعْيُنُ السَّحْطِ مِنْ حُسَّادِهِ حَوْلٌ  
إِلَّا وَتَنْجَابِ فِي الْحَالِ الْعِرَاقِيلُ  
إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءَ الْغَرَائِيلُ

(١) الزَّحْلِيلُ: الْمَكَانُ الضَّيِّقُ الرَّزِيقُ.

(٢) الْقَيْلُ، بِفَتْحِ الْقَافِ: الْمَلِكُ؛ وَالْقَيْلُ، بِكَسْرِ الْقَافِ: التَّلْفِظُ وَالْعَلْبَةُ وَالْجَوَابُ، فَهُوَ الْمَبْتَدِئُ وَالْمَجِيبُ وَالنَّافِذُ الْكَلِمَةُ.

(٣) الْعَوَاقِلُ، مَفْرَدُهَا الْعَاقُولُ: الْأَرْضُ لَا يُهْتَدَى إِلَيْهَا.

(٤) اللَّجِبُ: تَقُولُ جَيْشٌ لَجِبٌ أَي ذُو جَلْبَةٍ وَضَوْضَاءُ.

(٥) مُقَدَّفٌ: فَارِسٌ يُقْدِفُ كَثِيرًا إِلَى الْوَقَائِعِ وَالغَارَاتِ.

(٦) بَايٍ: لِقَبِّ تُونِسِيِّ.

ومنها:

حقائق طيِّ ذاك الصدر مُحَرَّزَةٌ  
تزهو بهنَّ تآليفٌ مُفَرَّدَةٌ  
منها مناهجٌ للتعريفِ واضحةٌ  
تجلو بفضلِ خطابِ كلِّ مسألة  
الله أكبر هذا فضل سيِّدنا  
يبغي جميعُ الورى إيفاءُ دينِ ثنا  
مهلاً أبا حسنٍ نجلِ الحسينِ فما  
تزهو بكم تونس الخضراءِ ممرِّعةٌ  
كفاكمُ شرقاً أهلِ الحسينِ فهل  
أثني عليكم بتقصيري على أملٍ  
وقد أعارض فيكم فارساً<sup>(١)</sup> بطلاً  
فيا مليكاً تقاصي في ممالكه  
إن كنت بدرًا بأفقِ الغربِ مُنبليجاً  
فاسلم وعزك للأحلافِ معتصمٌ  
وارعَ الحنيفيةِ البيضاءِ مُعتصماً

على شتاتٍ فمعمولٌ ومنقولٌ  
على افتراقٍ فتجميلٌ وتفصيلٌ  
يدلّ سالكها حُكْمٌ وتعليلٌ  
عوصاً<sup>(٢)</sup> وإن كثرت فيها الأقاويلُ  
فأين من وصفه مدحٌ وتبجيلٌ؟  
فيعجزون ودينُ الشكرِ ممطولٌ  
أنتم أيا سادتي إلا بهاليل<sup>(٣)</sup>  
وليس يزعب<sup>(٤)</sup> في أغوارها النيلُ  
مقصرٌ عنكم في الوصفِ معذولٌ؟  
لعلَّ عُذريَ عند الباي مقبولٌ  
لا يترك القرن إلا وهو مجدولٌ  
لكنْ لنعمته في الأرضِ تظليلٌ  
فالشرق من لطفِ ذاك النورِ مشمولٌ  
من الرزايا وللأعداءِ تنكيلٌ  
بالحقِّ والله بالتوفيقِ مسئولٌ



وقلت في الأستاذ الشيخ محمد عبده أهنيه بالأضحى

هل الدهر إلا ذا النهارِ وضيدهُ  
يدور فمن أيِّ الجهاتِ ابتدرتهُ  
يُعاود كلاً منهما الدهر ندهُ  
وتابعتهُ تبدا به وتحدّهُ

(١) عوصا: عوصاء.

(٢) بهاليل، مفردها بهلول: السيّد الجامع لكلّ الخير.

(٣) زَعَبُ النهر: تدافع سَيْله في الوادي وملاؤه.

(٤) أحمد فارس الشدياق له في أحد بايات تونس قصيدة أولها: "زارت سعاد وسُتر الليل مسدول".

ولا خير في يومٍ يمرّ على الفتى  
فليست حياة المرء إلا شهادةً  
إذا كان لا يختار تمجيدَ ربّه  
وإلا ففي دار الفناء ثناؤه  
وحيّ غداً في ما سوى الروح ميّتا  
ومن كان لا يُوتي الجماعة نفعه  
لعمرك ليس العمر في المرء عيشه  
فأحجى به<sup>(١)</sup> إجهاد ما بات فاقداً  
فيغنيه عن رغدِ المعيشة شكره  
كذا السيف معدومٌ وقد غاب نصله  
وما الحمد إلا الجدّ فهو وراءه  
وهل قيمة الإنسان إلا فعاله  
ولولا اشتغال المرء ما ذاع ذكره  
فأجملُ من خضبٍ بكفك شغلها  
وأصلحُ من ذلّ بنفسك موتها  
كذا فلتكن تلك الحياة التي أرى  
أودُّ بها خلقاً كثيراً وإنّما

ومنها:

لقد آثرَ المولى بنعماءِ أنفًا  
هو البدر لكنّ المعالي سماؤه

إذا لم ينل فيه ثنا يستجده  
على فضل مولاه فيظهر مجده  
فإنّ الإله اختار ما فيه نكده  
مقام وفي دار السعادة خُلده  
لقد حلّ عندي حيثما حلّ وأده  
فإغفاله فيها سواء وعده  
ولكنّ حقّ العمر في المرء حمده  
لإحراز شيءٍ ليس يحسن فقده  
وليس بمغنيه عن الحمد رَغده  
وليس بمعدومٍ وغاب فرنده<sup>(٢)</sup>  
وما الجدّ إلا الجدّ فهو مُعده  
وهل قدره إلا عناء جهده؟  
ولولا اشتعال العود ما ضاع<sup>(٣)</sup> نده<sup>(٤)</sup>  
وأحسنُ من كحلٍ بطرفك سُهده  
إذا كنت ممّن مَورد العزّ ورده  
وإلا فكم سهل على الحرّ لَحده  
أودّ من الأيام ما لا تودّه

فلا غرّو أن يسعد محمدُ عبده  
هو النجم لكنّ الفضيلة سَعده

(١) أحجى به: أخلق وأجدّر به.

(٢) الإفرند: جوهر السيف ووشيه، (وهو لفظ دخيل).

(٣) ضاع: تَضَوّع وانتشر.

(٤) النَّد: عودٌ طيب الرائحة.

هو اللَّيْثُ لَكِنَّ المَحَامِدَ غَابَهُ  
هو البحر عن كلِّ النقائص جزره  
تُحِيطُ بِأَشْتَاتِ العُلُومِ جَمِيعِهَا  
مُجَدِّدٌ رُوحِ صَارِ فِي وَسْطِهِ نَزْعِهِ  
حَكِيمٌ فَلَا تَلْهِيهِ إِلَّا جَوَاهِرُ  
لَقَدْ ظَلَّ سُلْطَانَ الكَلَامِ بِأَسْرَةٍ  
لَهُ قَلَمٌ يَزْرِي بِكُلِّ مَهْنَدٍ  
لَهُ فِي رَهَانِ المَكْرَمَاتِ مَآثِرُ  
تَرَدَّى بِأَثْوَابِ المَحَامِدِ كَلَّهَا  
إِلَى كُلِّ مَا يَسْنِي الثَّنَاءَ صَبَاؤُهُ  
أَيَا مَنْ وَرُودِي فِي البَيَانِ مَعِينُهُ<sup>(١)</sup>  
تُبَاهِي البِرَايَا مِصْرُ أَنْكَ نَجْلُهَا  
لَدَيْكَ رَقِيقُ الشَّعْرِ يَحْلُو نَشِيدُهُ  
وَيَقْنَى مِدَادُ المِرْيَةِ فِيكَ لَدَى الثَّنَا  
وَمِثْلِكَ مَنْ تُبْدِي المَوَاسِمُ فَضْلَهُ  
فَهَنَّاكَ الأَضْحَى وَلَا زَالَ عَائِدًا  
عَلَيْكَ مِنَ المَوْلَى يَصَبُّ سَلَامُهُ

هو السيف لكنَّ المكارمَ غمدهُ  
ولكن إلى كلِّ الكمائل مدهُ  
ففي أيِّ علمٍ جئتَ يُقدِّحُ زندهُ  
وموضِحُ أمرٍ أقلعَ اليومَ رُشدُهُ  
غدا عبرةٌ فيما سِوَاهُنَّ زهدُهُ  
فأعلامه الأقلامُ والكتبُ جُنْدُهُ  
يصول على العادي به فيقدُّهُ  
كَبَتْ دُونَهَا قُبُ السَّبَاقِ وَجُرْدُهُ  
وَفُوفَ مِنْ كُلِّ المَحَاسِنِ بُرْدُهُ  
وعن كلِّ ما يؤذي الكرامة صدُّهُ  
فأصبحت في مدحي له أستمدهُ  
ويفخر هذا العصر أنك فردُّهُ  
وفيك دقيق الفكر يحسنُ نشدُهُ  
وإن يكن البحر المحيط يمدُّهُ  
وفيها مع العليا يُجدِّدُ عهدُهُ  
عليك سعيدًا دائمًا لك سُكْدُهُ<sup>(٢)</sup>  
وفي قلبك الوقَادُ يَنْزِلُ بَرْدُهُ



ولي تهنئة للشيخ محمد عبده بزفافه في بيروت، وهي بنت ساعتها

وإن تكن جُمِعَتِ كُلُّ القُوى فِيهِ  
من العلام لم أصوب رأيَ مُذْهِبِهِ<sup>(٣)</sup>

ماذا يحاول مثلي في قوافيه  
من مدح من حين لاحت لي مكانته

(١) المعين، بفتح الميم: الماء الجاري.

(٢) الشكد: الجزاء.

(٣) دَحَى الشيء: بسطه.

تَعْنُو الْمَعَانِي لَدَيْهِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ  
تَأْتِي سِوَاهُ فَتَسْمُو فَوْقَ هَامِهِمْ  
رَبُّ الْمَقَامِ الَّذِي بَاتَتْ تَحُفُّ بِهِ  
قَدْ حَازَهُ وَاللَّيَالِي مِنْ مَوَانِعِهِ  
بِفِكْرَةٍ مَا انْتَضَى فِي الْخَطْبِ صَارِمَهَا  
أَذَلَّ كُلَّ جِمَاحٍ لِلزَّمَانِ بِهَا  
وَإِنَّمَا الْفِكْرُ إِذْ صَحَّتْ مِبَادِيهِ  
فَهُوَ الَّذِي كُلُّ رَأْيٍ مِنْهُ مُنْبَلَجٌ  
مَنْ يَكْشِفُ الْأَمْرَ خَافِيَهُ كَظَاهِرِهِ  
مَا إِنْ جَلَا عِلْمُهُ فِي مَطْلَبِ لَبِيبِ  
مُجَدِّدِ رُوحِ هَذَا الدِّينِ مَنْعَشَهَا  
مَنْ مِنْهُ دَهْرُكَ مَاضِيَهُ وَحَالِيَهُ  
أَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَا يُفَارِقُهَا  
فَسَلْ نَجْمَ الْعُلَا عَنْ شَأْوِ هِمَّتِهِ  
لَا أَخْتَشِي إِنْ أَقْلَ مَنْ ذَا يُسَاجِلُهُ  
إِذْ يَنْتَضِي قَلَمًا كَالْعَضْبِ<sup>(١)</sup> يُظْهِرُهُ  
أَوْ إِنْ يَقُلْ كَلِمًا تَغْدُو وَقَائِلَهَا  
فَلَيْسَ تَتْلُو الْوَرَى مِنْ قَوْلِهِ غُرًّا  
نَالَتْ فَوَادِي رَغْبَاهُ فَوَائِدُهُ  
يَا لَيْتَ مَقْدِرْتِي فِي وَصْفِ حِكْمَتِهِ  
فَكُنْتُ أَشْعُرُ أَهْلَ الْأَرْضِ قَاطِبَةً  
لَكِنِّي دُونَ ذَاكَ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَمِدٌ  
إِنِّي أَمْرٌ لَمْ تَكُنْ تُحْصِي مَطَامِعُهُ

كَأَنَّهَا فِي الْبَرَايَا مِنْ جَوَارِيهِ  
وَتَنْتَحِيهِ فَلَا تَرْقَى مَوَاطِيهِ  
غُرَّ الْفَضَائِلِ تُعْلِيهِ وَتُغْلِيهِ  
مَنْ دُونَهُ وَالْعَوَادِي مِنْ عَوَادِيهِ  
إِلَّا تَمَكَّنَ قِطْعًا مِنْ هَوَادِيهِ  
وَلَا حَسَامٍ وَلَا رَمْحٍ يُرَوِّيهِ  
عَنِ الْجِيُوشِ غَدَا وَاللَّهُ يُغْنِيهِ  
فِي الرَّوْعِ عَنْ كُلِّ فَجْرِ فِي حَوَاشِيهِ  
وَيَبْلُغُ الْقَصْدَ قَاصِيَهُ كِدَانِيهِ  
إِلَّا وَأَسْفَرَ صُبْحًا عَنْ دِيَاجِيهِ  
مَنْ بَعْدَ مَا بَلَغْتَ مِنْهُ تَرَاقِيهِ  
مُقَلِّدٌ جَيِّدُهُ بِالْفَخْرِ حَالِيهِ  
إِلَّا عَلَى مَبْدَأِ اللَّيْدِينَ يُخْيِيهِ  
وَالشَّرْقَ وَالْغَرْبَ فَاسْأَلْ عَنْ مَسَاعِيهِ  
مَنْ ذَا يُسَاوِرُهُ مَنْ ذَا يُسَاوِيهِ  
عَلَى حَسَامٍ صَقِيلِ الْحَدِّ مَاضِيهِ  
ذَا الْبَحْرِ يَزْرِي وَذِي تَزْرِي لِأَلِيهِ  
إِلَّا وَنَادُوا جَمِيعًا جُلَّ بَارِيهِ  
وَبَلَغْتَنِي آمَالِي آمَالِيهِ  
كَانَتْ تُعَادِلُ بَيْنَ النَّاسِ حَبِيهِ  
إِذْ بُتُّ أَهْمِيهِمْ مِنْ فِطْرَتِي فِيهِ  
عَلَى مَقَالَةٍ أَنَّ الْفِعْلَ أَنْوِيهِ  
وَلَمْ يَخْلُ فِي الْوَرَى شَيْئًا لِيَكْفِيهِ

(١) العَضْبُ: السيف القاطع.

حتى رآه فأمست دون مبلّغه  
 وإنه والذي سوى محمّد من  
 فهو الهمام الذي فخر القلوب به  
 المسترقّ قلوب الخلق منطّقه  
 وقد غدا طالب التأهيل عن رُشد  
 آتاه ربّي من النعمى موقرها  
 أراه أنجال أنجاب وأسعده  
 ومدّ في عمره ذخراً لميلته  
 فهو الذي في الورى غرّان أنعمه

من كلّ مآثرة صرعى أمانيه  
 لم أرض عن ناظري حتى أرانيه<sup>(١)</sup>  
 إذا ابتدا اللبّ يروي عن معانيه  
 إذا أفاض فلا حرّ بواديه  
 وشيمة الحرّ تآبى غير أهليه  
 إذ يمنح الفضل ربّي مُستحقّيه  
 بخفض عيش رفيع الشان ساميه  
 بالدود عن حرّم الإسلام يقضيه  
 قد أنطقنتي ارتجالاً في تهانيه

تأريخ

بارك الله لمولانا زفا  
 جئت فيه اليوم أرّخ قائلاً

فا قريناً للرفا والولد  
 حلّت الشمس ببرج الأسد

١٣٠٤



ولي رثاء لحرم واصا باشا، متصرف لبنان، وهي من نظمي يوم كنت في الرابعة عشرة  
 من العمر:

أتنكرُ نبدّ النضح فيما تُحاوله  
 وتُحجو أنصباب الدمع ويحك منكراً  
 فأرود<sup>(٢)</sup> فأقصر، عمرك الله، واتنّد  
 تحاول تجفيفاً لدمعي كعامد  
 وإطفاء نار بالحشى مثل من أتى  
 أيا لائمي في الحزن كلني للأسى

بعذل وباكي العين جارت عواذله؟  
 إذا دبّجت خضر الروابي هو اطله  
 فأنأى من العنقاء ما أنت آمله  
 لتجفيف بحر محور الأرض ساحله  
 لظى سقر يطفي الصلا وهو آكله  
 شجياً فقد طابت لديّ مناهله

(١) أرانيه: أراني إياه.

(٢) أرود في السير: تمهل، ومنها فعل الأمر أرود.

ولا تتعبن أو تعتن حيث لم أصح  
 عدلت بما قد ظلت تجهل همته  
 ولو كنت تدري ما الرزية لم تلم  
 مُصاب بدت للموت فيه شدائد  
 به ذهب اليوم الردى كل مذهب  
 أزال بأفق المجد شمس فضيلة  
 عقيلة صون قد أُصيب بها العلى  
 تعطل خسفاً جيداً ذا الدهر بعدما  
 مضت فمضى منها إلى الله مُمتعاً  
 فقامت لها في كل حي نوادب  
 ألا إن لبنان الأغر تخضبت  
 تمثل دك الطور في صعقاته  
 أمصرها يوم الثلاثاء وقد سرى  
 تُصعد فيه الناس كل شرارة  
 فيا قبرها في الحازمية فوقه  
 سقتك شأبيب الرضى غدوة  
 أراحلة من عالم الموت للبقا  
 لك الله بالصبر الذي قد قضيت  
 اتخذت الليالي النابغية مألفاً  
 وتصبر حتى أصبح الداء عندها  
 فوئح الردى كيف انبرى لاختطافها  
 تحرمها لا يرهب البأس من حمى  
 فلم يتهيب للوزير بسالة  
 أقام السرايا فوق لبنان تنجلي

فهيات إصغائي لما أنت قائله  
 ألا فاعدلني بالذي أنت عاقله  
 ولكنما يستصغر الأمر جاهله  
 بما لم تكن تدريه يوماً غوائله  
 كأن الردى لم يدر ما هو فاعله  
 تميد بها من ذا الزمان جلائله  
 على مثلها مات العلاء وعقائله  
 تحلى بها دهرًا من الدهر عاقله  
 بنعماه شخص لا تعدد كمائله  
 لحسن ثناء يُفعم البر نائله  
 رياه دمًا ممًا بكته قبائله  
 دمادمه ممًا تميد معاقله  
 بها نعشها كالفلك والدمع حامله  
 بما فيه قد ساوت ضحاه أصائله  
 غطاء من العفو المهيم سادله  
 وظل الحيا ينهل فوقك وابله  
 ويا حبذا من ذلك الحي راحله  
 بداء مدى السبع السنين يُناضله  
 فما شأن طرف حالك الليل كاحله  
 أو اخره قد سُويت وأوائله  
 ولم تُدم مُد مدت يدها أنامله  
 وزير وقت أسيافه وعوامله  
 تسامت ولم تُغن الوزير مناصله  
 فأين السرايا للحمام تُنازله؟



أُصِيبَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَيْسَ تُفِيدُهُ  
 وَلَا غَرَوَ فِيهِ مِنْ مُصَابٍ مُعْظَمٍ  
 وَإِنَّ الَّذِي جَلَّ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ  
 لَقَدْ جُلَّ أَنْ يَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ بِأَسِهِ  
 وَزِيرٌ إِذَا قَلَّ الثَّنَاءُ فَإِنَّمَا  
 هَنِيئًا لِلبَنَانِ بِهِ إِنْ ذَكَرَهُ  
 تَوْلَاهُ وَاصَا حَيْثُ وَاصَى<sup>(١)</sup> أَيَادِيَا  
 فِدِينَاكَ طُرًّا لَا تُطْعَمُ بِاعِثِ الْأُسَى  
 وَإِنَّ الَّذِي قَدْ صَلَّتْهُ يَدُ الْقَضَا  
 فَهَلْ فِي قَضَاءِ اللَّهِ تُنْجِيكَ حَيْلَةٌ  
 وَهَلْ كُلَّ شَأْنٍ مَبْتَغِيهِ وَسَائِلُهُ  
 فَجَدَلْتَ ذَا الْعِدْوَانَ بِالسَّيْفِ عُنُودَةً  
 فَعَطَفَ عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسًا فَإِنَّهُ  
 فَمِثْلِكَ لَا يَعْنُو لِاثْقَالِ نَكْبَةٍ  
 وَمِثْلِكَ فِي لَبْنَانَ هَمَّتْهُ انْتَضَتْ  
 نَشَرَتْ لَوَاءَ الْعَدْلِ فَوْقَ هِضَابِهِ  
 فَدَمَّتْ عَلَيْهِ وَالْيَا تَسْعُدُ الْوَرَى

فَتِيلاً عَلَى دَرِّءِ الْمُصَابِ جَحَافُلُهُ  
 فَمَا وَائِبَ الضَّرْغَامِ إِلَّا مِمَائِلُهُ  
 لَا حَرِيَّ بَأْنَ هَانَتْ عَلَيْهِ نَوَازِلُهُ  
 بَلِ الدَّهْرُ يَخْشَاهُ فَلَيْسَ يُعَادِلُهُ  
 شَمَائِلُهُ بِالِالْتِفَاتِ شَوَامِلُهُ  
 يَضُوعُ بِأَذْكَى مَا تَضُوعُ خَمَائِلُهُ  
 تُوَاصِي<sup>(٢)</sup> التَّنَاطُولَ الْمَدَى وَتَوَاصِلُهُ  
 فَإِنَّكَ لَا يَعْنِيكَ فِي الْخَطْبِ هَائِلُهُ  
 حَسَامٌ غَدَتِ أَمْرَ الْإِلَهِ حَمَائِلُهُ  
 إِذَا نُصِبَتْ لِلِاقْتِنَاصِ حَبَائِلُهُ؟  
 يَصْحَحُ بِهِ فِيمَا يَرُومُ وَسَائِلُهُ؟  
 وَلَكِنْ هَذَا الْمَوْتُ لَيْسَ يُشَاكِلُهُ  
 قَضَاءُ عَمِيمٍ مَقْصِدَاتٍ مَقَاتِلُهُ  
 عَلَى أَنْ جَزَمَ الرَّأْيَ إِذْ ذَاكَ كَاهِلُهُ  
 فَوَائِقُ مَا كَانَتْ تَرْجِي أَوَاهِلُهُ  
 خَفُوقًا بِالْآءِ غَدَتِ لَا تُزَايِلُهُ  
 كَمَا دَمَتِ جُودًا فِيهِ يَخْضُرُ وَابِلُهُ



### ولي بعد ذلك تهنئة بزفافه

وَصِفْ لَنَا الْيَوْمَ مَجْلَى سَفْحَةِ النَّضْرِ  
 تَرَى دَرَارِيهَا تَزْدَانُ بِالْذَّرَرِ  
 عَلَى أَسَاطِينِ نَوْرِ نَائِرِ الْأَكْرِ

ادِرْ لَنَا رَاحَ تَذْكَارِ الْحِمَى اِدِرْ  
 وَارْمُقْ سَنَاوَتَهُ وَانظُرْ سَمَاوَتَهُ  
 تَرَى قَبَابَ السَّنَا فِي الْأَفْقِ صَاعِدَةً

(١) واصل: واصل.  
 (٢) توأصي: بمعنى توأصي به.

أنعم بها ليلة لبنان تاه بها  
جاد الزمان بأهليه بطلعتها  
كأنما كان منذ البدء حاملها  
يزين قبتها نوراً وساحتها  
حتى كأن ضياها امتد متصلاً  
مشاهد كملت أنوار زينتها  
يكاد لبنان أن يهتز من طرب  
عمت بذي البهجة العليا مسرته  
تأرجحت من ثنا المولى الوزير لنا  
هو الوزير الذي ما شئت من وزر  
أقسمت ما دام منه الخير منصرماً  
كنا نحاذر دهرًا قبل هيمته  
يرتد عن مجده الوضاح منكسراً  
بدرٌ ينير على الأقطار قاطبةً  
مهذبٌ تبخع الجلى لحكمته  
مؤيدٌ سنة العدل التي شرفت  
طافت بكعبته الآمال واعتمرت  
إلى مكارمه الأنام واردة  
باتت تحدث عن معنى سماحته  
أبدى فأيد أيدي المكرمات بنا  
أين الرزية تجتاح العباد فقد  
له بكل مكان كل مائرة

وبات يرفل في ثوب من الحبر<sup>(١)</sup>  
من بعد صن بها في سالف العصر  
حتى تمحضها ذا اليوم عن كبر  
نور فتزهر بين الزهر<sup>(٢)</sup> والزهر  
بيومها وكأن الأرض لم تدر  
ما بين منتظم منها ومُنثر  
وأن يمس بما يحويه من مدر  
جميع أهليه من بادٍ ومحتضر  
أرجاؤه بأريج ضائع عطر  
منه على دهرنا ألفت من وزر  
إلى العباد فما زند الزمان وري  
فالآن نحن وما بقى على حذر  
طرفٌ عن الشمس أضحى غير منكسر  
بحرٌ سواه جميع الناس كالغدر  
يرى ويمضي مضاء الصارم الذكر  
ورافع راية الإرشاد في البشر  
وليس إلا البنان الرطب من حجر  
تتري ولكنه ورد بلا صدر  
وعدل أحكامه الغراء عن عمر  
جوداً كما كفّ كف الرزء والغير  
رمى بها بين سمع الأرض والبصر؟  
غراء معلومة الأحجال والغرر

(١) الحبر: الوشي (للثوب خاصة).

(٢) الزهر: النجوم.

إذا أفاض على العافي<sup>(١)</sup> مواهبه  
وإن سطا بطعانٍ ملٍّ من يدهِ  
يا مَنْ لتأييدِ علياهِ وسلطتهِ  
بك انقضت غصبة الأيام وانكشفت  
لك الأيادي على لبنان ترسلها  
لكم رأبت له صدعًا وكم سعث  
سقيته الغيث من رغدٍ ومن دعة  
فعاد بعد ذوي عيشه نضيرًا  
ما أن ترى ماسَ بين الناس غصنُ هنا  
ما لي أعدد ما واصيت من نعمٍ  
فمثل فضلك بحرًا ليس يحصره  
فاهنأ بسعدٍ هداءٍ لا تزال به  
تزهو لنا اليوم في تاريخه جملٌ

أزرى بغيثٍ من الوطفاء<sup>(٢)</sup> منهمرٍ  
قرى الوشيج وغرب<sup>(٣)</sup> الصَّيلم البتر<sup>(٤)</sup>  
تدعو الرعيّة في الآصال والبُكرِ  
صروفها بالزمان الأخضر النَّضيرِ  
سُحبًا على رائحٍ فيها ومبتكرِ  
لَمَمْتَ فيه وكم قومت من صعرِ  
كذاك يُسقى جديب الأرض بالمطرِ  
وشبَّ بعد وضوح السَّيب في السَّعرِ  
إلا ولبنان أمسى خير مُهتَصِرِ  
على حماك وما شيدت من أثرِ  
لسانٍ مثلي في ذا العيِّ والحَصَرِ<sup>(٥)</sup>  
مقارن العزِّ والنعمى مدى العُمُرِ  
فقل تجلّى قرانُ الشمس والقمرِ

١٨٨٥



ولي للمرحوم حسن أفندي بيهم، من أعيان بيروت، تهنئة بزفافه وهي أيضًا من أوائل

شعري:

وفيك القوافي يُستمال سُروُدُها  
إذا استُصبحت أقبالُها ونُجوُدُها

إليك التهاني تُستحثُّ وفوُدُها  
وتُسلكنها فيها معانيك هينَةً

(١) العافي: كل طالب فضل أو رزق.

(٢) سحابة وطفاء: مُسترخية لكثرة ماؤها.

(٣) غُرب السيف: حده.

(٤) الصَّيلم البتر: يريد السيف القاطع.

(٥) الحَصَر: العيُّ عن النطق.

ومنها:

تعاب عزمي فيك كلّ خليفةٍ  
كأني قرصتُ الشعر قبل زمانه  
وكت إذا ما أعتمتُ<sup>(١)</sup> صمتي عن الثنا  
فإن كنت للحسنى عميدًا وصاحبًا  
وإن صيغَ عقد المدح فيك فطالما  
كأنك من ماء الشهامة منهلٌ  
لقد شملت منك الجميع بلطفها  
وقد فزت حظًا بالمعلّى من العلى  
حصلت على سُمّ المعالي فلم يزل  
صبوت إليها وهي نحوك قد صبّت  
غلبت القوافي كلّها وسبقتهَا  
بهمة مقدام العزيمة لا ترى  
وأخلاق ميمونِ النّقية ما ينبي<sup>(٢)</sup>  
فتى لو أعار الشمس ضوء جبينه  
ولو لابس الظلماء نور جنانه  
ولو مزج الله الحياة بلطفه  
نشا كلفًا بالمكرمات فلم تزل  
إلى الغاية القصوى منازعُ همّه  
توليه ذات الأروعية نفسه

عليها سراويل العلى وبرودها  
ليوجب في يوم عليّ نشيدها  
أكلّف نفسي خُطة ما تُريدها  
فإني مديحًا صبّها وعميدها  
تحلّت بك العلياء وازدان جيدها  
تظلّ العلى حررى إليه كبودها  
شمائل يزري بالسّمول ورودها  
فتقدح نارًا في يدك صلودها<sup>(٣)</sup>  
بأفق العنان البدر وهو حسودها  
فلا غرو أن تُفتن بحسبك غيدها  
وإن يُزر بالدّرّ النّضيد نضيدها  
عياء ولا وقع الصّعب يؤودها  
يصوب<sup>(٤)</sup> بها غيثُ الثنا ويجودها  
لما ساغ تحت الدجن يومًا ربودها  
لما احتيج من نور الصباح وقودها  
لما احتملت سُقمَ الجُسوم جلودها  
له نفحات ليس يُجحد جودها  
فأقرب هاتيك المغازي بعيدها  
على عقبات لا يُرام كؤودها

(١) عَتَمَ (عن الأمر): كَفَّ عنه بعد المضى فيه.

(٢) الصّلود: الزّند لا يُوري (لا يتقدح عن نار).

(٣) وَنَى: فتر وضعف.

(٤) صاب المطر: انصبّ ونزل.

يهتك أستار المغالق حزمه  
إذا اعترضت دهم عوابس في الورى  
على ملتقى سبل المعاني تخاله  
أملت له كل القلوب من الورى  
لقد ألفت الإفضال وهو ريبه  
ولاقت به زهر السعود جدوده  
رعى الله من يرعى المودة والولا  
أيا حسنا لم يُبق حسنا لغيره  
ويا محولا لا تاركًا طارف العلى  
عشقنا معانيك الحسان وإنما  
تضحك نغر الأقحوان تُغورها  
تباهت بك الأقلام إنك ربها

ومنها:

فخذها من الشعر العراقي عادة  
على غير عهد بالثناء ولم يكن  
وقد أنفذتها نحو مدحك هممة  
أخا الحسن فاهنا بالزفاف الذي زها  
ودم بهنا هذا القران ممتعا  
بقيت بقاء الدهر فخرا لأهله  
ولا زلت بدر الشرق ما ذر شارق

لدى معضلات لا ينادي وليدها  
فمنه لهم مهديها ورشيدها  
فمبتدر من كل صوب يصيدها  
مكارم تترى في القلوب قيودها  
وهل تألف الأغيال إلا أسودها؟  
كما تتلاقى في البروج سعودها  
بباصرة ما يطببها هجودها  
برفعة شأن لم يزل يستزيدها  
إذا كان أولك الغناء تليدها  
وحقك عين<sup>(١)</sup> لا يطاق صدودها  
وتفضح والله الشقيق خدودها  
وإنك مطبوع المعاني مجيدها

تناهت إلى ماء السماء<sup>(٢)</sup> جدودها  
حداها إلى ناديك إلا عهدها  
تجاذبها إقدامها وقعودها  
ودامت لك الدنيا وأنت سعيدها  
قرينك من هذي الحياة رغيدها  
وخللت لو نفس يُرجى خلودها  
وما طلعة الإصباح لاح عمودها

(١) العين، بكسر العين: بقر الوحش، ويريد بها "حور العين" أي حسناوات النساء (تشبيهاً).

(٢) يريد: المنذر بن ماء السماء اللّحمي.

ولي ثناء على جمال بك، نجل رامز بك، قاضي بيروت لذلك العهد، وكان من أفذاذ  
القضاة في العدل والنزاهة:

ليس مَنْ يملأ العيون جمالاً  
وأخو العشق ذو الهيام الذي قد  
يا جمالاً عشقت منه خِصالاً  
زادك الله رفعةً ويقيني  
جُمِعت فيك يا جمال معانٍ  
أو ما فيك ذلك العزم ما وُجِّهَ يوماً إلا استخفَّ الجبالا  
يسبق القول منك فعل إذا ما  
يا ابن مَنْ قَصَّرَ الأمائلُ طُراً  
نجل قُطب الزمان عدلاً على إلا  
لستُ أبغي وَصفاً لما أنت فيه  
لا ولا سُكَّرَ ما محضت من الوُ  
مكرمات ورقة وذكاء  
وزمان يظلّ ينشد عنها

غير مَنْ يملأ القلوب كمالاً  
تَخَذَ اللَّيْثُ في هواه الغزالا  
لستُ أرجو لغيرهِنَّ وَصالا  
بكمال إذا رأيت الهلالا  
يتمنى المديح منها المُحالا  
سبق القولُ في الأنام الفِعالا  
إن يرونا لذاته أمثالا  
طلاق لم يُبدِ نَدَّهُ الدهر حالا  
أنا ما إن أطيق هذا المجالا  
دّ صديقاً تراه بأسمك ألى  
ذي المعالي فليعلون مَنْ تعالي  
هكذا هكذا وإلا فلا لا



وكتبتُ إلى صديقي أيوب أفندي عون، مدير مدرسة الكاثوليك في حلب الشهباء:

حتّام تجذبني القُدود وأجنحُ  
ويهيّجني سوق الحسان وأدمعي  
غاضت دموعي بعد فيض شؤونها  
وبقيت فيما بين لدع صبايةٍ  
أحيي الليالي أملاً أن تنجلي

ويصدّني عنها الصُدود وأجمحُ  
أبدًا على سفح المعاهد تُسْفَحُ  
وعهدتُ عين الدمع ليست تُنزَحُ  
يكوي وبرّحٍ دائم لا يبرحُ<sup>(١)</sup>  
صُبْحًا وليس بأمثل ما تُصبحُ

(١) البرّح: الشدة. وتباريح الشوق: توهجه.

إن كان يوحشني الظلام لذي التوى  
 ولقد أتوق إلى الكرى فلربما  
 فلئن يكُن ذاك الغزال محرماً  
 يا ليلة بالجزع تُجزعُني بها  
 باتت تذكّرني ليالي بينها  
 ما بين هاتيكِ الطباءِ سوانحاً  
 باتت تتيه بها العقول إذا بدت  
 من كلّ مياسٍ أُغنّ (١) إذا انبرى  
 يلهو ويجرح في النهار وإنما  
 يا مَنْ يعذبني ويحسب أنني  
 يسطو عليّ ولا يرقُ فعنده  
 دلّهنّي في ذا الغرامِ فما أنا  
 فإلى م (٢) تهجرني وقد كاد الصبا  
 ما كنت أوبّ الصبور وإن يكُن  
 ذاك السميّ الباهرُ الشيمِ التي  
 المشبّعُ العقلِ الذي أخلاقه  
 الواسعُ الفضلِ الذي لثنائه  
 الناصحُ الجيبِ الذي آثاره  
 يثني عليه بالوفاء وإنما  
 حرّ تفتح للوداد فؤادُه  
 فهو الذي إن ضاق في الخلق الولا

فالهجر في يومي لعيني أوضحُ  
 طيف الحبيب بزورةٍ قد يسمعُ  
 وصلي فحسبي في الكرى ما يسحُ  
 نوحاً وراقى (١) الأيك مما تصدحُ  
 كنا وكان المنحنى والأبطحُ  
 تمشي بحبات القلوب وتمرحُ  
 تيهًا كبانات النقا ترنحُ  
 فالعقل يعقل والنواظر تطمحُ  
 قد ظلّ يجرح مُهجتي إذ يجرحُ  
 لعذابه طول الزمان مرشحُ  
 قلب ولكن بالحديد مُصفحُ  
 قيسٌ ولكن بالفراق مُلوحُ  
 يدوي ورطبُ غصونه يتصوحُ  
 بالصبر معني أسمي بفارسٍ يُشرحُ (٢)  
 أخلاقه بالأروعية تطفحُ  
 غرّ الوجوه حسيبة لا تُرجحُ  
 في كلّ خلقٍ من علاه مفتحُ  
 عن حسن ما يطوى عليه تُصرّحُ  
 تمديحه بوفائه لا يمدحُ  
 وكلامه عند الثنا يتفتحُ  
 ففؤاده بالودّ مغنى أفيحُ

(١) راقى، مفردها ورقاء: الحمامة.

(٢) الأغنّ: الكثير الشجر والعشب.

(٣) إلى م وإلام: إلى متى.

(٤) إشارة إلى أن "شكيب" يعني: الصبور، في اللغة الفارسية [شكبيدن] والمصدر الأمري - في الفارسية - شكيب.

وإذا تزحزح ركبته عن أرضنا  
لا غرّو إن شطاً<sup>(١)</sup> المزار فإنه  
سمح القريحة في رهان قريضه  
تلقاه يرعف في الطروس يراعه  
ويخوض في لجج الفنون ويجتني  
تزهو جنان العلم بين سطوره  
غرر تترجم عن علو مقامه  
يا صاحباً سمح الزمان يبغده  
لا بدع أن تبعد وأنت عزيزه  
أثويت في الشهباء أفسح منزل

فهو الذي في العهد لا يتزحزح  
قلم الليب بكل مسك ينفح  
يجري كما يجري الجواد الأقرح  
كالسيل في بطن الجوا يتبطح  
دراً بها صدر الزمان موشح  
إذ كل ما فيها لعين مسرح  
ولعلها من كل مدح أفصح  
ويبغده وجه الزمان مكلح  
فالدهر يبعد في الورى ما يمنح  
لكن محللك في فؤادي أفسح



وقلت في رثاء لأحد الأعزّة، وهي من أوائل نظمي:

هي الأحكام يصدّرها القضاء  
ولا ينبو حسام الموت مهما  
لقد عمّ الردى كلّ البرايا  
وأصبحنا رعايا للمنايا  
ألسنا الخلق غايتنا زوال  
نهل إلى البكاء متى وُلدنا  
ولا نرجو بذي الدنيا بقاء  
حياة كانسياب الطيف مرّاً  
إذا كانت نهايتها خفوتاً  
يغرّ المرء منها ورد عزّاً

فليس لمبرم إلا المضاء  
أتيح له على الخلق انتضاء  
ومات الناس حتّى الأنبياء  
علينا من ولايتها لواء  
وعنصر خلقنا طين وماء؟  
ويضحّبنا إلى الرمس البكاء  
ألا إن البقا منا براء  
بدنيا للفناء هي الفناء  
فأطولها وأقصرها سواء  
يخال به السعادة وهو داء

(١) شطّ: بَدَدَ.



موارد عَلَقَمٍ تَبْدُو عَذَابًا  
يُدِيرُ الدَّهْرَ فِينَا كُلَّ كَأْسٍ  
وَيُرْهَقُنَا مِنَ الأَرْزَا بِبَطْشٍ  
يُمزِقُ فِي البَرِيَّةِ كُلَّ شَمْلٍ  
وَيَهْدِمُ للمَعَالِي كُلَّ رَكْنٍ  
كَذَا قَضَتْ اللَّيَالِي مِنْ بَنِيهَا  
لِعَمْرِكَ فِي البَرِيَّةِ أَيُّ أُمَّ  
فَوَا عَجَبًا لِضَاهِدَةٍ<sup>(٢)</sup> لَدَيْهَا  
لَقَدْ آلتَ رِعَاهَا اللهُ قُدَمًا  
تَفَجَّعْنَا بِكُلِّ فَقِيدٍ فَضْلٍ  
لَقَدْ كَانَتْ تَتِيهَ بِهِ المَعَالِي  
رُؤْيُكَ أَيُّهَا المَنْعِيُّ نَعِيًّا  
وَيَا مُتْرَحَلًا مَهْلًا لِعَمْرِي  
وَرَدَ حِمَامَكَ الأَسْوَنَ لَكِنْ  
تُنَادِيكَ الفَضَائِلُ وَهِيَ تَبْكِي  
وَكَمْ جَهَّتْ عَلَيْكَ شُؤُونَ دَمْعٍ  
أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الإِفْضَالِ عَنِّي  
فَإِنْ يَجْزَعُ فَلَيْسَ عَلَيْهِ لَوْمْ  
وَإِنْ يَصْبِرُ فَذَاكَ عَلَى فَقِيدٍ  
أَغْرَّ أَبْرَّ سَمَّحِ الخَلْقِ كَانَتْ  
عَلَيْهِ مَدَّتِ التَّقْوَى وَشَاحَا  
إِذَا أُمَّ العُفَاةِ نَدَى يَدِيهِ

كَذَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا رِيَاءُ  
لَنَا مِنْ صِرْفِ خَمْرَتِهَا انْتِشَاءُ  
تُقَصِّرُ دُونَهُ الأَسَلِ الظَّمَاءُ  
فِيصْبِحُ مِثْلَمَا نُثِرَ الهَبَاءُ  
فِيشْمَلُهُ بِأَيْدِيهِ العَفَاءُ<sup>(١)</sup>  
بَأَنْ لَا يَسْتَتِبَّ لَهُمْ هِنَاءُ  
عَلَى أَوْلَادِهَا مِنْهَا اعْتِدَاءُ  
أَوَاصِرُ مَا بَهِنَ لَهَا اعْتِنَاءُ  
يَمِينًا أَنْ تُسَرَّ بِمَا نُسَاءُ  
عَلَيْهِ يَلِطِمُ الوَجْهَ العِلَاءُ  
وَكَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُرفِ رِدَاءُ  
بِهِ تَنْعَى المَكَارِمُ وَالرَّجَاءُ  
فَدَاكَ النَّاسُ لَوْ صَحَّ الفِدَاءُ  
دَوِيُّ المَوْتِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ  
وَلَكِنْ لَيْسَ يُنْفَعُهَا النُّدَاءُ  
بَعَيْنٍ لَمْ تَجِفَّ لَهَا دَمَاءُ  
تُوفِي نَدْبَهُ وَلَهُ البَقَاءُ  
كَذَا تَبْغِي الصَّدَاقَةَ وَالْوَلَاءُ  
بِنَشْرِ حَيَاتِهِ كُفْلِ الثَّنَاءُ  
تُصَرِّفُهُ السَّمَاحَةُ مَا تَشَاءُ  
وَشَدَّ بِهِ مَنَاطِقَهُ الصَّفَاءُ  
فَكَمْ يَعْرِو الحَيَا مِنْهُ الحِيَاءُ

(١) العفاء: الهلاك، التراب. وقد يراد بها الفناء (تَجَوَّزًا).

(٢) صَهْدَةٌ: قَهْرَةٌ.

حوى غُرر الخلال وكلَّ حرًّا  
فتبكيه المفاخر والمعالي  
وظلَّ ثناؤه في القوم طرًّا  
فإن يكُ فارق الدنيا مُجدًّا  
لينعم باللقا أبدًا وفيها  
فيا أنجاله الأنجاب مهلاً  
ولستُ أزيدكم حبًّا بصبرٍ  
ولا راعِ البلاء لَكُمْ قلوبًا  
ولا يُبكي على من فات دُنيا  
فيا صوب الحيا باكر ثراه  
وزرُّ جدًّا بقرب البحر تعثر  
هنالك غيَّب الأقسام شهماً  
ويا ذاك الفقيد أذهب فحاشا  
عليك سلام ربِّك ما توالى  
ومن كان الصلاح له ابتداءً

له بسنيِّ شيمته اقتداءً  
وتندبه الطلاقة والسخاء  
يَضوع ولا كما ضاع<sup>(١)</sup> الكِبَاءُ<sup>(٢)</sup>  
فأثوته<sup>(٣)</sup> مراقبها السماء  
يكون به احتفالٌ واحتفاءً  
عزاءكم وإن عزَّ العزاء  
جميل بُرد لا يسه بهاء  
ولكن في البلاء لَكُمْ بلاء  
ليخلد في النعيم له ثواء  
فمنه طالما سَحَّ العطاء  
على بحرَيْن بينهما اللقَاءُ  
وغَيَّبَتِ المروءةُ والوفاء  
مقامك أن يقوم به الرثاء  
صباحٌ منذ يومك أو مساءً  
فبالأجر الجزيل له انتهاءً



وكتبتُ مُجيباً صديقي الطيب الذكر أيوب أفندي عون:

مالذات الوشاح جاءت تبخترُ  
تقتل الصَّبَّ بالرُّنوّ فيردى  
غادة في حدودها جنّة للعين، والشَّغر للمراشفِ كَوثرُ  
تُخجلِ البدر طلعة حين تبدو  
والضواحي برُدنها تتعطرُ  
وتلافيه بالدُّنوّ فيُنشَرُ  
تفضح البرق مبسماً حين تفتَرُ

(١) ضاع: فاح عطره وانتشر شذاه.

(٢) الكِبَاءُ: عود البخور.

(٣) أثوته: جعلت له مشوى.

جَرَدَتْ مِنْ قِوَامِهَا كُلَّ رِمْحٍ  
كَلَّمَا أُسْلِمَتْ لِحَدِيثِهِ رَوْحٌ  
مَا انْتَنَتْ أَوْ رَنَتْ لَعْمَرِي إِلَّا  
دُمِيَّةٌ بَيْعَةُ النُّفُوسِ أَحَلَّتْ  
تَتَجَلَّى عَنْ جِبْهَةٍ وَضَحَاهَا  
ذَاتُ وَجْهِ إِذَا تَلَاهَا مَنِيرٌ  
وَصَلَّتْ بَعْدَ هَجْرَةٍ فَأَقَامَتْ  
أَنْتَنَّا حَتَّى إِذَا مَا اتَّلَفْنَا  
إِنَّمَا الْحَبُّ مِثْلَمَا قِيلَ قَتْلٌ  
مَا لَنَا نَعِشِقُ الْحِسَانَ وَنَدْرِي  
وَيَحُّ قَلْبِي يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادٍ  
تَسْتَبِيهِ بِكُلِّ أَلْعَسِ (٤) أَحْوَى (٥)

ومنها:

مَالِكٌ لِلْقُلُوبِ فِي دَوْلَةِ الْحَبِّ  
هُوَ كِسْرَى الْمُلُوكِ لِحِطَّا وَلَكِنْ  
لَا أزال الإله دولته الغرّ  
إِنَّ فِي ظِلِّهَا رَعَايَا مَعَانٍ  
جَالِدَ الثَّغْرِ كُلِّ قَلْبٍ إِلَى أَنْ

وَأَنْتَضَتْ مِنْ لِحَاطِهَا كُلَّ أَبْتَرٍ  
صَاحِ يَا مُسْلِمُونَ اللهُ أَكْبَرُ  
حَارِبْتَنَا بِأَبْيَضٍ بَعْدَ أَسْمَرٍ  
مَا رَأَاهَا الْحَنِيفُ (١) إِلَّا تَنْصَرَّ  
فَلِهَذَا مِنْهَا سَنَا الشَّمْسِ أَسْفَرُ  
ذَاتُ ثَغْرِ عَنْ مِثْلِهِ صَلٌّ وَأَنْحَرُ  
مِنْ هَوَانَا كَمُقْلَةٍ مِنْ مَحْجَرُ  
فَتَكَّتْ فَتْكَةَ الرَّشِيدِ بِجَعْفَرٍ (٢)  
وَارِدِ الْحَبِّ مَا لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ  
أَنَّ حُمْرَ الْخُدُودِ مَوْتٌ أَحْمَرُ  
وَهُوَ يَسْعَى وَرَاءَ الظُّبَاءِ النَّفْرُ (٣)  
أَفْلَجَ تَحْتَ كُلِّ أَدْعَجٍ (٤) أَحْوَرُ (٥)

غدا داعيًا له كل منبر  
فعله بامرئ الهوى فعل قيصر  
ا، وإن كان قد طغى وتجبّر  
نصرتها في الفتك نصرًا مؤزر  
فُتِقَتْ رِيحُ ذَا الْجِلَادِ بَعْنَبِرُ

(١) الحنيف: المتمسك بالإسلام.

(٢) هارون الرشيد وجمعه البرمكي، وكان الرشيد قد نكبه سنة ٨٠٣م.

(٣) نَفْرُ الظُّبِي: عدا هاربا.

(٤) اللّمس: سواد مستحسن في الشفة.

(٥) الحوة: سواد إلى خضرة أو حمرة إلى سواد فصاحبها أحوى.

(٦) دَعَجَتِ الْعَيْنُ: صارت شديدة السواد مع سعتها فصاحبها أدعج.

(٧) الحور: شدة بياض العين وشدة سوادها، وهي جميعًا من علامات الجمال.

ورمى الوجدُ كلَّ صدرٍ بنارٍ  
إنَّ سهمَ العيونِ ينفذُ في الصدِّ  
موطنٌ عنده يَهِي كلُّ عزمٍ  
ينفذُ الصبرَ فيه من جُعبةِ الصدِّ  
يا عجيبَ الذكاءِ يا نادرَ المثلِ الذي ظلَّ للعجائبِ مظهرُ  
أنتَ واللهِ من كنوزِ الليالي  
كيف نحكي عُلاكِ يا كاملَ العُدِّ  
يُطربُ الشعرَ منك أحسنَ ما يُطربُ صوتَ الخِلخالِ في ساقِ أعقرٍ<sup>(١)</sup>  
يا لك اللهُ من أديبِ إذا ما  
بينه في الذكا وبين سواه  
جاءني منك يا خليلي كتاب  
طالما اشتاقه فؤادي حتَّى  
ما كفى يا فريدةَ العقدِ حتَّى  
ما ترى في فتاة خِدرٍ سبَّتي  
بطرازٍ من الفصاحةِ أزرى  
أنتِ يا معدنَ اللآلي الغوالي  
جئتِ تشني على بياني وفضلي  
قد كفتني منك الشهادةِ في إثرِ  
وبعونِ الإلهِ يا صادقِ الأفِّ  
قلْ لمن رامَ سترَ فضلي بَغْضًا  
إنَّ لي كلَّ طعنةٍ في مجالِ

وغزا الحبُّ كلَّ نفسٍ بعسكرٍ  
ر ولو ألبسَ الحديدَ المُعْضَفَرُ  
ويؤلِّي قذاله<sup>(١)</sup> كلَّ مسعرٍ  
ر لعمرى حاشاكِ بل أنتَ أصبرُ  
أبرزتك الأقدارِ كلِّك جَوهَرُ  
مدَّةٍ إذ نحنُ في مجالِكِ حَسْرُ  
يُطربُ الشعرَ منك أحسنَ ما يُطربُ صوتَ الخِلخالِ في ساقِ أعقرٍ<sup>(١)</sup>  
عُدَّ يومًا فغيره ليس يُذكرُ  
فرق ما بين أميلٍ ومُكفَّرُ  
لا تَسَلْ كَم سرى كروبي وكم سرِّ؟  
ضاع منه فتيق مسكٍ أذفرُ  
أصبحَ اليومَ أكتبُ القومَ أُسْعِرُ  
بمعانٍ بها المداركُ تخدرُ  
صنع صنعاء وهو وشيُّ مُحَبَّرُ  
مثلَ ذا الدرِّ منك لا يُستكثَرُ  
ذاك تالله أنتَ أذكى وأمهرُ  
بات من قال بالخلافِ وأنكرُ  
عال قد رُدَّ شأنِي وهو أبترُ<sup>(٢)</sup>  
لم تَكُنْ شمسَ ضحوةٍ لُتسَّرُ  
عَفَّرتَ عارضَ العزيزِ الأَصْعَرُ

(١) القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

(٢) إشارة إلى قول صالح التميمي العراقي: "كما يطرب الخلخال في ساق أعقرا".  
والأعقر: الذي يعلو حمرة بياض. [المحقق]

(٣) الأبتَر: هنا، مقطوع الخير.

لي من الحزم جنة<sup>(١)</sup> ودِلاص<sup>(٢)</sup>  
وبكفي من المضاء حسام<sup>(٣)</sup>  
لا ترى من يريد بي السوء إلا  
منذري يفي النذور إذا أذ  
قيل في أسمى ليث صبور<sup>(٤)</sup> لعمري  
لست ممن يقول شيئاً فرياً  
ولكم كنت للضعيف معينا  
إن يكونوا بي استجاروا فمني  
يا صديقاً نأى على متن شها  
إن أرم ترك ذكره فهو أشهى  
ولعمري من كان بالسعي أجدي  
إن شوقي إليك جم ولكن  
أين كُتب الأصحاب تطلع ترى  
هل نسيت العهود هيئات ما كا  
يا رعى الله عيشنا سابقاً والد  
تلك أيامنا تقضت سريعاً  
كم رشفنا كأس السرور دهاقاً<sup>(٥)</sup>  
جمع الله لي بكم عن قريب

ومن العز لأمة<sup>(٦)</sup> وسنور<sup>(٧)</sup>  
وعلى هامتي من العز مغفر<sup>(٨)</sup>  
واقعا تحت ظفر ليث مظفر  
نذر يوم اللقا أطاح وأنذر<sup>(٩)</sup>  
لا يكون الصبور إلا غصنفر  
أنت في كنه حال خلك أبصر  
وكما قلت لي مجيراً المعشر  
يستظلون تحت لبدة قسور<sup>(١٠)</sup>  
ء سبوح من الجياد الضمر  
أو أرم ذكر فضله فهو أشهر  
فهو بالذكر والمدائح أجدر  
جم عتبي عليك أوفى وأغزر  
مثلما يحسى السلاف المكرر؟  
نت عهد ما بيننا العمر تحفر؟  
هر ولى بذيله يتعثر  
كخيال المنام ليلاً إذا مر  
وهصرنا غصن الصبابة أخضر  
خير شمل بجاه طه<sup>(١١)</sup> الأزهر<sup>(١٢)</sup>

(١) الجنة: السترة.

(٢) الدلاص: اللين البراق من الدرود.

(٣) اللأمة: الدرع.

(٤) السنور: جملة السلاح.

(٥) المغفر: زرد يلبسه المحارب على رأسه (تحت القلنسوة).

(٦) أنذر: أتى بنادر من قول أو فعل.

(٧) القسور: الأسد.

(٨) دَهَقَ الكأس: ملاًها. والكأس الدهاق: الطافحة.

(٩) طه: من أسماء الرسول (ﷺ).

(١٠) الأزهر: المشرق المنير.

واقترح عليّ الرثاء الآتي لأحد الأعيان الفقهاء:

وسألت أيّ رجالها صدع البِلا؟  
وتناوحت بالندب نوحاً تُكّلا  
غال الرّدى حتّى أميلَ وزلزلا  
قد كان صدر ذوي المائر محفلا  
شرعاً وكان القصد فيه منهلأ  
في كفّ مُحترطٍ وأفتك مقتلا  
أمسى يفلُّ من الحديد الجحفلا  
تزري مطاعنها الرّماح الذبّلا  
شرفاً وبرزّ مجده فتأثّلا  
في الفقه لا يرتدُّ إلاّ فيصلا  
إلاّ وقد بلغ السّماك الأعزّلا  
وسيوف مدرّجه رواتع في الطّلا<sup>(١)</sup>  
لو لم يكن بين الخلائق منزلا  
لبنان تنسفُ سوحه<sup>(٢)</sup> أيدي البِلا  
فجنّاه أهلُ زمانه مستقبلا  
قد كان منها بالفلاح موكّلا  
حفلت مغاني العلم وامتلاّ الملا  
وثباته بنت الحصافة معقبلا  
قد كان أدلق من سنان مقولا  
أفواجه ترك الحصيم مجدّلا  
يَمتاح<sup>(٣)</sup> منه ولا يردُّ مؤمّلا

أعلمت من فُجعت به تلك العلى  
حتّى اكتست ثوب السّواد لفقده  
وعرفت من لبنان أيّ شيوخه  
من كان أسبق قومه فضلاً ومن  
من كان نبّل القصد في أعماله  
من كان أمضى همّة من صارم  
من كان في عزّماته في جحفل  
من كان في حزم النّهي في حزمة  
سبق الرجال إلى المائر فاعتلى  
وقضى زماناً بالسّداد ورأيه  
وقضى حقوق المجد إذ لم يعتزل  
حتّى قضى والموت فينا سنّة  
جار القضاء على القضاء بموته  
فهو الذي أحى رسوم الشّرع في  
وهو الذي في ما مضى غرس المنى  
عمّت فواضله البلاد كأنّما  
رنّ الزمان بذكره، وبفضله  
هو راجح العقل الذي من عقله  
ربّ البيان البيّن اللّسن الذي  
رحب الذّراع إذا الجدال تدافعت  
ما كان يقصّر في السماح تفضّلاً

(١) رواتع في الطّلا: ثابتات في الأعناق.

(٢) السّوح: الدار والساحة.

(٣) متح: استقى.

يا قاضيًا بات القضا من بعده  
 من عاش دهرًا لا يشقُّ غباره  
 ولّيت عن دار الفناء إلى البقا  
 والناس ركبٌ سائرون بمهيع<sup>(١)</sup>  
 يسعون للأخرى وتلك حقيقة  
 والمرء رهن كوارث ما تنقضي  
 والنفس تملأ جسمه فإذا مضت  
 لا تخذع الدنيا اللبيبَ فكلنا  
 فاذهب عليك من الإله تحية  
 تُحدى السحابُ في السما حتى إذا

يبكي وجيدُ المكرمات مُعطلًا  
 فضلًا وكان بناره لا يُصطلّي  
 فولّيت في الدارين وصاح الولا  
 للموت يتبع الأخيرُ الأولا  
 مذ كوّنت هذي مجازًا مُرسلا  
 تُلقني عليه كلّ يومٍ كلكلا<sup>(٢)</sup>  
 وجدت مضيقَ لهاته متسهلا  
 بثنا على حكم المنيّة نُزلا  
 تجني بها ثمر النعيم مُعللا  
 بلغت ترى مَثواك سَحَت هُطلا



وقلت أرثي العلامة الشيخ الإمام محيي الدين اليافي الشهير، تغمّده الله برضوانه:  
 أحقًا علينا الدهر دارت دوائره  
 فشدّ على الإسلام ذا اليوم ريبه  
 إلا أنه الدهر المصرحُ بأسمه  
 بوائره فينا مُجرّدة وما  
 لها كلّ يومٍ في البرية فتكة  
 فكّم ملك ضخم تحطّفه الردى  
 تحرّم كسرى كاسرًا حدّ بطشه  
 وما زال يُفني كلّ عزّ يؤمّه  
 هو الموت من ذا دافع مُبرّم القضا  
 أم أنه للدين صارت مصائرُه؟  
 بخطب وكانت لا تُعدّ كبائرُه  
 بأن لا فتى إلا غدا وهو داهرُه  
 بوائره والله إلا بوائره  
 تناديك لا منجاة ممّا تحاذره  
 قساوره من حوله وأساوره؟  
 وقبصر أردى ما وقته مقاصره  
 ببأسٍ ويُلقني كلّ قرنٍ يساورُه  
 إذا الواحد القهار وأفت أوامره

(١) المهيع: الطريق.

(٢) الكلكل: صدر البعير، كلمة يعنون بها الثقل العظيم.

فسبحان مَنْ تغو الوجوه لوجهه  
دعا اليوم مُحِي الدين نحو جنبه  
سرى نَعِيه في كلِّ حيِّ ففى الورى  
وباتت شؤون الدين تجري شؤونها<sup>(١)</sup>  
وكلَّ امرئٍ يبكي عليه دَمًا فما  
لعمرك ما للشرق ذا اليوم اقتَمَت  
وللدين وَجْدٌ ليس تُطفأ ناره  
أصاب بني الإسلام خطبٌ عَرَمَرَمٌ  
لقد كان فيه الشيخ ركنًا مُسَيِّدًا  
فطبَّق آفاق البرية ذكره  
إمامٌ بأفواه الجميع علومه  
مبارك خلق طيبُ الذكر عابدٌ  
بقيةً ذاك السالف الصالح الذي  
قد ارتفعت أسراره وتطهَّرت  
وأصبحَ في أيامه علمَ الهدى  
تداعت بيوت العلم يومَ وفاته  
وراحَ عليه الفقه يلطم وجهه  
ولم أدرِ أن الصبر تفتى دروعه  
فقد فرغت من كلِّ باكٍ دموعه  
تَرَحَّلَ عن دار الفناء إلى التي

ولا حيَّ إلا وهو بالموت قاهره  
يُقَرِّبه من قُدسه ويُجاوره  
تعاذيه لكن في الجنان بشائره  
على فقده والفقه تَدَمَى محاجرُه  
عواذله في الحزن إلا عواذره  
مشاركه واليوم أظلم ناظرُه  
وللشرع طَرْفٌ ليس يقلع ماطرُه  
بذا اليوم فالإسلام تبكي منابره  
وكانت طلاع الخافقين مآثره  
وسار به بادي الزمان وحاضرُه  
وبحرًا بأعناق الجميع جواهرُه  
مهذبٌ طبعٍ مُشرقٍ الوجه سافرُه  
بأمثاله الأقطابِ جَلَّت ذخائرُه  
له سِيرٌ عُرٌّ حَكَّتْهَا سرائره  
تَعَمُّ البرايا بالضياءِ منابره<sup>(٢)</sup>  
وَحَرَّ عِمَادُ الفِضْلِ وَأَنهَدَ عامرُه  
إذ أنتكثت<sup>(٣)</sup> ممَّا دَهاهُ مرائرُه<sup>(٤)</sup>  
إلى أن قَصَى والعزمُ تُفْرِى مغافرُه<sup>(٥)</sup>  
كما نَزَفَتْ مِنْ كُلِّ رَاثٍ محابره  
بها عَيْشُهُ فِي الخُلْدِ تجري كواثرُه

(١) شؤون، الأولى: أمور؛ والثانية: دموع.

(٢) منابره ومنابره واحد، فإلياء تقوم مقام الهمزة. تقول: أئمة وأئمة، وما إليها.

(٣) انتكثت: انتقض.

(٤) المرائر، مفردا المريرة: العزيمة.

(٥) المغفر: درع الرأس، زردٌ يلبسه المحارب على رأسه.



وغيضَ بحرٌ زاعِبٌ<sup>(١)</sup> الفيضِ زاخِرُهُ  
 وغيَّبَ بدرٌ ثاقِبُ النُّورِ باهِرُهُ  
 فذلكَ لحدِّ ساطعِ العُرفِ عاطرُهُ  
 يُراوِحُه في رَجْعِه ويُبَاكِرُهُ  
 وجسرٌ جميعُ الخَلقِ لا بُدَّ عابِرُهُ  
 ومَنَ بدوهُ الميلادِ فالموتُ آخِرُهُ

فقد ذكَّ طَوْدٌ باذخُ المجدِ شامخُ  
 وأغمَدَ سيفٌ صارمُ الحدِّ باتِرُ  
 سلامٌ على قَبْرِ تَضَمَّنَ تُرْبَهُ  
 سقت تِربَهُ الوُطْفَا<sup>(٢)</sup> ولا برحَ الحيا  
 وما الموتُ إلا مسلكٌ عمَّ نَهجُهُ  
 وما المرءُ إلا مَيِّتٌ وابنُ مَيِّتِ



### وكتب إلى أحد الأدياء

حربٌ، بها بطلُ الهوى كجَبَانِه  
 وعجاجُها بالجَزَعِ فوقِ رِعالِه<sup>(٣)</sup>

ما بينَ غزلانِ العقيقِ وبانِه  
 فحربٌ تَضَرَّمَ بالحَضِيضِ سَعِيرُها

### ومنها:

فدِمَاؤُهُم تُرْبِي على عُدرانِه  
 فأبَادَهُم حَتْفًا لِقَا غزلانِه  
 بعِراضِها الفيحاءِ في رُكبانِه  
 واسفَحَ عقيقَ الدمعِ مع عيقانِه  
 فإذا رضيتَ، فبَعَدَ ذلكَ عانِه  
 أبداً على حُبِّ الحِمَى وحِسانِه  
 أسمى ملوكِ الأرضِ من عبدانِه  
 بالألمعيَّةِ مالِكًا لِعنانِه  
 يروي حديثَ النَّظْمِ عن حَسانِه

عَبَثتِ بَعْشاقِ العقيقِ وأوغَلتِ  
 لم يَرهبوا بأَسًا لِقَاءَ أُسودِه  
 يا زائراً تلكَ الربوعِ وسائراً  
 إنْ تَنزَلْنَ سَفَحَ العقيقِ فأشرفنِ  
 وتأمَلْنَ صنعَ الهوى بفريقه  
 سبحانَ مَنْ خَلَقَ الفؤادَ وطامه  
 وأعزَّ سلطانَ الهوى حتَّى غَدتِ  
 رقًا كما رَقَّ القريضُ لمن غَدَا  
 الشاعرِ المتفنِّنُ النَّدْبُ الذي

(١) زعب السيل: تدافع (في الوادي وملاؤه).

(٢) الوطفاء، من السحاب: المسترخية لكثرة ماؤها.

(٣) الرِّعال: الأنوف من الجبال.

ومنها:

يُمسي بْبُقْعَتِنَا بديعَ زمانه<sup>(١)</sup>  
زمنًا فحلَّ الصدرَ من إيوانه  
من عَصْرِ مَنْ سَلَفُوا سُلَافَةَ حانه<sup>(٢)</sup>  
نظمًا يُسَلِّي المرءَ عن أشجانه  
تزري بصوب المَزْنِ<sup>(٣)</sup> في تهتانه<sup>(٤)</sup>  
مهلاً فليس سَماعه كعيانه  
وانزلِ بذالك السَّفحِ من لبنانه  
تجني ثمارَ الخيرِ من أفنانه  
وانظرْ مآثِرَ مَنْ عَجِبَتْ لِشانه

هذا أبو الفضل الذي لا بُدَّ أن  
وافى وما انصاحَ النهارُ بليله  
يلهو بأنواعِ الفنونِ ويحتسي  
وله الرقائقُ في الكلامِ يُجيدُها  
قد أبرزته قريحة سيّالة  
يا سامعًا عنه البدائعُ مُعجبا  
إن سرتَ في الوطنِ العزيزِ فاشملنْ  
في معلّمِ كالروضِ في حسناته  
فانزلِ على سِعةِ برحْبِ فنائه



وقلت أرثي الطيبَ الذّكرَ العزيزِ سليم أفندي البستاني، صاحب جريدة الجنّة  
ومجلة الجنان، وكانت وفاته سنة ١٨٨٥، وكنت ابن ١٥ سنة

أبدًا وأكثر فتكه بجياده  
بمضاء صارمه وطول نجاهه

الدهر أفتكُ فارسٍ بطِراده  
يخني فإن قصد الفتى لم ينتفع

ومنها:

قسرًا فماذا النفع من إيجاده؟  
شيئًا سوى ذا الموت عن أجداده

يسطو على المرء المُنَى بعد العنا  
يرثُ الفناء وقد يرى من لم يرثُ

(١) بديع الزمان الهمزاني، (٦٩٨ - ١٠٠٧). من أئمة الكتاب، رائد فنّ "المقامة".

(٢) دأب الأمير شكيب أرسلان على استعمال الصور البيانية بوجه يتبين فيه القارئ مقدرة ظاهرة في التصرف الكتابي، فاستعمل "عصر" بمعنى "عهد"؛ ولكن السلاف، وهو الخمر، لا يتهيأ للخمار إلا بـ"العصر"، كما أنه يُكثّر من التجنيس: "سلفوا وسلاف"، ما يُعطي بيانه جمالاً في الأسلوب وعمقاً في المعنى.

(٣) المَزْن: السحاب، أو ذو المطر منه.

(٤) هَتَنَ، هَتَّتَ "السماء": تابع مطرها وانصب.

لا يشفعنُ بالمرءِ غَضُّ شِبابِهِ  
 البَيْنَ يَخْتَرِمُ الجَمِيعَ وَلِيَتِمَّا  
 بَيْنَ كَفَى الدُّنْيَا نُعَابَ غُرَابِهِ  
 يُرْدِي الحَبِيبَ وَخَلَّهُ مَتَقَلِّبُ  
 مَتَعَرِّضًا بِالنَّائِبَاتِ العُجْرَ فِي  
 يَا أَيُّهَا البَيْنَ المَفْرَقُ بَيْنَنَا  
 الدَّهْرُ أَنْزَقَ شِيمَةَ مَنْ أَنْ يُرَى  
 مَا زَالَ يُفَجِّعُنَا بِهِمْ حَتَّى غَدَا  
 فَلِبِئْسَ عَيْشٌ بَاتَ مُخْتَرَمًا بِهِ  
 وَلِبِئْسَ أَفْضَالٌ وَمَجْدٌ بَعْدَهُ  
 مَنْ هَزَّ هَذَا القُطْرَ فَاجِعُ فَقَدَهُ  
 وَسَطًا عَلَى الصَّبْرِ التَّفَجُّعُ بِالغَا  
 وَتَوَقَّيْتُ آمَالَنَا مِنْ بَعْدِهِ  
 الأُرُوعُ السَّهْمُ الَّذِي بَعْلُومُهُ  
 الطَّائِرُ الصَّيْتُ الرَّفِيعُ مَقَامُهُ  
 مَنْ كَانَ بَابًا لِلرَّجَاءِ مُبَلِّغًا  
 وَقَفَ الحَيَاةَ لِخِدْمَةِ العِلْمِ الَّذِي  
 فَقَضَى بُعِيدَ أَبِيهِ<sup>(١)</sup> فِي أَجْلِ أَبِي  
 أَسْفًا عَلَيْهِ وَكَانَ رُكْنًا لِلْعُلَى  
 أَيَّامَ بَاهِرٍ مَجْدُهُ يَذُرُّ السُّهَى  
 أَيَّامٌ لَا تَلْقَاهُ إِلَّا جَاهِدًا

عند الحِمَامِ وَلَا ذِكَاؤُ فؤَادِهِ  
 قَدْ كَانَ كُلَّ البَيْنِ بَيْنَ سُعَادِهِ<sup>(١)</sup>  
 وَبِهِ كَفَى مَتَشَائِمًا بِسُودِهِ  
 فِي مَضْجَعِ أَهْنَاهُ سُوكِ قِتَادِهِ<sup>(٢)</sup>  
 إِصْدَارُهُ أَبَدًا وَفِي إِيرَادِهِ  
 إِذْ فِيهِ مَعْنَى الدَّهْرِ فِي اسْتِبْدَادِهِ  
 بِالحِزْمِ ذَا بَقِيٍّ عَلَى أَفْرَادِهِ  
 شَرَفَ الفَتَى بَيْنَ الوَرَى بِمَعَادِهِ  
 مِثْلَ السَّلِيمِ رَزِيئَةَ لِبْلَادِهِ  
 وَلَبِئْسَتْ الأَيَّامُ بَعْدَ بُعَادِهِ  
 حَتَّى تَفْطُرَ فِيهِ قَلْبَ جَمَادِهِ  
 سَيْلَ الأَسَى الطَّامِي ذَرَى أَطْوَادِهِ  
 مَا الدَّهْرُ يُحْيِيهَا إِلَى آبَادِهِ  
 وَجَدَائِهِ<sup>(٣)</sup> كَالْبَحْرِ فِي إِزْبَادِهِ  
 وَالبَاهِرُ الحَسَنَاتِ فِي إِسْعَادِهِ  
 فِي الخُطْبِ مَنْ يَرْجُوهُ شُلُو مُرَادِهِ  
 قَدْ كَانَ حَقًّا بِاسْطًا لِمَهَادِهِ  
 إِلَّا اتَّصَالَ حِدَادِهِ بِحِدَادِهِ  
 وَقَوَامِهَا بِطَرِيفِهِ وَتِبْلَادِهِ  
 وَكَوَاكِبَ الأَفْلَاكِ مِنْ حُسَادِهِ  
 وَمُجَاهِدًا فِي العِلْمِ حَقَّ جِهَادِهِ

(١) إشارة إلى المطلع الشهير "بانت سعاد".

(٢) القتاد: شجرٌ صلبٌ له شوكٌ كالإبر.

(٣) الجداء: العطاء.

(٤) أبوه العلامة بطرس البستاني، صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف.

أيام إن صعد المنابرَ خاطبًا  
يا راحلاً عنّا رويدك إنّما  
مهلاً لتبصر حال من غادرتهم  
من كلّ من تخذ الشهادَ سميره  
من كلّ من نظم المراثي جاعلاً  
غادرت ذكرك في الوري لا نافداً  
فاذهب إلى مولاك يا من قد قضى

تهتزّ من عجبِ ذرى أعوادهِ  
من سار لم يندم على أروادهِ<sup>(١)</sup>  
وترى قضاء الله بينَ عبادهِ  
وأقام نواحاً على تعدادهِ  
من ذوب عينيه سوادَ مدادهِ  
بل تنتهي الأيام قبل نفاذهِ  
والشكر للرحمن أكثر زادهِ



### وقلت مُجاوباً أحد الأدباء

أخفُّ ما نال مني الطَّرفُ ما أرقا  
ونزَّر ما كادني ذا الدهر جور نوى  
طمعت بالوصلِ مشتاقاً فمأطنتني  
ما إن دنت من فؤادي مُنيةً قصدت  
كأنما حلّف الدهر الحثّون بأن  
ورابني صرفه فيما يُعنّنتني  
لله أيّ نسيم ليس يُذكرني  
يميل قلبي وقد لجّ نوازعهُ  
يا غائباً مخلصاً لي في مودّته  
فدَرُّ دَرِّكَ من خِلِّ سما خُلِّقا  
تفدي القلائدُ آثاراً له سبقت  
لا غرّو إن أرها من قبل صاحبها

وخير ما سرّ مني القلب ما خفقا  
أصابني بسهم تخرق الدرقا<sup>(٢)</sup>  
وجدّ ركبُ التناهي بي فما رفقا  
إلا وسدّ لها من دوني الطُّرقا  
يحول بين فؤادي والذي علّقا  
أن كيف خلّف لي من بعده رمقا  
وأبيّ ساجعةٍ لم تجذني قلّقا  
ما ميّلت نسّات الفجر غصن نقا  
ولست أعرف منه غير ما نطقا  
لأنت أفضل من في وده صدقا  
إليّ والفضل لا يخفى لمن سبقا  
إني أرى الصبح لكن قبله السّفقا

(١) أروود (في السير): تمهّل.

(٢) الدرق: نوع من الدروع.

لله من صاحبِ صُغْرِي محامدهِ  
 مهذبٌ إن بدا منه الشاء ففي  
 أهدي إليّ قريضًا من طرائفه  
 كالبدر مُتَسِقًا والدُرُّ مُتَسِقًا  
 شعر لكلِّ اختراع جاء مُفْتَحًا  
 سحر لقد لعبت بالقوم ففنته  
 جزيك من شاعر إن تستجده إلى  
 إذا انبرى في مضامير البيان غدت  
 يرقُّ<sup>(١)</sup> في النظم حتى يسترقي به  
 لبيك يا خاطبًا مني الوداد ترى  
 قد طالما سمعت أذني وما نظرت  
 فإن عرفت فإني ناظر ثمرًا  
 يا قاتلَ الله حظي والفراق هُما  
 فهل أرجي من الدنيا الصّلاح ولم  
 لكن على المرء عرك الدهر طاقته  
 حبّ السلامة يشني عزمَ صاحبه

مودّةٌ محصّنت لا تعرف الملقا  
 شريف أخلاقه روضُ الثنا عبقا  
 يومًا فقلد مني الصدر والعنقا  
 والصبح مُنْبَثِقًا والغيث مُنْدَفِقًا  
 من بعد ما كان هذا الباب مُغْلِقًا  
 بلا طلاسَم تخفي سرّه ورُقَى  
 نظمٍ مضى فيه مثل السهم إذ مرّقا  
 جياده في المعاني تركضُ الرَّهَقَى<sup>(١)</sup>  
 ويُسترقُّ<sup>(٢)</sup> إذا ما جاء مُسترقًا<sup>(٤)</sup>  
 مني فتى ما درى نكثًا وما مدّقا<sup>(٥)</sup>  
 بواصري فليفاخر مسمعي الحدقا  
 لكنني لم أصب عودًا ولا ورقًا  
 على مُناصبتي دهرًا قد اتفقا  
 تزل وفيها غراب البين قد نعقا  
 ولو تحمّل ذو الهَمّات كلَّ سقا  
 فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا<sup>(٦)</sup>

(١) الرهقى: نوع من عدو الخيل السريع، يرهق الذي يطلبه.

(٢) رَقَّ: ضدّ حَشِنَ.

(٣) استرق: استعبد (من الرُق).

(٤) المُسترق: الضعيف الناقص.

(٥) مدّق الودّ: لم يُخلص فيه.

(٦) هذا بيت مضمّن مأخوذ من شطريّ بيتين للطغرائي:

عن المعالي ويغري المرء بالكسل  
 في الأرض أو سلّمًا في الجوّ فاعتزل.

حبّ السلامة يشني عزمَ صاحبه  
 فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا

وقلت وأنا في المدرسة وهي من أوائل نظمي في العلامة الطيب الذُّكْر  
المطران يوسف الدبس، مؤسس مدرسة الحكمة التي درست بها

وعطر سَرَى أُمُّ ثَنَى عَاطِرُ؟  
تزاهاى بها وجهه السافرُ  
أريج العطايا به ذافرُ  
هموم الورى بِشْرُه الظاهرُ  
يعننته أمسه الدابِرُ  
ولا الدهر في خلقه جائِرُ  
تغافل عن أنه داهرُ؟  
جميعاً وَقَرَّ بها الناظرُ  
لدى كسرة مالها جابرُ  
وسعد السُعود له ناصرُ  
وليس سوى بهجة باتِرُ  
وليس سوى منة ضامرُ  
توعَدنا الزمنُ الفاجرُ؟  
بلاه وَيَسْطو له غابرُ  
جناه وَيَعنو له حاضرُ  
لئن ناصبَ الحادثُ القاهرُ  
إذا الذُّمْرُ<sup>(١)</sup> من حادثِ حاذِرُ  
فخرنا فما في الورى فاخرُ  
حباه بنا السيّدُ الطاهرُ

أبذرُ بدا أُمُّ سنا باهرُ  
أُمُّ انبلجت غرّة العيد حتى  
وفتق فيه نوافج<sup>(٢)</sup> مدح  
فانعم به عيد يُمن جلا  
وأنساهم اليومُ نعماهُ ما  
فلا الخلق في دهرهم ضاجرون  
فهل غفل الدهر في العيد أُمُّ  
مأثرُ طابت بهنّ النفوس  
تبدد جيش الهموم بها  
أغار عليه سرور الورى  
وليس سوى هزة عاملُ  
وليس سوى نعمة سابحُ  
فأين النكّال الأكل الذي  
إذا كان يأتي على سالفِ  
فقد صار يأتي عليه الذي  
ألا والمعالي ويبيضُ العوالي  
فلسنا ولسنا بمن يحذرون  
وإننا وإننا لقسومُ إذا  
نُباهي الملا كلَّ يوم بما

(١) النوافج، مفردها النفيجة: وعاء المسك.

(٢) الذُّمْر: الشجاع.

معارفُ عِضٍ<sup>(١)</sup> لها آثرُ  
فواضلُ حُرٍّ لها شاكرُ  
نداه الذي ما له آخِرُ  
مدائحُه المَثَلُ السائرُ  
وليس بنعمائه كافرُ  
طويلُ اللُّهى طوله وافرُ  
على أن كلَّ ثنا قاصِرُ  
فما ظلَّ أن خانني الخاطرُ  
على أنني المِدرَه<sup>(٢)</sup> الشاعرُ  
يُنارُ بك الوطنُ العامِرُ  
يغار لك الفرقدُ الزاهرُ

عوارفُ بحرٍ لها نائل  
فضائلُ برٍّ لها مادح  
تظلّ البرايا تُنوّل من  
منائحِه غبطة المُعتفي  
فليس لأفضاله جاحدُ  
مديدُ النُّهى قوله كامل  
حقيقٌ بتمديح كلِّ الورى  
فكمُ بتُ أنضي له خاطري  
وما زلت عن وصفه عاجزاً  
ألا دمت بالخير مُستَمسِكاً  
سعيدُ الجدود جديدُ السعود



### وقلت فيه وأنا في المدرسة

على جبل تَضَلُّ به الشَّعَابُ  
فهل جادت بطلعتها الرِّبابُ<sup>(٣)</sup>  
ويسطع في جوانبها المِلابُ<sup>(٤)</sup>  
يُضَوِّعُ كلِّما مرَّت كِعبُ<sup>(٥)</sup>  
ويحرسها من البيضِ القُبَابُ<sup>(٦)</sup>

لَمَن ياميُّ هاتيكِ القِبابُ  
أشيمُ خلالها ياميُّ برقاً  
قِبابٌ تسطعُ الأنوار فيها  
قد استنكَّهتُها فنشيتُ عَرَفاً<sup>(٥)</sup>  
تقومُ علّاً على سمرِ العوالي

(١) العِضُّ: الشديد القوي إذا ما قام على الشيء.

(٢) المِدرَه، (لغة): السِّيدُ وزعيم القوم المتكلِّم عنهم.

(٣) الرِّباب، مفردُها رِبابة: السحاب الأبيض.

(٤) المِلاب: العطر ما دام مانعاً (سائلاً).

(٥) العَرَفُ: الطَّيْبُ والعبير.

(٦) الكِعب، جمعُ كمفرد: الجارية نَهَدَ صدرها.

(٧) القِباب، بضمّ القاف: القاطع من السيوف.

وترمي للمُطَلِّ على حِمَاها  
غَدَّت لظِبَائِهَا وَطَبِي ذَوِيهَا  
لِعَمْرِي نِعْمَ حَيِّ أَيْبِكَ حَيًّا  
وَأَبْنَاءَ لِأُمَّكَ مِنْ نِزَارِ  
كُمَاةٍ تَسْبِقُ الْأَرْوَاحَ سُدًّا  
لَهُمْ غُرْرَ مَوَاطِنِ صَادِقَاتِ  
يَخْوِضُ فَتَاهُمْ الْغَمْرَاتِ حَرْبًا  
وَيَرْجِعُ بِالْغَنِيمَةِ بَعْدَ صَدَقِ  
يَطُولُ وَلَيْسَ يُجْهَضُهُ خَطَارٌ  
يَذُوقُ عَذَابَ بَدْءِ الْأَمْرِ لَكِنْ  
تَقَابَلَتِ الْأُمُورُ فَكُلَّ مَرًّا  
وَلَوْلَا الْمَرُّ لَمْ تَشْعُرْ بِعَذَابِ  
وَكَلَّ صَعُوبَةٍ فَلَهَا سَهُولِ  
أَمَّا لَوْ لَمْ يَكُنْ طَرْفًا تَقِيضُ  
وَأَفْضَلُ ذِي شُرُوعٍ مَنْ تَرَاهُ  
وَمَنْ طَلَبَ الصَّوَابَ وَلَمْ يُقَابَلِ  
وَمَنْ عَدِمَ الصَّوَابَ وَقَدْ نَحَاهُ  
وَمَنْ خَاضَ الْعُبَابَ بِقَصْدِ رَيْحِ  
وَمَنْ حَسِبَ الْحَيَاةَ مَدَى طَوِيلًا  
إِذَا وَلَّى شَبَابَ الْمَرْءِ يَوْمًا  
أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا

سِهَامًا فَوْقَ مَا حَوَتْ الْجِعَابُ  
قُلُوبُ الْقَوْمِ تَخْضَعُ وَالرَّقَابُ  
كَمَا وَصِفْتَ بِمِنْعَتِهَا الْعُقَابُ  
كَأَسَدِ الْبَرِّ أَحْذَرُهُنَّ غَابُ  
سَوَابِحَ تَحْتِهَا الْخَيْلُ الْعِرَابُ  
وِغَارَاتِ تَمِيدُ بِهَا الرَّحَابُ  
وَنِيرَانِ الْقِتَالِ لَهَا التِّهَابُ  
وَلَيْسَ غَنِيمَةَ الْبَطْلِ الْأَيَابُ  
فَيْنَكَ أَوْ يُغَيِّبُهُ الْغِيَابُ  
عَوَاقِبُهُ لِمُورِدِهِ عِذَابُ  
يَعَاقِبُهُ اللَّذِيذُ الْمُسْتَطَابُ  
(١) وَلَوْلَا الْعَذَابُ لَمْ يَشْعُرْكَ صَابُ  
(٢) وَكَلَّ سَهُولَةٍ فَلَهَا عِقَابُ  
لَمَّا قِيلَ الْخَطَابُ لَهُ جَوَابُ  
يُقَارَنُ غَيْبَ مَبْدَأِ الصَّوَابُ  
وَجَوْهَ الْأَمْرِ أَعْجَزَهُ الطَّلَابُ  
بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُّ فَلَا يُعَابُ  
فَإِنَّ الدَّرَّ مَا ضَمَّ الْعُبَابُ  
يَكْذِبُ ظَنَّهُ الْأَجَلَ الْقُرَابُ  
فَلَيْسَ يُعِيدُ صَبَوْتَهُ الْخَضَابُ  
تَقُولُ وَإِنَّمَا ذَهَبَ الشَّبَابُ

(١) الصَّابُ، مفردُها صَابَةٌ: شَجَرٌ مَرٌّ.

(٢) عِقَابُ: عَقَبَاتُ.

(٣) الْقُرَابُ: خِلَافُ الْبُعْدِ؛ يَرِيدُ الْقَرِيبَ.



فلا يَشْغَلُ فؤادَكَ في شبابٍ  
ولا يُقْعِدُكَ عن عملِ فراغٍ  
فإنَّ السيفَ طَبَعَ الهنْدَ يَصْدا  
وإنَّ المرءَ إنْ يلزَمَ سكوننا  
سيعلمُ كلُّ مَنْ عَرَفَ المعالي  
ومَنْ في طوقه أمرٌ فَعِيبٌ  
ومَنْ أضْحَى لِأمرٍ غيرِ كَفْرٍ  
ألم ترَ ما أصابَ السحبَ لَمَّا  
ولم ترَ ما أصابَ الشهبَ لَمَّا  
فلا عجبُ إذا ما نالَ فوقًا  
به راجتُ من العلياءِ سُوقٌ  
وقد زهرتُ زنادَ العلمِ لَمَّا  
وقد نلنا رَغائبنا وكانت  
غداً من عُصبةِ الأفرادِ فضلاً  
يظلُّ إذا انتحى العلياءَ يوماً  
لقد جابتُ مدائحُه البوادي  
فليس لبدرٍ شُهرتهِ مَغِيبٌ  
كأنَّ خلاله إن رَمَتْ مدحاً  
أروم به الوفاءَ فمن قصوري  
تَكِلُّ مناطقَ البلغاءِ فيه

عن العملِ السَّماعِ أو الشَّرابِ  
ولو لم يعقبِ العملِ اكتسابُ  
إذا ما طال يُحْبِأهُ القِرَابُ  
تولَّى هَيْكَلَ الجسدِ الخرابُ  
بأنَّ الشغلَ للعليا نِصابُ  
لدى إجرائه فيه ارتيابُ  
فأليقُ ما يَلِيقُ به اجتنابُ  
تبارى كَفُّ يوسُفَ والسحابِ؟  
ترأى وجهُ يوسُفَ<sup>(١)</sup> والشبابِ؟  
ففضلَ اللهُ ذلكَ ولا حِسابُ  
وعزَّ به من الحسنى جَنابُ  
به عن شِبْهَةِ رُفَعِ الحِجابِ  
أمانياً كما لَمَعَ السرابُ  
بما يغدو من السيفِ الذُّبابُ<sup>(٢)</sup>  
هو السَّباقُ ليس له صِحابُ  
على نَكْظٍ<sup>(٣)</sup> وغناها الرُّكابُ  
وليس لشمسٍ بهجتهِ صَبابُ  
لأنواعِ الشنا منها انتِهابُ  
يقوم بكلِّ بيتٍ لي عِتَابُ  
ولو كانت مناطقنا الحرابُ

(١) إشارة إلى حُسنِ يوسُفِ ابنِ يعقوبَ، وهو من الأنبياءِ، صُربَ المَثَلِ بجمالِ وجهه.

(٢) ذُّبابُ (السيفِ): حدَّة.

(٣) النكظ: العَجَلَّة.

ومنها:

على هام السَّمَاك لها كِعَابُ  
يُبَلِّغُهُمْ لِسَاحَتِكَ اجْتِيَابُ  
إِلَيْكَ فَمَا يَعْنِفُهُ اغْتِرَابُ  
ولكن ما لبهجتَه ذَهَابُ  
وعَيْشِكَ لِلسُّعُودِ له اجْتِدَابُ  
وبدراً ليس يُدْرِكُهُ غِيَابُ

لقد شَيَّدت مدرسةً تعالت  
نظمتَ بها من الأَصْقَاعِ وُلْدًا  
ومَن يترك لَعْمَرَكَ وَالِدِيهِ  
لِيُهْنِكَ بِالسَّلَامِ مَرُورِ عِيدِ  
ولا زالت بك الأعياد تزهو  
فدُمُ للغوثِ غَيْثًا مستمرًّا



وقلت وداعًا لمدرسة الحكمة في ختام سنة ١٨٨٦، وكنت ابن ١٦ سنة

أَسِيرُ غَدًا عنها وقلبي أَسِيرُهَا  
ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَغْلُو مُهَوْرُهَا  
وعندي يد لم توفِ عَنِّي نُدُورُهَا  
صنائع في رأبي تُزَادُ أُجُورُهَا  
على حَقِّه يُمَسِي خَطِيرًا نَزِيرُهَا  
لَعْمَرِي قَلِيلُ المَكْرَمَاتِ كَثِيرُهَا  
فلا أَحْمَدُ الأَثَارِ عَنِّي أَثِيرُهَا  
إِذَا لَمْ يُحْمَلْ نَفْسَهُ مَا يَضِيرُهَا  
إِذَا لَفَحَتْهُ فِي اللِّيَالِي حُرُورُهَا  
يُطِيرُ فُؤَادَ الفَحْلِ إِذْ يَسْتَطِيرُهَا  
تَظَلُّ عَلَيْهِ مَسْتَمِرًّا مَرِيرُهَا  
له مِثْلُ حَدِّ السِّيفِ وَهُوَ شَهِيرُهَا

مفارقةٌ والله عزَّ نظيرها  
تخلَّيت عن قلبي لها غير مُكْرَهٍ  
فليست ترى للعَلِقِ<sup>(١)</sup> عندي علاقة  
وإن كان نَقْلًا ما سمحت، فإنَّها  
فإنِّي رأيت الفضل فضل زيادة  
وإنَّ المزايا من قليلٍ وربَّما  
فإن كنتُ لم أُؤثِرْ على النفسِ مجدها  
وما الفرق ما بينَ الكَرِيمِ وضدِّه  
وما الحُرُّ مَنْ يُلَوِي لَضْرُئِ مَسِّه  
ولكنَّ مَنْ يَقْوَى وللرَّوْعِ نَصْلَةٌ  
ولكنَّ مَنْ يَطْوِي على المُرِّ مرَّةً  
ولكنَّ مَنْ يَغْدُو وتغدو عزيمة

(١) العَلِقُ: النِّيس من كلِّ شيءٍ لَتَعَلَّقُ القلبَ به.

ولكنَّ مَنْ يَفْرِي السُّتُورَ إِذَا عَدَتْ  
ولكنَّ مَنْ يَغْشَى صُدُورَ مَجَالِسٍ  
ولكن فَتَى عِنْدَ الرِّزَايَا صَبُورُهَا  
أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَنَّ شَكِيمَةً  
وَإِنِّي حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ (١) وَقَدْ  
إِذَا لَمْ يَكُنْ مَاءُ الشَّهَامَةِ مَنَهْلِي  
فَلَا وَافَقْتُ لِلْمَكْرَمَاتِ عَقِيلَةً  
يُفَجِّرُ فِيهَا لِلْقَرِيحَةِ أَنْهَرًا  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ مَتَخَرِّجٌ  
مُمْتَنِعَةٌ لِلْفَضْلِ فِيهَا مَعَاقِلٌ  
مُؤَسَّسَةٌ أَرْكَانَهَا فَوْقَ حِكْمَةٍ  
تَمِيلُ بِأَعْطَافِ النَّجَاحِ خُصُورُهَا  
وَتَزْهَوُ وَلَا زَهْوَ الْكَوَاكِبِ فِي الدُّجَى  
يَقْرُئُ لَهَا مِنْ كُلِّ بَدْرٍ تَمَامَهُ

ومنها:

فقد خَوَّلْتَنِي نِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ  
فَأَلْبَسَنِي نَسِجَ الْحُبُورِ حَبِيرُهَا  
لَقَدْ رَشَّحْتَ حِلْمِي (٢) فَجَاءَتْ خَلَاتِقِي

عَلَيْهِ خَطُوبٌ لَا تُزَاحُ سُتُورُهَا (١)  
وَتَغْشَاهُ مِنْ جُرْدِ الْمَذَاكِي (٢) صُدُورُهَا  
وَفِي وَسْطِ أَجْوَالِ الْمَنَايَا صَبُورُهَا (٣)  
أَجِيْشُ بِهَا لَمْ يَحْبُ يَوْمًا سَعِيرُهَا  
مَضَتْ لِي كَأَعْوَامِ الرِّجَالِ شَهُورُهَا  
وَلَمْ يَهْدِنِي نَحْوَ الْحَفِيظَةِ نُورُهَا  
أَخَاهَا وَلَا صَاغَ الْقَوَافِي أَمِيرُهَا  
غِزَارًا فَلَا تَخْشَى الْمَغَاضَ (٤) بِحُورُهَا  
عَلَى ذَاتِ فَضْلِ لَا يَخِيبُ سَمِيرُهَا  
أَقَامَ بِهَا الْإِرْشَادَ وَهُوَ خَفِيرُهَا  
مُرْفَعَةٌ تَعْلُو السَّمَاكَ قُصُورُهَا  
وَتَضْحَكُ عَنِ مِثْلِ الْأَقَاحِ ثُغُورُهَا  
إِذَا فِي لِيَالِي الْجَهْلِ تَمَّ سُفُورُهَا  
وَيَحْسُدُهَا مِنْ كُلِّ شَمْسٍ ذُرُورُهَا (٥)

وَكُلُّ إِذَا عُدَّتْ فَإِنِّي سَكُورُهَا  
وَأُوطَانِي مَهْدَ السَّرُورِ سَرِيرُهَا  
مِنَ الطَّبَعِ أَوْلَاهَا وَلَا أَسْتَعِيرُهَا

(١) السُّتُور، الأولى: الدروع؛ والثانية، مفردها سِتْر: ما يُسْتَر به.

(٢) الجُرْد والمذاكي: الخيول الكريمة (مطلقاً).

(٣) الصُّبُور: الأسد.

(٤) حَلَبَ أَشْطَرُ الشَّهْرِ: جَرَّبَهُ وَعَرَفَ خَيْرَهُ مِنْ شَرِّهِ.

(٥) غَاضُ الْمَاءِ: نَقَصَ أَوْ نَصَبَ.

(٦) ذَرَّتْ الشَّمْسُ: طَلَعَتْ.

(٧) رَشَّحْتَ حِلْمِي: يَرِيدُ دَفَعْتَ بِهِ وَأَثَمْتَهُ وَرَغَمْتَهُ.

ليالي هاتيك المهارق<sup>(١)</sup> حولنا  
لذاك غدت تحكي بياض طروسها  
مَجْرٌ وَمَجْرَى سُمِرَ أَقْلَامُنَا الَّتِي  
أَلَا حَبِّذَا تَلِكِ اللَّيَالِي فَإِنَّهَا  
قَضِيَتْ بِهَا أَنْسَا كَأَنْ لَمْ أَفْزُ بِهِ  
فَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ الرِّيَاضِ الَّتِي جَرَى  
وَلَا أَنْسَ أَوْقَاتًا قَضِيَتْ بِرَبْعِهَا  
فَإِنْ يَقْضَى بِالْبُعْدِ الْقَضَاءُ فَإِنَّهُ  
مَضَتْ فَأَمَضَتْ مُهْجَتِي وَكَأَنَّمَا  
فَلَا تَنْكُرُنْ مِنِّي الَّذِي قَدْ شَهِدْتُهُ  
فَمِنْ جَوَى الْأَحْشَاءِ مَا لَوْ جَعَلْتَهُ  
تُصَعَّدُ مِنِّي زَفْرَةَ فَتْثِيرِنِي  
فَإِنْ كُنْتَ أَظْهَرْتَ الْفُتُورَ بَلْوَعَتِي  
أَوْ دَعَّ مَغْنَى قَدْ قَضِيَتْ بِهِ الصَّبَا  
وَمَارَسْتَ أَعْلَامًا وَدَارَسْتَ عَلِيَّةً  
عَلِيَّ لَهُمْ فَضْلٌ بِجِيْدِي دُرَّةُ  
تَحَاشَيْتَ نَفْسِي مِنْ سُلُوِّ عَهْوِهِمْ  
فَمَا قَصَرْتُ إِلَّا وَقَامَتْ مَائِرٌ  
فَذَكَرْهَا عَهْدُ الْخَوْرَنْقِ شَأْنَهَا  
مَائِرٌ أَجْدَادٍ جَدِيدٌ فَخَارُهَا  
عَلَى أَنَّهُ مَا تَمَّ فَضْلٌ لِأَوَّلِ

يدور بنا دَوْرَ الْأَسَاوِرِ دَوْرُهَا  
وَإِنْ أَشْبَهْتَهَا بِالظَّلَامِ سَطُورُهَا  
يَهِينٌ صَلِيلَ الْمَشْرِفِي صَرِيرُهَا  
هِيَ الْغُرُّ لَكِنْ لَيْسَ يَدْرِي غُرُورُهَا  
وَرَشْفَ كُؤُوسٍ لَمْ تُحْرَمْ خَمُورُهَا  
وَأُورِدْنِي مَاءَ النَّعِيمِ غَدِيرُهَا  
وَلَا صَحْبَةَ مِنِّي كَرِيمٌ عَشِيرُهَا  
عَذِيرِي مِنْهَا وَهُوَ مِنِّي عَذِيرُهَا  
نَظِيرَ كَرَى عَيْنِيَّ كَانَ كُرُورُهَا  
وَجُومًا بِنَفْسٍ قَدْ تَسَامَى زَفِيرُهَا  
عَلَى قَنْ<sup>(٢)</sup> الْأَجْبَالِ<sup>(٣)</sup> دُكَّتْ صَخُورُهَا  
وَأَجْهَدُ فِي إِرْجَاعِهَا فَأَثِيرُهَا  
فَرُبَّ عَيْوُنٍ شَبَّ نَارًا فَتُورُهَا  
وَأَرْضِيَتْ نَفْسًا كَالنَّهَارِ ضَمِيرُهَا  
وَأَنْسَتْ أَنْوَارًا تَمَامًا بُدُورُهَا  
وَكَمْ فِتْيَةٍ مِنْهُمْ تَحَلَّتْ نُحُورُهَا  
فَإِنَّ نِجَارِي الْمَنْدَرِيَّ نَذِيرُهَا  
مِنْ الْأَضْلِ لَا يُدْرِي لَعْمَرِي قُصُورُهَا  
وَإِنْ سَدَرَتْ مَا غَابَ عَنْهَا سَدِيرُهَا<sup>(٤)</sup>  
يُدْرِي وَإِنْ طَالَتْ خُلُوعًا عُصُورُهَا  
بِعُصْبَتِهِمْ حَتَّى أَجَادَ أَخِيرُهَا

(١) المهارق، مفردا مهرق: الصحيفة أو الورقة.

(٢) القنن، مفردا قنة: الجبل، كالقمة.

(٣) الأجيال: الجبال.

(٤) الخورنق والسدير: قصران للنعمان اللخمي.

## وقلت وهو من شعر المدرسة

أمعلمها بين العذيب وبارق  
فديتك ربعا قد ترحل آله  
عفا وخلت منه المنازل بعدما  
وأقوى وأقوى<sup>(١)</sup> ما حوى من معاقل  
وأجذب بعد الخصب إذ كان زاهرا  
سلام على تلك الربوع فإنها  
لكم قد حوت تلك الخيام عقائلا  
رواشق قلبي عن قسي<sup>(٢)</sup> جفونها  
تبيح لنا ألحاظها حيثما رنت  
وإن خطرت سكرى فمن كل رائق  
لقد أطلعت من تحت ليل فروعها<sup>(٣)</sup>  
فليل وبدر عندها ما هما سوى  
بروحي هاتيك الثنايا فإنها  
أتلحونني<sup>(٤)</sup> يا أيها الناس ويحكم

تغزلت من غزلانه بالحقائق  
بكل إمام للمآثر سابق  
لقد كان زينا للنهى والمناطق  
أناخت عليه عاديات البوائق  
بكل كتاب للفوائد واسق<sup>(٥)</sup>  
رياض المعالي والمعاني الدقائق  
يضيء سناها من خلال السراق  
ألا بارك الباري بتلك الرواشق  
بسحر بيان صادق كل صادق  
من اللفظ والمعنى ومن كل شائق  
هلال محياها بأسنى المشارق  
سواد مداد في بياض مهارق  
زهت في رياض لفضل زهولشقائق  
على الحب ما أنتم له بالعوائق



## ولي أيضا وهو من أوائل نظمي

عليك أقمت أسناء الثناء  
فأنت أقمت أثناء السناء

(١) أقوى: تقول أقوى المكان إذا خلا؛ وأقوت الدار: خلّت من ساكنها.

(٢) وسق: ها هنا، جمع.

(٣) قسي، مفردا قوس.

(٤) فرع المرأة: شعرها.

(٥) لحي: لام وعاب.

جعلتَ عليَّ حقَّ ثنّاك فرصًا  
تَوَقَّدُ فِطْنَةً وتَسِيلُ لَطْفًا  
وحلمك راجحٌ برعان<sup>(١)</sup> رضوى<sup>(٢)</sup>  
ومجدك ظاهر فوق الدراري  
بروحي أنت لا وحدي ولكن  
إذا فَتَّشتَ يوماً في عروقي  
فأين تكون يا مولاي مني  
ففي قلبي أُعِيدُكَ من غليلي  
لقد أناك بالقدر التّداني  
أرى لك هزّة للفضل حتّى  
أراك لطفت حتّى كدت تحفّي  
فلا بَسْتَ الضمائر مثل سرّ

وقد أحييتَ لي ميثَ الرجاءِ  
كطبع السيف من نارٍ وماءِ  
وعزمك كالمهند في المضاءِ  
وذكرك فائق عرف الكباءِ  
فذاك القوم من دانٍ وناءِ  
ترى سريان حبك مع دمائي  
لأسني عند منزلك احتفائي  
وفي عيني أُعِيدُكَ من بكائي  
وقد أدناك بالحبّ التنائي  
طباعك أصبحت مجرى الطلاءِ<sup>(٣)</sup>  
على أبصار مختبرٍ وراءِ  
ولامست الظواهر كالهواءِ



وكتبت تحت أول صورة فوتوغرافية استخرجت لي، وكنت في الرابعة عشرة

ونفسك فابدأ بتصويرها  
والأ مضى الجسم مع رسمه  
بما أنت من خالدٍ فاعلُ  
ولا يحلّد الزائلَ الزائلُ

(١) الرّعان، مفردا الرّعن: أنف الجبل.

(٢) رضوى: جبل في المدينة المنورة؛ والعبارة للمديح.

(٣) الطلاء: الخمر.

## رثائي لحجة الإسلام

”وبينما كنا مباشرين طبع هذا الديوان بمطبعة المنار تحت إشراف صاحبها العلامة الإمام حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا، إذ أُصيب العالم الإسلامي كله بفقد هذا السيد الإمام الذي تتعاقب القرون، ولا ينسى الإسلام عظمة مُصابه، قدّس الله روحه، فأنا ملحق بهذه القصائد التي كانت تُطبع تحت ملاحظته بقصيدة رثاء له، واحسرتاه عليه، والله يفرغ علينا الصبر الجميل من بعده“ وهي:

وعارضي السَّحِّ أُسْكُوبًا بِأَسْكُوبِ  
 عن مارِجٍ<sup>(١)</sup> في صميم القلب مَشُوبِ  
 وأيّ داهية دَهِيَاءَ تَلْوِي بِي  
 يَا عُمْرِي انْفَضِّ أَوْ يَا مُهْجَتِي دُوبِي  
 وَمَنْ نَشَدْتُ لِتَعْلِيمِي وَتَهْذِيبِي  
 وَمَنْ لِلْقِيَاءِ إِسَادِي وَتَأْوِيبِي  
 لَمْ يَكْفِنِي طُولَ تَشْرِيدِي وَتَغْرِيبِي  
 وَمَنْ أَرَى بَثَّهُ بَثِّي وَتَعْذِيبِي  
 ذَاكَ الشَّهَابِ بَلِيلَاتِ غَرَابِيبِ<sup>(٢)</sup>  
 فَلَا تُصَادِفِ قَلْبًا غَيْرَ مَنْخُوبِ  
 عَنِ شَأْوِهِ فَهِيَ مِنْهُ كَالْأَهَاضِيبِ  
 فِي أَيِّ فَنٍّ أَتَانَا بِالْأَعَاجِيبِ  
 نَظَلَ نَلْبَسَ مِنْهُ جِلْدَ مَرْعُوبِ  
 وَكَمْ حَسْبِنَاهُ صَدْعًا غَيْرَ مَرْوُوبِ<sup>(٣)</sup>

تحدّري يا دموعي بالميزابِ  
 وأدركي كبدًا لَجِّ الأورُبها  
 هَيْهَاتَ أَيِّ الرِّزَايَا بَعْدَ تَرْمِضُنِي  
 وَأَيِّ خُطْبِ مَلِيّ أَنْ أَقُولَ لَهُ  
 مَضَى الَّذِي كَانَ فِيهِ مُنْتَهَى أَمَلِي  
 وَمَنْ عَنِ الأَخْذِ عَنْهُ شَدُّ رَاحِلَتِي  
 شَعَرْتُ إِنْ خَلْتُ الدُّنْيَا بِمَصْرَعِهِ  
 فَمَنْ أَنَا جِيهِ بَعْدَ اليَوْمِ فِي حَزْنِي  
 وَهَآءَ عَلَى حُجَّةِ الإِسْلَامِ حِينَ خَبَا  
 وَهَآءَ عَلَى عِلْمِ الأَعْلَامِ حِينَ هَوَى  
 هَوَى وَكُلَّ جِبَالِ العِلْمِ دَانِيَةً  
 أَيْنَ الَّذِي كَانَ إِنْ أُجْرِي بَرَاعَتِهِ  
 هَذَا المُصَابِ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ  
 مِنْ قَبْلِ رِزْنَاهُ فَقَدًا غَيْرَ ذِي عَوْضِ

(١) المارج: الشعلة ذات اللهب الشديد.

(٢) الغريب: الأسود الحالِك.

(٣) رأب الصدع: أصلحه.

حتى إذا حلّ لم تعقد مَنَاحته  
 قضى الإمام الذي كانت مكانته  
 لو كان أنصفه الإسلام يُومَ ثوى  
 كان المقدم في علمٍ وفي عملٍ  
 له شمائلُ أمثال النسيم سرى  
 سمحُ السجّية لا يلوي على حسك<sup>(٤)</sup>  
 لم تعرف الحقد في يوم سريرته  
 كمّ قد تلقى أعاديه وقد كشحوا<sup>(٥)</sup>  
 يلقونه حملاً حتى إذا عبثوا  
 هناك لا هدنةٌ يدري ولا خصمٍ  
 هناك أعظم بفحلٍ غير ذي نكلٍ<sup>(٦)</sup>  
 يصول صول عليٍّ في وقائعه  
 عدا على عبقرٍ من ليس ذا صلةٍ  
 فالعبقريّة وصفٌ في رشيد رضا  
 قسّ كلّ صاحب فضلٍ مع رشيد رضا  
 تسمو المنابر إعجاباً بوطاته  
 سبحان من زاده علماً وألهمه

إلا على حادثٍ من قبل مرهوبٍ  
 بين الأئمة في أعلى الشناخيب<sup>(١)</sup>  
 لبات يرقلُ في سُودِ الجلابيب<sup>(٢)</sup>  
 والجمع ما بين منسوبٍ ومكسوبٍ  
 تذكّيه نفحةٌ نوار التعاشيب<sup>(٣)</sup>  
 ويكره العفو أن ينأى عن الحوب<sup>(٥)</sup>  
 ولا وعى سرّه شيئاً سوى الطيبِ  
 بفضل ذيلٍ على الآثام مسحوبِ  
 بالدين أصبح كالْبُزْلِ<sup>(٧)</sup> المصاعيب<sup>(٨)</sup>  
 إلا سيأخذ منه بالثّلابيب<sup>(٩)</sup>  
 لدى اللقاء وسيفٍ غير مقروبِ  
 فليس يعرف قرناً غير مكبوبِ  
 معها على الرغم من نعتٍ وتلقيبِ  
 والعبقرية ليست بالأكاذيبِ  
 قيس الرُّهّام إلى الطير المناسب<sup>(١١)</sup>  
 لها وتخضع أقواسُ المحاريبِ  
 تلك البراهين في أحلى الأساليبِ

(١) الشناخيب، مفردها الشخوب: رأس الجبل وأعله.

(٢) الجلابيب، مفردها الجلباب: الثوب الواسع.

(٣) التعاشيب: قطع العشب المتفرقة.

(٤) الحسك: الغضب.

(٥) الحوب: الإثم.

(٦) كشحوا، (مجازاً): أضمرُوا العداة؛ والكشح، (لغة): ما بين السرة ووسط الظهر.

(٧) البزل: نوع من الوعول.

(٨) المصاعيب: الفحول.

(٩) الثلابيب: تقول أخذ بتلابيبه أي جمع ثيابه عند نحره وصدرة.

(١٠) نكل: جبن.

(١١) المناسب: يريد بها جوارح الطيور.



رَبُّ الْوَفَاءِ الَّذِي أَرْبَى بِشَهْرَتِهِ  
لَمْ يَدْرِ بَغِيًّا عَلَى الْأَخْوَانِ فِي زَمَنِ  
لَهُ الْمَنَارِ الَّذِي كَانَتْ تُنَارُ بِهِ  
مُقَلَّةٌ مِنْ أَصُولِ الشَّرْعِ أَشْرَعَةٌ  
كَانَ الْمَنَارُ لِحِزْبِ الْحَقِّ مُعْتَصِرًا  
غَدَتْ بِهِ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ حَجَّتْهَا  
جَمِيعُ أَجْزَائِهِ تَأْتِي عَلَى نَسْقٍ  
فِيهِ الْفِتَاوِيُّ الَّتِي يَرْضَى الْجَمِيعُ بِهَا  
تَجْرِي بِأَذَانٍ مَنْ يُصْغِي لِقَارِنِهَا  
مَا بِالْمَنَارِ ضِيَاءٌ غَيْرَ مُقْتَبَسٍ  
وَكَمْ كِتَابٌ لَهُ غَيْرَ الْمَنَارِ غَدَا  
فِي كُلِّ عَامٍ تَأَلِيفٌ يَجُودُ بِهَا  
مَوَاقِفُ لَنْ تَرَى مَنْ يَسْتَقِلُّ بِهَا  
سِرٌّ نَحْوَ رَبِّكَ مَبْكِيًّا بِكُلِّ دَمٍ  
وَأَنْعَمَ لَدَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ  
وَأَتْرُكُ ثَنَاءً كَنْفَحِ الطَّيِّبِ لَيْسَ بَيْنِي  
قَدْ يَغْلِبُ الْحُزْنَ أَقْوَامٌ بِصَبْرِهِمْ  
أَبْكِيكَ مَا دَمْتُ فِي الدُّنْيَا وَمَا بَقِيْتُ  
لِي مَعَكَ عَهْدٌ فَآبَى أَنْ أَخِيْسَ بِهِ

حَقًّا عَلَى مِثْلِ فِي الْعَهْدِ مَضْرُوبٍ  
سَادَتْ عَلَى الْجَمِّ فِيهِ شِيْمَةُ الذَّيْبِ  
سَفَائِنُ الْقَوْمِ فِي لُجِّ التَّجَارِيْبِ  
تَمْشِي مَعَ الْعَقْلِ تَسِيَارَ الْأَصْحَابِ  
يَهْدِيهِمْ بِشِعَاعٍ غَيْرِ مَحْجُوبِ  
شَهْبَاءٌ فِي حَازِبِ مِنْهَا وَمَحْزُوبِ  
مِثْلَ أَطْرَادِ الْعَوَالِي بِالْأَنْبَابِ  
فَلَا تَرَى حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبِ  
لِحْنِ الشَّرِيحِيِّ<sup>(١)</sup> فِي سَمْعِ الْمَطَارِبِ  
وَلَيْسَ فِيهِ هَلَالٌ غَيْرَ مَرْقُوبِ  
فَوْقَ الْكُتَائِبِ فِي حَشْدٍ وَتَكْتِيبِ  
كَالْغَيْثِ يُرْسِلُ سُؤْبُوبًا بِسُؤْبُوبِ<sup>(٢)</sup>  
وَلَنْ تَرَى طَامِعًا مِنْهَا بِتَقْرِيْبِ  
قَانَ عَلَى صَفْحَةِ الْخَدَّيْنِ مَصْبُوبِ  
وَفُزُّ بِقِسْطِكَ مِنْ بَرٍّ وَتَشْوِيْبِ  
يَمْلَأُ الْبِلَادَ بِتَشْرِيْقٍ وَتَغْرِيْبِ  
لَكِنْ حُزْنُكَ عِنْدِي غَيْرَ مَغْلُوبِ  
إِلَّا بَقِيَّةَ عَيْشٍ غَيْرِ مَحْبُوبِ  
حَتَّى أَصِيرَ إِلَى لَحْدٍ وَتَثْرِيْبِ

## الأسيف

### شكيب أرسلان

جنيف، ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤

(١) هو ابن سريج، المتوفى سنة ٧٢٤م. مغن من أهل مكة، اشتهر بالضرب على العود وبألحانه.

(٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر.

## ملحق الديوان قصائد غير منشورة سابقاً

### العصر الجديد\*

تقلص الظلم لا عين ولا أثر  
وأصبحت دولة بالعدل قائمة  
نفح من الملاء الأعلى تداركنا  
تبلجت من حواشي الظلم كاشفة  
طال الظلام فلم نحسب وراه ضحى  
تبدل الشرق مثل الغرب حالته  
وطاب للناس عيش كان أكثره  
كأنما هذه الدنيا مبدلة  
بعث يحقق أمر البعث عند أخي  
بشرى أتتنا بما لم يأت في حلم  
كأنما هي من قسم المحال فقد  
جلا غيابتها سيف يضاء به  
سيف إذا ما انتضاه الجيش حفّ به  
أعاد للدولة الغرّاً شبيبته  
يا أيّها القوم هبوا للفلاح فلا  
ردّوا على الشرق عليه فقد سلفت  
قد صار أمركم شورى كما نزلت

وأقبل الحقّ لا حجب ولا قتر  
كأنها دولة المهدي تنتظر  
من بعد ما ظنّ أنّ السلك ينشر  
وما دجا الليل إلا شقّه السحر  
والأرض دائرة ما دارت الأكر  
كذا البلايا عليها تطرأ الغير  
بؤساً وراقت كؤوس ملؤها الكدر  
دنيا سواها جديداً بعدها العمر  
شكّ وكيف تقوم الأعظم النخر  
وليس يخطره في قلبه بشر  
تكرّر الأمر حتى صدق الخبر  
حرّاً ويخطف للباغي به البصر  
في الشفرتين قضاء الله والقدر  
مع الإخاء فزال الكبر والكبر  
عذر به بعد هذا اليوم نعتذر  
له عصور بها التاريخ يفتخر  
على النبي به الآيات والسور

\* إن هذه القصيدة موجودة في الديوان ضمناً ولكنها غير مكتملة ودون عنوان، وحيث إننا عثرنا عليها كاملة ومع عنوانها الأصلي "العصر الجديد" فإننا نعید إدراجها ضمن الملحق درءاً لأي نقص أو ضياع. أمّا مناسبة القصيدة فهي إعلان الدستور العثماني (١٩٠٨) حيث ألقاها الأمير شكيب أرسلان من على مصطبة ثكنة الفرسان في بيروت.

لم يبقَ مستأثر بالأمر يقطعه  
امضوا على سنن الدستور متبعا  
لا يشطرنكم ترك ولا عرب  
لا تكتفوا بليالٍ تأنسون بها  
فالفعل والجد لا الألفاظ تسعدنا  
تذكروا ولد الخطاب حين جرى  
أنقى وأعدل من في الأرض أجمعها  
إذ اعتلى منبراً يدعو رعيته  
فقليل والله لو أتا نرى عوجاً  
فقال حمداً لربي حين صار بكم  
بمثل هذا يقوم الملك معتدلاً  
يقوم العدل من إحناء مملكة  
لا تبتغوا بدلاً بالعدل واحتفظوا  
كم اشترى العدل أقوام بأنفسهم  
لا تذكروا حالة من قهركم سبقت  
ولا تطيشوا فخير الرأي أنضجه

من حيث شاء كما شاءت به الأثر  
في نهجه العدل لا طول ولا قصر  
ولا ربيعة في حق ولا مضر  
يدور عما مضى من سمرها السمر  
والحزم والعزم لا الأشعار والفقر  
ذاك الخطاب عساها تنفع الذكر  
خليفة كان يستسقي به المطر  
إذا ترون اعوجاجاً بي فلا تذروا  
إذا أقمناه بالأسياف يا عمر  
مقوماً لاعوجاجي الصارم الذكر  
وتعتلي بذويها في الورى السرر  
ما لا يقوم منها البيض والسمر  
بنعمة دونها الأرواح تحتقر  
وهم ينادون لا غبن ولا غرر  
فإنها غبرت في ضمن من غبروا  
ولا يضرّ أمراً في سيره الحذر



ووفروا الحقّ للجيش الذين بهم

دنا لنا يعدّ بعد ذلك الوطر



ولا تطيلوا على السلطان لائمة  
جرى على عرقه الأسمى فبرّ بكم  
هذا ابن عثمان لا يعدو أوائله  
له على الناس حقّ لا مرأه به

فقد تحمّل ذاك الوزر من وزروا  
ولو يشا الغدر سالت للذما غدر  
إنّ الأصول عليها ينبت الشجر  
كذاك للناس حقّ ما به نكر

## إلى سعادة الهمام الجليل أمير النظم والنثر،

### محمود باشا سامي البارودي

بعث بها إليه الأمير شقيب بك أرسلان يتشوق إليه ويعزيه بكريمته التي فقدتها منذ أشهر  
ويعتذر إليه عن تأخره في أداء هذا الواجب:

أيّ ري بالصحف والأقلام  
وتناجي الأرواح بُعداً وفي القر  
لفؤاد إلى لقائك ظام  
ب تلاقي الأرواح والأجسام  
كلّما شئت شدّ رحلي إلى مصر نبت بي عوائق الأيام  
تعتقي سيرتي وبينني وبين النيل لم يبقَ غير سهم لرام  
ولقد طالما تمثّلت ذاك ال  
ماء يجري وكنت في الأوهام  
كم أراني الخيال واهاً وهذا  
غير ما جاد طيفكم من لمام  
وجذبنا من الحديث غصونا  
وسهرنا إلى نحول الظلام  
ورويانا من القريض الذي تسكر منه العقول من دون جام  
ونقعنا صدى القلوب لقاء  
واحتكنا في الدهر أيّ احتكام  
ونجزنا مواعداً قد تمادت  
إن نجز الوعود شأن الذمام  
سيقول الأمير ماذا الذي عا  
ق وماذا يحول دون المرام  
ما تأت دار من تحبّ وعيب  
نقص ذي قدرة على الإتمام  
بيننا ليلتان لكن مع الغي  
ب سواء يومان أو ألف عام  
وعزيز اللقاء والحبّ لم تشحط به الدار زائد في الهيام  
أنا ميلي إلى القديم وحسبي  
ورجائي في مصر لقياً صحاب  
ودهم بات ساريا في عظامي  
صلة الآل بيننا وهي الآ  
داب أقوى فينا من الأرحام  
وحنيني إلى الذي طالما اشتقت بعيداً فكيف وهو أمامي

الأمير المحمود بالاسم والفعل وكم خالفت فعلاً أسامي  
 سيّد إن تحجّ كعبة عليا ه تجد ما نسيت معه الموامي  
 باهر القدر إن تزنه مع الأقوام في الفضل مال بالأقوام  
 أيها السيّد الهمام ومن يكفيه إن قيل فيه (محمود سامي)  
 لك ذكر قد طار في الشرق والغرب ب وفضل أدناه فوق الهام  
 ولعمري ذكاك مثل ذكاء ما تغيب الشمس طي الغمام  
 ولانت الذي نشرت بذا العصر قريضاً طوى أبا تمام  
 أدب حزته وليس كذا القسم من الحظّ سائر الأقسام  
 ولعمري مع ذاك أيّ علاء لم تكن منه في الذرى والسنام  
 إن صلاك الزمانا حرباً عواناً فقديم عدوانه للكرام  
 ولعمري الذي دهاك أخيراً كان وقع السهام فوق السهام  
 لا تخل كنت في الفجيرة فرداً كلّ قلب لجرح قلبك دام  
 قد سكبنا نظير شعرك دمعا في نواح كنوح تلك الحمام  
 إن بكينا فقد بكينا لأحزا نك والشكل أعظم الآلام  
 والذي راح فليهنأ على فر قة دار ليست بدار مقام  
 هذه سنّة الليالي فأدعو ك إلى الصبر سنّة الإسلام  
 وقصور قصرته عن تعازيك فقد كنت ألف مهد السقام  
 يعلم الله ما نسيتك عمري وولائي نظير مجدك نام  
 كلما هبّ في خمائل لبنا ن جنوب زودته بسلام  
 ولعمري أخال ذكرك إيا ي إذا أنت شمت برق الشأم  
 حال سقمي دون القريض فضعف فوق ضعفي فهل يصحّ ملامي  
 سائح ابتغى النسيم واسعى بين فيح السهول والآكام  
 لا تخلني وقد كتبت مقيماً فيراع قرنته بلجام

من ضفاف الأردن يجري على الغو  
 وتباشير للربيع تراءت  
 ر كساق يدير كأس المدام  
 في عرار من زهره وبشام  
 وغصون تميمس في ذلك الأيك وكم من قيامة للقوام  
 وظباء تسعى تذكّرني و صفك ذلّ الأسود للآرام  
 ويح ذا القلب كيف أصبح من كلّ جمال رهن العذاب الغرام  
 عهده كالصلاد ما باله أصبح نهباً مقسّمًا للقسام  
 وهموم تغريه والحبّ لا يسكن إلا مواطن الإقدام  
 ما برا الله للعذاب أداة  
 أيها الأروع الذي قد سما قد  
 لا تظنن للعهود انتكأنا  
 وألاقي بحرین منك ومن ذا  
 حجة الشرع ذي اللسان الذي قا  
 وسلامي على الخليل وشوقي  
 الثريا التي قدمت عليها  
 كيف يصغي لنغمتي في شرهم  
 فتغمد بذيل حلمك أبا  
 ليس فيها سوى الذي ذرف الدمع على طرسها من الانسجام  
 فعسى تغتدي مقدّمة بين يدي نور وجهك البسام

شكيب أرسلان

طبريا، في ١٨ شوال سنة ١٣١٩

## إنَّ هذا الشعر في الشعر ملك \*

هذه قصيدة في حدِّ الإعجاز من كلام أمير الشعر والأدب وحامل لواء البيان بين العرب صاحب المكان السامي محمود باشا سامي، قال وكتب بها من جزيرة سرنديب إلى صديقه الفاضل صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان:

رَدِّي التحيّة يا مهة الأجرع  
وترقّي بمتيمّ علقت به  
طرب الفؤاد يكاد يحمله الهوى  
ضمّت جوانحه إليك رسالة  
فمتى يبوح بما أجنّ ضميره  
أصبحت بعدك في دياجر غربة  
لا يهتدي فيها لرحلي طارق  
أرعى الكواكب في السماء كان لي  
زهر تألق بالفضاء كأنها  
وكانها حول المجر حمائم  
وترى الثريّا في السماء كأنها  
بيضاء ناصعة كبيض نعامة  
وكانها أكر توقد نورها  
والليل مرهوب الحمية قائم  
متوشح بالنيرات كباصل  
حسب النجوم تخلفت عن أمره  
وصلي بحبلك حبل من لم يقطع  
نار الصبابة فهو ذاك الأضلع  
شوقاً إليك مع البروق اللمع  
عنوانها في الخدّ حمر الأدمع  
إن كنت عنه بنجوة لم تسمعي  
ما للصباح بليها من مطلع  
إلا بأثة قلبي المتوجّع  
عند النجوم رهينة لم تدفع  
حبب تردّد في غدير مترع  
بيض عكفن على جوانب مشرع  
حلقات قرط بالجمان مرصّع  
في جوف أدحيّ بأرض بلقع  
بالكهرباء في سماوة مصنع  
في مسحه كالراهب المتلفع  
من نسل حام باللجين مدرّع  
فوحى لهنّ من الهلال بإصبع

\* عن مجلة المجلة المصرية، عدد ١٩، أول آذار ١٩٠٢، ٢١ ذو القعدة ١٣١٩.

ما زلت أرقب فجره حتى انجلي  
وترنمت فوق الأراك حمامة  
تدعو الهديل وما رأته وتلك من  
ريّا المسالك حيث أمت صادفت  
فإذا علت سكنت مظلة أيكّة  
أملت عليّ قصيدة فجعلتها  
هي من أهازيج الحمام وإنّما  
هو ذلك الشهم الذي بلغت به  
نبراس داجية وعقلة شارد  
صدق البيان أعض جرول بأسمه  
لم يتخذ بدر المقنع آية  
أحيا رميم الشعر بعد هموده  
كلم لها في السمع أطرب نغمة  
كالزهر خامره الندى فتأرّجت  
يعنو لها الخصم الألدّ ويغتذي  
هي نجعة الأدب التي من أمّها  
ملكّت هوى نفسي وأحييت خاطري  
فاسلم شكيب ولا برحت بنعمة  
فلانت أجدر بالثناء لمنة  
أرهفت حدّي فهو غير مفلل  
وبثقت لي من فيض بحرك جدولاً  
عذبت موارده فلو ألقّت به

عن مثل شادخة الكميت الأتلع  
تصف الهوى بلسان صبّ مولع  
شيم الحمام بدعة لم تسمع  
ما تشتهي من مجثم أو مرتع  
وإذا هوت وردت قرارة منبع  
لشكيب تحفة صادق لم يدّع  
ضمّنها مدح الهمام الأروع  
مسعته أمد السماك الأرفع  
وخطيب أندية وفارس مجمع  
وثنى جريراً بالجرير الأطوع  
بل جاء خاطره بأية يوشع  
وأعاد للأيام عصر الأصمعي  
وبحجرة الأسرار أحسن موقع  
أنفاسه بالعنبر المتضوّع  
بلبانها ذهن الخطيب المصقع  
ألقي رواسيه بوادٍ ممرع  
وروت صدى قلبي ولذت مسمعي  
تحنو عليك بأيكها المتفرّع  
أوليتها والبرّ أفضل ما رعي  
ورعيت عهدي فهو غير مضيع  
غمر البحار بسيله المتدّقع  
هسيم السحاب دلاءها لم تقلع



وزهت فرائده فصارت غرّة  
هو ذلك النظم الذي شهدت له  
أبصرت منه أخًا إيادٍ خاطبًا  
وحلمت أني في حمائل جنّة  
فضل رفعت به منار كرامة  
فمتى أقوم بشكر ما أوليتني  
فاعذر إذا قصر الثناء فإتني  
لا زلت ترفل في وشاء سعادة

لجبين كلّ متوّج ومقنع  
أهل البراعة بالمقال المبدع  
وسمعت عنتره الفوارس يدّعي  
ومن العجائب حالم لم يهجع  
صرف العيون عن المنار لتبع  
والنجم أقرب غاية من منزعي  
رزت المقال فلم أجد من مقنع  
وحبير عافية وعيش أمرع



## الساعة \*

من أجمل ما استجليناه في هذه الأيام من الآيات الأبرار، وأجلّ ما طالعناه من بدائع الابتكار  
أبيات للعالم العظيم والشاعر الحكيم، صاحب السعادة اسمعيل باشا صبري، وكيل نظارة الحقّانية  
الجليلة، نظمها في وصف الساعة فأتى فيها بأسمى المعاني وأغربها وأرشق المباني وأعذبها وجمع  
بين جلال الفلسفة المبنية على الحقيقة والصواب وجمال الخيالات الآخذة بالقلوب اللعوبة بالألبياب  
ناهجاً بذلك طريقة غير مطروقة داعياً أهل البيان إلى خطّة غير مسبوقه "قال أعزّه الله":

كم ساعة آلمني مسّها	وأزعجتني يدها القاسيه
فتّشت فيها جاهداً لم أجد	هنيهة واحدة صافيه
وكم سقتني المرّ أخت لها	فرحت أشكوها إلى التاليه
فأسلمتني هذه عنوة	لساعة أخرى وبني ما بيه
ويحك يا مسكين هل تشتكي	جارحة الظفر إلى ضاربه

\* عن مجلّة المجلّة المصرية، عدد ٦، ١٥ آب ١٩٠٠، ١٩ ربيع الثاني ١٣١٨.

## مراسلة مع محمود سامي البارودي\*

يذكر له تهيبه وتردده في كيفية الاتصال به، فيقول:

ترددها ما بين: أقدم وأحجم	وقد طالما حدثت نفسي وعاقني
وبالروضة الزهراء ألية مُقسم	حلفت بما بين الحطيم وزمزم
وخوضني في حوض من الطعن مفعم	لأفيت عندي دوس مشتجر القنا
وأهون من ذلك المقام المعظم	أقل بقلبي في الموافق هيبة

---

\* راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٣٢.

## رثائي لجاحظ العصر ونادرة العرب السيد

مصطفى صادق الرافعي، أكرم الله مثواه\*

إن الذي قد حطّ جسمك في الثرى  
«الجاحظ» الثاني الذي في شخصه  
كان ابن بحر واحداً، ففَضَّلْتُهُ  
«الرافعيين» الألى فرعوا<sup>(٢)</sup> العلى  
لا غرو أن يرقى شناخيب الذرى  
هي عزة أبقى «أبو حفص»<sup>(٣)</sup> لها  
جمعت إلى أنسابها أحسابها  
من مثل نادرة الزمان «المصطفى»  
إلا تكن قد أنجبت إلا «أبا  
قد كان في جيش البيان مكانه  
ما إن رأى العصر الحديث نظيره  
قل للمحاول أن يرى أنداده:  
ملاً الزمان بدائعاً وروائعاً  
تلك القريحة تمترى أخلافها<sup>(٦)</sup>

قد حطّ فيه العبقرى الأكبـرا  
رُدَّ «ابن بحر»<sup>(١)</sup> للحياة مكرّراً  
بأوائل كانوا جميعاً أبحراً  
وتدبروا في كل فنّ عبقرأ  
من كان من ذاك النجار تحذراً  
مجداً يتيه على السماك<sup>(٤)</sup> ومفخرأ  
وغدت تجر من الأئمة عسكرا  
سلطان سنّ وشى الطروس وخبّراً؟  
سام<sup>(٥)</sup> كفاها أن تسود وتظهرا  
ما كان يوماً تبّعاً في حميرا  
فحلاً يباري الأولين، ولن يُرى  
أقصر، فكلّ الصيد في جوف الفرى  
بقريحة تحكي الغمام الممطرا  
أبدأ، وليس بفيضها ما يُمترى<sup>(٧)</sup>

\* راجع كتاب «أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه» للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٤٩.

(١) ابن بحر هو الجاحظ.

(٢) فرع فلان القوم: أي علاّمهم بالشرف، أو بالجمال.

(٣) أبو حفص: كنية عمر بن الخطاب، وإليه تنتسب أسرة الرافعي.

(٤) السماك: نجم.

(٥) أبو سامي: كنية الرافعي.

(٦) الأخلاف: حلّات الضروع.

(٧) امترى الشيء: استخرجه.

تدع الخيال لدى العيون مجسّما  
وترى المعاني كالشياه مُقادةً  
شأو يشقّ على الجميع لحاقه  
هيهات يطمع طامع في "المصطفى"  
تتضاءل الأقران دون برازه  
كثر التفهيق في الجديد ونهجه  
وعدا رجال يحلمون بأن يروا  
حرجت صدورهم بأن يجدوا من الـ  
فتقصّدوا أن يطفئوا ذاك الضيا  
وتغفلوا قوماً أبت أحلامهم  
فمحا بنور الحق آية ليلهم  
ورماهم بكتائب من كُتبه  
وافاهم ببلاغة مضرية  
فغدت سفسافهم لدى آياته  
مَن ذا يضارع في البيان عصابةً  
هم ذلك السلف الذين لسانهم  
مَن ذا يطاول في البلاغة أحمدا  
المعربين إذا أجالوا خاطراً  
والمانعين المسكرات، وقولهم  
تلك العصابة مَن يجد عن سُبُلها  
زعم الألى نَحَوْا الجديد بأنه

مهما توارى شخصه وتنكرا  
بيننا تكون من الجآذر أنفرا  
مَن ذا يشقّ له لعمرى عثيراً؟  
إن صال في يوم العراك وهذرا  
مثل السباع تكعّ عن أسد الشرى  
كم مَن تكلم بالجديد وما درى  
شمل العروبة في البيان مبعثرا  
قرآن مورد أمة والمصدرا  
وتعمّدوا أن يفصموا تلك العرى  
أن تستبين الرشد أو تتدبرا  
وأراهم عنه النهار المبصرا  
فتطايروا كالحمير لاقت قسورا  
ما كان معجزها حديثاً يفترى  
نار الجُباحب ناوحت نار القرى  
قد أوضحوا نهج البلاغة نيرا  
تنحط عنه جميع السنة الورى  
وصحابه، وأبا تراب حيدرا؟<sup>(١)</sup>  
عنه بأعذب ما يكون وأقصرا  
ما دار في الألباب إلا أسكرا  
حقاً يقال لمثله: أطرق كرا<sup>(٢)</sup>  
عصر تحتم أن يخالف أعصرا

(١) أبو تراب: كنية الإمام علي، وحيدر لقب من ألقابه.

(٢) من أمثال العرب: أطرق كرا، إنَّ النعمة في القرى. والكرا: مرخم الكروان، وهو طائر لا ينام بالليل، والمثل يُضرب للذي عنده غناء ويتكلم.

حسبوا التدني في البيان تقدماً  
عمدوا إلى التغيير حتى يُحدثوا  
واستظفروا بمقالة تلخيصها  
قد فاتهم أن الحلاوة سرمد  
كم من قديم لا يزال رواؤه  
مهما تقادم جوهراً في عتقه  
من حاد عن حبّ الجمال تعنتا  
لغة قلوا أسلوبها، وتخيروا  
يرتد وارده وما ذاق الروى  
أخنى «أبو السامي» على غلوائهم  
وذرا دعاويهم كما نشر الهبا  
زحفت بلاغته تجرّ جيوشها  
قد يحرقون عليه من حسد، ومن  
ما زال في الأدب النزيه مبرّزا  
أعزز «أبا السامي» عليّ بأن أرى  
من أسرة القصب الضعيف، وفعله  
لك في البيان رئاسة أزلية  
ما إن دعوتك جاحظاً إلا وقد  
أحييت آداب اللسان، ولم يزل  
ورفعت للقرآن أرفع «راية»  
أنشأت أمثال النسيم رقائقا

رأوا الركاكة بالثقاة أجدرا  
حدثا يبلّغهم مراداً مضمرا  
أنّ القديم مضى، وولّى مدبرا  
ومذاق طعم الشهد لن يتغيّرا  
متألّقا يحكي الصباح المسفرا  
فهو الثمين، وليس يبرح جوهرها  
يتبدّل الأدنى، ويبغي الأحقرا  
عنها كلاماً مثل أحلام الكرى  
ويعود قارئه اللبيب وما قرا  
وأذاقهم مرّ الكفاح الممقرا<sup>(١)</sup>  
وأعاد خُفرتهم<sup>(٢)</sup> هشيمًا أغبرا  
فانقاد طوعاً من أبي واستكبرا  
بغض، ولكن يحرقون العنبرا  
حتى إذا شهد السفاهة قصراً  
ذلك اليراع الجاحظي مكسّرا  
في الخطب يهزأ بالحديد معصّفا  
أبدية، ليست تباع وتشتري  
رُزّت الرجال مقدّماً ومؤخّرا  
فيها مؤلّفك السراج الأزهرا  
فلذا غدوت «الرافعي»<sup>(٣)</sup> الأشهرا  
كانت على الحساد ربحاً صرصرا

(١) الممقر: الحامض المرّ.

(٢) الخفرة: اسم من المنعة والأمن.

(٣) يشير إلى كتاب الرافعي: «تحت راية القرآن».

وليتنا طول الحياة لآلئنا  
ألبستني بشناك فضلاً ضافياً  
فأنا عليك إلى نزولي في الشرى  
سرّ نحو ربك تاركاً في خلقه  
واستودع الدار التي فارقته  
فلأنت أجدر أن تهناً بالذي  
فتملّ من رضوان ربك جنّة  
أنت الدخيل عليه في ملكوته  
لا تبعدن وأنت وافدٌ خُلدته

واليوم نبكيك العقيق الأحمر  
فيه لبستُ الطيلسان مجرّراً  
أذكى الأنام أسي، وأبكي محجراً  
ذكرًا كما أجمت مسكاً أذفراً  
لجوار ربك ضاحكاً مستبشراً  
من أجله نبكي عليه تحسّراً  
سبغت، ومن غف رانه لك مغفراً  
حاشا كريمٌ ذمامه أن يُخفراً  
لا تظمان وقد وردت الكوثر!



## أبيات رافقت إهداء ديوان "باكورة" للأمير

شكيب أرسلان إلى المرحوم عبد الله باشا فكري\*

إذا ما رمتَ من مهديك كفوًا  
بذذت الناس في نظم ونثر  
فكيف يقوم عندك نزرُ شعر  
لقد أنفذت لؤلؤ كل بحرٍ  
وفقت الخلق من بدو وحضرٍ  
يُذيب الرعب منه كل شطرٍ؟

ومنها:

إجعلتُ القول في سيف ورمح  
فإنني عاشق غرر المعالي  
إذا فكّرتُ يومًا في كلام  
وعفتُ النظم في قدّ وخصر  
ولي نفس فداؤك نفس حرّ  
يكون بمدح (عبد الله فكري)

\* راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢١٩.



## في حسناء أرمينيا \*

أقسمتُ إذ طلعتُ عليّ شموستها  
أعلى محلّ في الجمال محلّها  
لم أحسدِ العشاق إلاّ واحدًا  
في مجلس يدع الحليم مرّحًا  
ما إن رأتها مهجّةً إلاّ فدتُ  
ومن العجائب وهي ريمّة (رامّة)  
هي جوذرٌ ولكم سبت من ضيغمٍ  
جارت عليها وهي بعد ظبيّة  
فعدا عليها مذ نعومة ظفرها  
بعد القصور العاليات رأيتها  
بعد الثراء الجمّ بذلة صانعٍ  
تمضي لها في الغزل بيض أناملٍ  
القطن يهزأ بالحرير بكفّها  
في الغزل أصبح شغلها ولنا به  
يرجو الملوك نظيرها لبنينهمُ

وزهتُ بها الأرجاء وهي عروسها  
وبها فأجمل بلدة (طرسوسها)  
أخطاه ربّ العرش فهو جليساها  
سيّان فيه لحاظها وكؤوسها  
ذاك المحيّا نفسها ونفيسها  
تغنوا لها غلب الرجال وشوسها  
لا يستبيه من الجيوش خميسها  
نكباءُ تصطلم<sup>(١)</sup> الأسود ضروسها  
خبيا نعيمُ الحادثات وبوسها  
في كسر بيتٍ قصرها ناموسها<sup>(٢)</sup>  
ولكلّ حالٍ في الزمان لبوسها  
صدق الذي من بالجمان يقيسها  
والخزّ ودّ لو أنّه ملموسها  
متحرّكًا قطعٌ تضيق طروسها  
فيعود ربّ الملك وهو يئسها

\* بينما كان الأمير ذاهبًا من سورية إلى الأستانة مبعوثًا عن حوران في أيام الحرب العامة الأولى، نزل ضيفًا في طرطوس على سعادة محمّد راسم، من كبار أعيان مصر، المقيم هناك، وكانت حصلت حادثة على فتاة أرمنية حسناء تشتغل في معلمه القطني، وضويقت الفتاة لأجل جمالها، ولم يعلم السيّد راسم بهذا الأمر، فلمّا بلغه الخبر امتعض ومنع من التعرّض لها وجعلها في مأمن من سطوة العاشق، وصادف وجود الأمير هناك، فجاءت أبياته هذه على سبيل المداعبة. (راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٢٩).

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) الناموس: بيت الراهب، وتُطلق هذه الكلمة على غرفة الصائد التي يكمن بها.

أحبتُ (عيسى) والصليب لأجلها  
وأخالف الشيخ التميمي الذي  
لو كان شاهدَ وجهها وعفافها  
فتكتُ بنا وهي الضعيف بذاتها  
هو ذلك البطل الذي في ذكره  
عادتُ به الآمال خضراً نضراً  
أبقى الإله سعوده موصولة  
وأراه أعداء البلاد أذلةً

حتى يكاد يؤمُّ بي قسيسها  
ما كان يطرب سمعه ناقوسها  
مع حسنها ما آده<sup>(١)</sup> تقديسها  
فتكات (أنور)<sup>(٢)</sup> بالعداء يدوسها  
أبدًا يضيء من الوجوه عبوسها  
من بعد ما عمَّ البسيط ييسها  
فيها يغيب عن البلاد نحوسها  
مخفوضةً للمسلمين رؤوسها

في سنة ١٣٣٥ هـ

---

(١) آد: ثنى.

(٢) أنور: هو القائد التركي المعروف، صديق القائد نيازي، وقصتهما معروفة حينما دخلا على السلطان عبد الحميد وخلعاه عن العرش.

## قصيدة للأمير شقيب أرسلان إلى خليل مردم\*

بعث الأمير بهذه القصيدة وفيها من الدعابة فنون:

والله مذ طلعت عليّ شموستها  
والشمس ما طلعت علت أنوارها  
ألقنت على قلبي المتيم لحظة  
رقّ الفؤاد لها فصار رقيقها  
تدعى الأسيرة غير أنّ غزاتها  
قد غيّبوها في السجون فلم يطل  
خلصت تجرر منه ذيل صيانة  
وكذا الجمال إذا سرت أجناده  
مذ صوّبت نحوي سهام لحاظها  
نفذت لها بين الجوانح نظرة  
باتت تقلّب في ضعيف بنانها  
هيهات يرجى لي الثبات أمامها  
من ذا يعارضها بملك عبيدها  
شاهدت منها منظرًا تحيي به  
وسرقت نظمًا من مباسم ثغرها  
قل (للخليل) يتيه في (فيحائه)  
ويروود مرجتها عشية سبتها

ريضت لها نفسي وزال شموستها  
وعرا الكواكب والبدور خنوسها  
خضعت لها روعي ولان شريسها  
وحنالها رأس العلوّ رئيسها  
عادت لها أسرى تذوب نفوسها  
أن صار ربّ الحبس وهو حيسها  
هي منه في لمعانه طاووسها  
سارت بأودية القلوب تجوسها  
وهنت دروع مفاصلي وتروسها  
فيها يضلّ الطبّ (جالينوسها)  
أسدًا تضيق به الأسود وخيسها<sup>(١)</sup>  
إذ يجذب الصوّان مغناطيسها  
مذ فوق عرش الحسن كان جلوسها  
روح ولو بلغ الفصل نيسها  
دررًا يعزّز بمثلها قاموسها  
ويروض كلّ كريمة ويسوسها  
وله بكلّ محطّة جاسوسها

\* راجع كتاب "أمير البيان شقيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٣١.

(١) الخيس: غابة الأسد.

ويصيد عفر ظبائها في كنسها  
أظننتَ شطر الحبّ خصك مفردًا  
وحسبتَ ما في الركب غير (خليلها)  
أو إن قطعتُ الأربعين أينبغي  
أو ما علمتَ الأربعين رجالها  
وهمُ الجهابذة الأساتذة الأولى  
وهمُ إذا ضمّتهم أعراسها  
أ يكون مثلي شاعرًا وأكون من  
ما زال سلطان الجمال محكمًا

وإليه تُجبي (جوبر)<sup>(١)</sup> وكنيسها  
وسواك في أقسامه مبخوسها  
وأديب ذلك وحده نقريسها<sup>(٢)</sup>  
أن تستوي غزلانها وتيوسها  
نعم الفوارس إذ يفوز وطيسها  
ليسوا أُصيّبةً تعاد دروسها  
مثل الضراغم ضمّتها عريسها<sup>(٣)</sup>  
لم يجتذبه من الوجوه أنيسها  
تأتيه من كلّ القلوب مكوسها

(١) جوبر: من أكبر قرى النخوة وللشاعر، رحمه الله، مزرعة بها.

(٢) النقريس: الدليل الحاذق.

(٣) العريس: ماوى الأسد.

## نظم الأمير قصيدتين ينتصر بهما لرجال الأربعين وهما:\*

أرى في غزال الدوّ منه شمائلًا  
وتخطر قضبان العذيب فتشني  
أكاد لمرأى كلّ غصنٍ أراكةٍ  
وأعشق نور البدر ليلة تمّه  
يقول عدولي شفّ<sup>(١)</sup> مسكتك الهوى  
فقلت جميع الرشد في سبل حبه  
وقالوا أضعت العمر في حبّ أهيفٍ  
فقلت لهم يا حبّذا ما أضعته  
فدى كلّ طربي بين (سليح) و(حاجر)  
ومهما يعذبني فعذب مذاقه  
وما أسعد الليل الذي أنا ساهرٌ  
وقالوا قطعت الأربعين فما الهوى  
ولم يعلموا أنّ المهار وإن زكتُ  
بلى أنا سلطان الغرام وهذه  
إذا في كتاب الحبّ طالع عاشقٍ  
أنا الصبّ متبولاً بذكر حبيبه  
خليّ إذا رام الصلاة تداخلتُ

فأهفو إليه كلّما مرّ سانحةً  
معاطفه في خاطري وجوانحه  
أعانقه من أجله وأصافحه  
لأنّ قد بدتُ منه عليه ملامحه  
فأنتَ لعمرى ذاهب الفكر سائحه  
إذا لاح لي من ذلك الوجه لائحه  
ومن علق<sup>(٢)</sup> الغزلان فانت مصالحه  
بمن حبه كنز تنوء مفاتحه  
لمهجة ظبي في الفؤاد مسارحه  
ومهما يؤرّقني فإنّي مُسامحه  
وما أقدس الدمع الذي أنا سافحه  
وقد صاح في فوديك للشيب صائحه  
لتعجز عمّا بدّ في السبق قارحه  
صحائفه في راحتى وصفائحه  
فقلبي مملية ودمعي شارحه  
وشرط المعنى أن تغيب جوارحه  
تحياّته مع ذكره وفواتحه

\* راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٣٥.

(١) شفّ: رقق من النحول.

(٢) العلق مصدر، كلّ ما يعلق باليد.

## أما القصيدة الثانية، فهي:

أبيتُ أحيي الليالي في تذكره  
مسهدًا وأرى ذاك الخيال فيا  
لا غرؤَ فيمن تجلّى نصب ناظره  
فما ثنى عطفه في الصفّ تحت لواء  
فانسبُ إلى قدّه ما شئتَ من هيفٍ  
غير الملائك لا تلقى له شبهًا  
لم يبقَ للحسن معنى لم يتمّ به  
بين الأضالع منه نار حاطمةٍ  
يفترُّ عن مبسمٍ تفدى بكلّ أبٍ  
يا ساقى الكأس ما بالكاس لي أربُّ  
ما زلتُ أفديه حتى صار أعذبها  
يا لائمي فيه سرّح طرف طرفك في  
وانظرْ هُديتَ إلى ممشوق قامته  
وإن أبيتَ سوى ظلمي وتخطّتي  
فاق الملاح جميعًا في محاسنه  
وكلّهم من حبيب القلب ملتمسٌ  
ومحرمون وقوفًا من مكانته

وهي التي فيه تحيني من العدمِ  
من بات يجمع بين السهد والحلم  
قوامه إن غدا مضى ولم ينم  
إلا (أرقتُ لذكر البان والعلم)  
واعطفُ على وجهه ما شئتَ من نعم  
إن لم يكن منهم فهو ابن عمّهم  
فمن يهم في حبيبٍ بعده يهم  
علاجها رشفةً من ريقه الشيم  
منه لآلئٍ قد أغرقن في اليتم  
وكأس الحافظه بالخمير ملء فمي  
عندي إذا دارت الأقداح كأس دمي  
رياض منظره الزاهي وكن حكّمي  
تأخذ من العدل أحكامًا وتستقم  
فما تشا فاهتضمني فيه وأتّهم  
فما لهم في قسام معه من قسم  
غرّفا من البحر أو رشفًا من الدّيم  
بحضرة القدس أو في ساحة الحرم



ردّ آخر للأمير على قصيدة  
لخليل مردم نشرتها مجلة الزهراء \*

قل للخليل مفديًا أوطانه  
هذا لتثقيف القناة، وهذه  
في مثل هذا يا ابن (مردم) يلتقي  
إن كان في الشبان مثلك جملةً  
أفديك بالروح العزيزة إنَّها  
وموصيًا إن راح بالأولاد  
وقفٌ لأسوٍ جراحة وضما:  
عِظْمُ الجدود وسؤدد الأجداد  
فلنا الرجاء بأمة وبلاد  
لفداء مثلك من عزيز فاد

\* راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٣٩.

## قصيدة تهنئة إلى صديقه شبلي الملاط

بمناسبة عقد قرانه (١٩١٧)\*

كم بنت فكر قد رفعت نقابها  
من بعد ما عزت على من رامها  
زفت إليك جميع أبكار النهى  
مجلوة تمشي على استحياء  
هيهات تطمسها عيون الرائي  
فاهناً ببكر زفافك العصماء

---

\* راجع كتاب «أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصره» للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٥٢.



## أبيات في الشيخ عبد الكريم سلمان،

وهو من الكتاب ومن صحبة الإمام محمد عبده\*

بأذجٍ شامخٍ طويلٍ جسيم  
وقوامٍ كالرمح في التقويم  
فعلٍ برٍّ لو تعلمون عظيم  
وينالوا من فوق فوق المروم  
من فحول الإسلام غير عقيم  
يرردّ السفية مثل الحلِيم  
عن مقالٍ في القوم غير ذميم  
كإمامٍ والعبد كالمأموم  
هـ فسلم بأفضل التسليم  
أهده شوق ساكن بالروم

أيّ شيخٍ كالشيخ عبد الكريم  
سلب الناس منه سيف لحاظ  
يدفع الناس في طريق المعالي  
غيرة منه كي يصيروا رجالاً  
فإذا ما لقيته فالتق فحلاً  
مرشد للأنام في ذلك الأم  
فجزاه الإله عنهم خيراً  
فيه يحيى بعصرنا رأى يحيى  
يا نسيم الصبا سألتك بالد  
حيّ وجه الشيخ الجليل بمصر

\* راجع كتاب "أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه" للأستاذ نجيب البعيني، ص. ٢٧٠.



## فهرست المحتويات

- ٥ \* كلمة لا بد منها
- ٧ \* مقدمة الناشر
- ٩ \* تقديم / بقلم د. عبد العزيز المقالح
- ١٩ \* تصدير ديوان أمير البيان / بقلم خليل مطران
- ٢١ \* مقدمة / بقلم الأمير شكيب أرسلان
- ٢٣ \* القسم الأول من الديوان : المراسلات السامية
- ٢٤ - قالت الزهور
- ٣٧ \* القسم الثاني : في مساجلات شعرية ومفاكهات أدبية
- ٤٨ - حادثة سياسية استحالته فكاهة أدبية
- ٥٣ - مدحتي لسمو الخديوي توفيق باشا
- ٥٧ - تاريخ مولود عزيز
- ٥٧ - جواب عالم في بوسنة
- ٥٨ - ذكرى شاعر الألمان الحكيم
- ٥٩ - زيارة قبر سيف الله ورسوله وقائد جيوش العرب والإسلام الأكبر
- ٥٩ - ما أنشد في حفلات تكريم كبار الشعراء
- ٦٦ - قصيدة حفلة عبد الحميد بك الرافي
- ٦٧ \* القسم الثالث : في مراثي العلماء والأدباء والكبراء
- ٦٧ - رثاء إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ أحمد فارس الشدياق
- ١٠٣ - لوعة أخ على أخيه
- ١٠٦ \* القسم الرابع : في المدائح السلطانية وشنون السياسة العثمانية
- ١٣٧ - ذكرى الأندلس
- ١٤٥ - الباكورة
- ١٤٥ - إهداء الباكورة

- ١٥٦ - وقلت أشكو الزمان
- ١٥٩ - وقلت متغزلاً بالحسن المعنوي مفتخرًا بأصحابه
- ٢١١ - رثائي لحجة الإسلام
- ٢١٤ \* ملحق الديوان ، قصائد غير منشورة سابقاً
- ٢١٤ - العصر الجديد
- ٢١٦ - إلى سعادة الهمام أمير النظم والنثر محمود باشا البارودي
- ٢١٩ - إن هذا الشعر في الشعر ملك
- ٢٢٢ - الساعة
- ٢٢٣ - مراسلة مع محمود سامي البارودي
- ٢٢٤ - رثائي لجاحظ العصر ونادرة العرب السيد مصطفى صادق الرافعي
- ٢٢٨ - أبيات رافقت إهداء ديوان «باكورة»...
- ٢٢٩ - في حسناء أرمينيا
- ٢٣١ - قصيدة للأمير شكيب أرسلان إلى خليل مردم
- ٢٣٣ - نظم الأمير قصيدتين ينتصر بهما لرجال الأربعين
- ٢٣٥ - رد آخر للأمير علي قصيدة لخليل مردم نشرتها مجلة الزهراء
- ٢٣٦ - قصيدة تهنئة إلى صديقه شبلي الملائط...
- ٢٣٧ - أبيات في الشيخ عبد الكريم سلمان...
- ٢٣٩ \* فهرست المحتويات

